المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الحادي عشر بعد المئة

١ ديسمبر سنة ١٩١٧ — ١٩ محرم سنة ١٣٣٦

التكافل الاشتراكي

نظرية مّا في النظام الاجتماعي

المبحث الاول في تحليل النظرية

١ — التكافل : انتقال من حالة العجز الى حالة القدرة

الانسان حيوان تجري عليه كل النواميس التي تجري على غيره من الحيوانات التي تنزل عنه مرتبة في سلم الوجود . ذلك ما أبان عنه علم الاحياء (البيولوجيا) في حياة الفرد ، وما أثبته بصورة قاطعة علم التطور في تأصل الانواع .

ظل الانسان أحقاباً تلو أحقاب يتوارث تلك الخرافة القديمة ، خرافة أنه من طينة غير طينة الاحياء ، وانه يعود بأصله الى خليقة قدسية ، وانه النوع المختار في نظام الكون وانه سيد جميع المخلوقات . ترتب على ذلك ان يقوم في نفسه اعتقاد ثابت تتقبّل معه خلال الأزمان ، اعتقاد أن كل النظامات التي ورثها عن بدائياته الاولى إنما هي نظامات فيها من القدسية ومن الآزلية والثبات ، ما في ذلك المنبع التي ادعى الانسان جهلاً وزوراً أن أصله يعود اليه . فبقدر ما في طينة الانسان التي ادعاها لنفسه من أصل سماوي كان في نظاماته الاجتماعية كذلك أقباس قدسية تسيره وتحاق في مجتمعه طبقات بعضها يعلو بعضاً ، وأقدار

تقسم الحظوظ ، وتوزع الأرزاق حتى ترتب على ذلك أن يقوم في نفس الفرد وفي مخيلة الجماعات ان الخروج على هذا النظام ، بالفكر أو بالفعل ، افتيات على السلطة العليا التي فرضته والارادة الشاملة التي صورته وأقامته على أنه النظام الذي يجري على سنن ثابتة ، كأنه الجاذبية التي تحفظ نظام الافلاك ، أو نواميس العدد والحساب .

مما قام على ذلك الوهم نظرية الحق الالهي للملوك في أن يحكموا في الأرض بارادة الله ، وان لهم أن يوزعوا من ذلك الحق وهذا السلطان مقادير على من هم دونهم من أصحاب الحظوظ الذين يحكمون باسمهم ، وراح الناس لهذا خاضعين لأن الذي يعتدي على هذا الحق انما يعتدي على الارادة التي شاءت أن يكون النظام على ما هو كائن أبد الآبدين ودهر الداهرين .

ومما قام عليه أيضاً وهم أن الكنائس وأرباب السلطة الدينية هم وكلاء الديان الأعظم وانهم يستمدون منه الجبروت والسلطان ، فنشروا فكرات ومذاهب راحوا يبطنونها على الناس خلال عصور طوال ، حتى لقد اعتقدوا ان الخلاص ودخول الجنة من الأشياء التي تجدي فيها القوة والجبر ، فراحوا يفتكون بالانفس والارواح حرقاً وذبحاً وتمثيلاً ، حتى ولو قال زاهد في الجنة إنه زاهد فيها ، لما ترددوا في أن يجلدوه بالسيف أو يلقموه النار لأن دخوله الجنة فرض عليهم ولو زهد هو فيها ، لأنهم بذلك إنما يتقربون الى الله .

ولو اننا أردنا أن نعدد غير ذلك من أوهام البشر ، لاحتجنا الى فراغ كبير ولكن يكفي أن نقول إن كثيراً من هذه الاوهام ، أو قل جلها ، قد زال وانقشعت غياماته من سماء العقل ، وانحدرت الى حيث تطويها ظلمات القرون . أكثر هذه الأوهام ومنها المعجزات والخوارق والكرامات وما الى ذلك قد ماتت الآن ميتة صحيحة ، حتى ان أحداً لم يحس بها كيف ماتت أو كيف اقتلعت جذورها من رحاب العقل ، وتلك ظاهرة لا سبيل لها عندي الا تقدم المعرفة وضعف الاحساس بأن للغيب أثراً مباشراً في جزئيات هذه الحياة ومتعلقاتها . وتطور الفكرة الحضارية ، بمقتضى النواميس والحقائق الثابتة التي كشف عنها العلم في العصر الحديث .

كشف العلم عن وحدة الحياة . فإن الحياة الآن سواء أظهرت في صورة نبات أو حيوان إنما ترجع الى وحدة هي الخلية البسيطة التركيب العضوية القوام ، التي يمثل الحركة

الحيوية فيها شيء يقال له « النواة » فخلية نباتية بلا نواة « هي خلية ميتة وكذلك الخلية الحيوانية . فاذا إن انتزعت منها « النواة » انتزعت منها سر الحياة ، وانتزعت منها قوة التكاثر بالانقسام ، بل أنك تكون قد انتزعت منها كل ما يخرجها من عالم الحياة الى العوالم الموات . وليس الانسان في ذلك خلقاً وحده . فإن أصله خلية واحدة ، طبيعتها من حيث أنها حية ، طبيعة خلايا جميع الاحياء . فالإنسان يقتضي ذلك حيوان جرت عليه سنن الوجود كما جرت على غيره من الاحياء ، فتنقل في منازل من التطور دلت عليها بضعة مكتشفات علمية أظهرته في بداياته الأولى أقرب الى القردة العليا منه الى الإنسان الحالي ، وبين هذين المدرجين حلقات طويلة من التطور طواها الزمن في ثناياه .

وكشف العلم عن أن الارض التي هي مقرّ الانسان بأصله المقدس وطينته العلوية ، إنما هي ذرّة بسيطة في وجود يكاد لا يتناهى ، وأنها هباءة تدور من حول نجم صغير ، هذا النجم بذاته ليس إلاّ كلا شيء بالقياس على الأكوان التي تتراءى في ذلك الفضاء . فلم تصبح الأرض مركز الوجود الكوني ، ولا مكانها هو المكان المختار منه ، لتكون مقرّ الخلق المختار ، الذي هو الانسان .

تبدّدت الأوهام التي تجمعت في خيال الانسان وانفجرت كأنها قُشَاعة من العابرين ضغطها الهواء ، فنشطت العقول الى البحث ، وراحت طبيعة الانسان تدعوه الى أن يعدّل مركزه الوجودي بمقتضى الحقائق الجديدة ، فخلف وراءه المعجزة والخارقة والكرامة ، ونسي قانون الصدفة ، ليؤمن بقانون السببيّة الشامل في هذا الكون وفي هذه الحياة .

فالعلم إذن هو الأساس الذي تقوم عليه معرفتنا بحقائق الحياة . ولم يبق للعقيدة والأسطورة والمعجزة من مكان بجوار العلم . وما يثبت العلم هو الواقع ، وما ينافيه هو الأضلولة . وتلك هي الجادة التي ينبغي لنا أن نقيمها في حياتنا الحاضرة الحديثة . فمن أخذ بها أخذ بالسنة التي تنير سبيله في الدنيا فرداً أو شعباً أو جماعة ، ومن تنكر لها تنكر له الوجود

وتلك هي جناية العلم . جناية جناها على القدماء وعلى المحدثين . بدّد الأوهام التي عاش أوائلنا سادرين في كنفها ، راضين بأن يلقوا بحياتهم في أحضان المعجزة والمصادفة والغيب

وفتح أمام المحدثين رحاباً حفزتهم الى التطلع الى آمال وأغراض بعيدة الآفاق طويلة الآماد فسيحة الرحاب ، ونقل الانسان من الايمان بالآخرة الى الايمان بالدنيا ، وإن شئت الحيطة ، فقل إنه جعل إيمانه بالدنيا سبيلا الى الايمان بالآخرة ، فارتدت أمام العقل آفاق وسمته في أيام جهالاته وأساطيره الأولى ، وحلت محلها آفاق أخرى تتسع دواليك وتترامى حياتها بنسبة اتساع العقل ووقوفه على أسرار هذا الوجود الانساني في أية صورة تشكل وبأي طابع طبع ، فرداً أم جماعة ، أسرة أم قبيلة ، حكومة أم شعباً ، وبيّن السبيل وأنار الطريق الى أهداف تراءت أمام العقل ، حتى لقد استبان فيها الأسباب التي أدّت الى تعاساته وشقاواته ، وأمدّه بنور كشف له عن سبيل قد تسلم به الى درجات من الارتقاء والتطور قلما خطرت ببال انسان قبل قليل من الزمان .

* * *

استحدث العلم جملة انقلابات سارخة في التمثّل الانساني . من ذلك جحوده المعجزة وإيمانه بالسببيّة . ومنها أنه حيوان قابل للارتقاء والتقدم ، لا خلق جامد صوّر على نموذج لا يتطوّر . ومنها قدرته على الخلق ، بمعنى استحداث تأليفات جديدة من المادة أو الفكر ، مستمدة من عناصر قديمة . ومنها إيمانه بذاته بالقوى المجهولة التي احتكت في خيالاته وقدرت حالات حياته تقديراً . أمّا أعظم هذه الانقلابات جرماً وأبلغها أثراً في حياته الاجتماعية ، فتقييم نظاماته الحضاريّة بمقتضى المنفعة والحاجة ، ويقينه بأن قيم هذه النظامات ليست جامدة ، بل هي تطورية تجري عليها نواميس النشوء جريانها على كل ما في الوجود ، فقيمة شيء ما من أشياء الاجتماع قد تصلح لعصر ، ولكن لا تصلح لغيره ، وان هذه النظامات تكاملية ، بمعنى أن جزءاً منها إذا تطور انبغى ان تتطور معه بقيتها ، وإلاّ اعتلّ مجموعها باعتلال أجزاء منه ، وما اعتلاله إلاّ تخلفه عن التطور .

هذا الانقلاب الذي أحدثه العلم ، هو في معتقدي من الأسباب الصارمة التي وجهت خطى الجماعات في العصر الحديث ، وهو الذي يعود إليه كل ما في المجتمعات الحديثة من صور وأشكال ، شيوعية أو اشتراكية ، جماعيّة أو ضمانيّة ، استبدادية أو ديمقراطية ، دكتاتوريّة أو فوضوية . وحتى مذهب العدميّة ، فإنه لا يخرج عن حكم ذلك . فإذ هذه

الاتجاهات والنزعات هي في الواقع انعكاسات مختلفة تصدر عن بيئات مختلفة ، وتتباين فيها قيم النظامات الاجتماعية . على إنها جميعاً انما تدل على أن القيم الاجتماعية التي آمنت بها الجماعات الإنسانية حتى وقت قريب ، قد أخذت تتطور ، وانه يقتضي ما لنا بها من علم قياساً على إحداث التاريخ ، قد أخذت تزداد مرونة حتى أن تشكلها في صورة بعينها من الصور ، قد أخذت تكتمل قسماته وتستبان تفاصيله .

لا نستطيع أن نصدر حكماً تشخيصياً في واحدة بذاتها من هذه القيم الاجتماعية ، فنقول بأنها ستصبح صاحبة الأثر الشامل في نظام الاجتماع . فليس في مستطاعنا مثلاً أن نقضي بأن وجهاً بعينه من وجوه الاشتراكية أو الشيوعية أو غيرهما من المذاهب أو القيم ، هو الذي سوف يكون له السلطان على أقدار البشر . إنما الحكم في مثل هذه الأشياء ضرب من التفريط لا تسوغه طبيعة العلم . والعلم ايجابيّ عقلي محدود الأطراف . وفحاوى ما يدلنا عليه العلم استنتاجاً من ظروف الحالات والاتجاهات التطورية التي شهدناها في خلال قرن كامل من العصر الحديث ، أن هنالك وجهاً من التطور سارت في دربه الجماعات الإنسانية ، وجهاً جديداً أقام في نفس كل مفكر ، مهما انضمت قوى فكره ، ان الحضارة تتجه في تطورها نحو نظام تتسع فيه دائرة المشابهات بين الأفراد ، وتضيق فيه دائرة الفروق بينهم ، وانه يقتضي التدرج في هذا الاتجاه مستقل الفروق التي أقامتها الأوهام القديمة بين الطبقات . أما الحكم في الصورة النهائية التي سوف تلابس هذا الاتجاه التطوري ، فالقول بها راجع الى تقديرات تختلف باختلاف قوة الحكم وتباين النزعات والمشاعر والعواطف بين الباحثين ، كما إنها تخضع في أحيان كثيرة لظروف البيئة والوراثة فردية واجتماعية في السلالات والشعوب .

لقد زوّد العلمُ الانسان بقوى جديدة ، وهيأ له من الأسباب ما مكّن له في الأرض ، حتى لقد يستطيع اذا رفدت أحلامه ان يكون له أثر في توجيه خطى التطور نحو أهداف جديدة تقربه شيئاً بعد شيء من عصره الذهبي الذي تطلع اليه كثير من الفلاسفة . لهذا لا ينبغي لنا أن نيأس من قدرتنا على توجيه خطى التطور نحو الغايات العليا والمثل التي تتطلع اليها ، بل يجب أن نستعين بالعلم ونسترشد بأحكامه وحقائقه ، موقنين بأن التطور إذ كان من أشياء الطبع ومن خصائص الطبيعة ، فانه في الاجتماع من الأشياء التي يمكن أن تحتكم

فيها الارادات الإنسانية ، وإنه يمكن توجيهه في طريق مأمون سليم من عنف الفرضى ومن عواقب الانقلابات الفجائية . واعتقد فوق ذلك ان إقامة نظام المجتمع على قاعدة « التكافل الاشتراكي » هو آمن سبيل تتوجه فيه الاتجاهات التطورية . وإذن نتساءل ما هو « التكافل » أوّلَ شيء ؟

* * *

« التكافل » في عالم الاحياء معناه « المعايشة » أو « التعايش » . ومجرد النظر في « التكافل » من ناحية لغوية صرفة ، ينقل الى الذهن معنى يناني معنى « التنافس » في الحياة الاجتماعية ، ومعنى « التناحر على الحياة » في الحياة الطبيعية . وفي التكافل معنى « التفاعل » وهي صيغة تدل على تبادل الأثر . جاء في لسان العرب .

« الكافل العائل : كَفَلَه يَكفُله وكَفَّلَه إياه ، وفي التنزيل العزيز وكَفَّلها زكريّا ، وفي الحديث أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة له ولغيره ، وقوله كهاتين اشارة الى أصبعيه السبابة والوسطى ، والكافل القائم بأمر اليتيم المربّي له ، وهو من الكفيل الضمين ، وتكفّل بدينه تَكَفُّلاً . ضمنه ؟ الخ .

فأنت ترى من ذلك أن « التكافل » معناه « التضامن » ، تفاعلاً بين طرفين . والتكافل في اللغات الاعجمية تدل عليه كلمة مركبة (Symbiosis) من كلمتين يونانيتين تخريجهما « التحايي » أو « التعايش » ، والمدلول العلمي هو « الحياة المتحدة أو الاتحاد الحيوي بين كائنين عضويين »

ولا ضرورة للغوص في ضرب أمثال علمية من حياة الحيوان والنبات لتبيان ذلك ، إذ يكفي هنا أن نعرف على وجه الاختصار أن التكافل في الحياة العضوية معناه ضرب من المعايشة يتوقف فيه حياة كائن على حياة آخر ، بحيث تصبح حياتهما مرتبطة ارتباطاً تكافليًّا تشترك فيه المصالح بينهما اشتراكاً حيويًّا لكليهما

من الخصيات البينة في النظام الاجتماعي الذي ورثته الحضارة عن نظام الاقطاعات ، خصية قيام الحياة الاجتماعية على قاعدة التنافس ، مع تفاوت الفرص بين الناس . وكان من الطبيعي أن نظاماً يخرج من ثنايا النظام الاقطاعي لا بد من أن يرث الكثير من خصائصه . ولكن هذه الخصائص التي ورثها العصر الحديث عن القرون الوسطى ، كانت ولا شك بزرة

الفساد التي حملتها المدنية الجديدة الى أجيالنا التي نعايشها . ولقد فرّخت تلك البذرة وتكاثر نسلها وتشعب في نواحي المجتمع ، وكان من أخص ما فرّخت ، النظام الرأسمالي على الصورة التي نعهدها في عصرنا هذا .

لا شك أنه من الطبيعي أن يتولد عن النظام الاقطاعي نظام فيه تفاوت كبير بين الطبقات . على أن هذا النظام المتطور عن نظام الاقطاع إن كان قد خطا بالانسانية خطوة كبيرة نحو تقارب الطبقات ، فانه ولا شك قد حمل في ثناياه كثيراً من مفاسد ذلك العصر ونقائصه .

النظام الرأسمالي الحديث نظام فيه من تقارب الطبقات قدر يمكن أن يعتبر خطوة الى الأمام ، بالقياس على حالة الجمود التي اتصف بها العصر الاقطاعي . غير انه حمل في ثناياه أعظم نقائص ذلك العصر . حمل معه نقيصة تفاوت الفرص بين الأفراد بدرجة واضحة . فالفرد الحر ، من أجل أن يكون حرًّا بمعنى الكلمة ، ينبغي أن يعطى فرصة مساوية أو مقاربة للفرصة التي تتهيأ لغيره من أفراد الجمعية . أما أن يكون حرًّا أمام القانون ، بمعنى أنه ليس عبداً رقيقاً من وجهة النظر القانونية وحدها ، وان القانون يحرره من كل القيود التي قيدت العبيد والارقاء في العصر الروماني وفيما تبعه من عصور الحضارة الأوربية إلى حدود العصر الحديث ، ثم يترك مستذلاً بقوة الطبقة التي تعلوه ، وما قوتها إلا المال ، تستغل به الفرص التي ينبغي أن تكون مشاعاً للجميع ، فإن ذلك هو عند الواقع انتقال من حال من العبودية الى حال تماثلها ، مع فرق واحد ، هو الاعتراف نظريًّا بتساوي الجميع أمام القانون .

غير ان خروج الجماعات من أسر النظام الاقطاعي قد هيأ لها فرصة حقيقية مهدت لها سبيل الارتقاء . هيأ لها فرصة الشعور بالقوة ، وبددها من الشعور بالضعف والاستكانة شعوراً بأن لها حق الحياة ، وان حق الحياة حق مشاع لكل أفراد الجمعية ، على ان يكون فيه من تساوي الفرص ما يضيق دائرة الفروق بين الطبقات على أوسع صورة مستطاعة .

على أن تفاوت الفرص أمام الأفراد ، وحصر المال في يد فئة بعينها من الجمعية ، قد قلب نظام المجتمع ، مع تحول العصر الصناعي ، من ركود العصر الاقطاعي الى تنافس العصر الانتاجي ، فظهر الاجتماع الإنساني في صورة معركة حامية الوطيس بين الرأسماليين الذين

يستغلون عالمهم أسمى الفرص، وبين اللارأسماليين الذين تفوت عليهم فرص الحياة بسبب ضعفهم المالي، وحاجتهم الى سد مطالب الحياة التي لا تسد إلا بالعمل، سمت صورته أم اتضعت، حسنت أم فسدت. فتقسم الناس بذلك معسكرين كبيرين، العمال وأصحاب المال، وظهر بذلك مذهبان مذهب القول باستعباد الفرد لصالح الجمعية، وهو مذهب التطرف الاشتراكي، ومذهب استعباد الجمعية لصالح الفرد، وهو مذهب التطرف الرأسمالي.

وأعتقد ان كليهما مُحَطِّم لناحية ضرورية من نواحي الحياة الاجتماعية، فالفرد ضروري للمجتمع وحريته كفيلة بتطور الجماعة، والجماعة ضرورية للفرد على ان لا يكون لسيادتها عليه مع الأثر ما يضيع على الجمعية أثره الفردي. إذن فلا بدّ من قيام لنظام اجتماعي على قاعدة «التكافل» بين الفرد والمجتمع، حيث يتكاملان بدون أن يطغى طرف منهما على صاحبه. وذلك هو موضوع النظرية في هذا البحث.

إن النظام الذي خرجت به الحضارة من عصر الاقطاعات، نظامٌ أصاب الجماعات بضروب خاصة من العجز. وهو بما ينطوي عليه من تسود أقليّة محظوظة على أكثرية غير محظوظة، بأسلحة يورثها لطبقة بعينها ويحميها القانون بمقتضى أنه قانون خرج من جوف ذلك النظام ومن بيئته، قد أفرغ على الجماعات صورة من التفاوت الطبقي هي بذاتها دليلٌ حيّ على عجزه عن خلق صورة من الاجتماع يسود فيها السلام. صورة تركب بحيث تدفع كل فرد نحو العمل بأقصى ما تصل استطاعته لخير الجمعية، وتركب الجمعية تركيباً من شأنه أن تنمي الكفايات الفرديّة.

النظام الرأسمالي نظام تنافسيّ. ولكنه مع ذلك يصد الكفايات الفردية عن النماء. فان تفاوت الفرص التي تهيأ فيه للناس وعدم تقاربها يجعل استغلال الكفايات الفردية الكامنة في مجموع الأمة أمراً مستحيلاً بذاته على المجموع الأكبر من الناس. وكذلك النظام الاشتراكي المتطرف الذي يجعل الدكتاتورية أساس حكمه من شأنه أن يصد الفكر عن الابتكار ويصد التطور عن أن يخطو في الطريق السليم الذي يدفع الجماعات نحو غايات مثالية من التعاون المعاشيّ والفكريّ.

أما التكافل الاشتراكي فنظام من شأنه أن يصد طغيان الفرد على الجمعية، ويصد طغيان الجمعية على الفرد. هو تركيب اجتماعي تتساوى فيه الفرص عند الفرد لتنمية كفاياته الفردية، وعند الجمعية لتسابر مقتضى التطور الضروري لوجودها. هو نظام يخرج الجماعات عن حالة العجز التي ورثتها عن عصر الاقطاع الى حالة القدرة التي سوف تبلغ بالجماعات البشرية الى غاياتها العليا.

إسماعيل مظهر

باكستان

١ — حقائق عامة

تبلغ مساحة الهند ١٫٥٧٢٫٠٠٠ ميل مربع وعدد سكانها وفقاً لاحصاء عام ١٩٤١ — ٣٨٨٫٩٩٧٫٩٥٥ نسمة يؤلفون خمس سكان العالم . ويتكوّن السكان من عدد هائل من الأجناس والديانات المختلفة .

وفيما يلي التوزيع الطائفي لسكان الهند وفقاً لذلك الاحصاء

الطائفة	العدد	النسبة المئوية من المجموع
الهندوس (عدا المنبوذين)	٢٠٦٫١١٧٫٣٢٦	٥٣٫٠
المنبوذون	٤٨٫٨١٣٫١٨٠	١٢٫٥
	٢٥٤٫٩٣٠٫٥٠٦	٦٥٫٥
المسلمون	٩٤٫٣٨٩٫٤٢٨	٢٤٫٣
مسيحيون	٦٫٠٤٠٫٦٦٥	١٫٦
السيخ	٥٫٦٩١٫٤٤٧	١٫٥
طوائف أخرى	٢٧٫٩٤٥٫٩٠٩	٧٫١
	٣٨٨٫٩٩٧٫٩٥٥	١٠٠

وينتشر الاسلام في كافة أنحاء الهند بنسب مختلفة ، على أن أعظم نسبة له هي في الشمال الغربي والشمال الشرقي للبلاد . فعلى الحدود الأفغانية الهندية أو خط دوراند كما يدعى ، تجد ولاية الحدود الجديدة التي يقطنها أكثر من مليون وربع مليون نسمة كلهم مسلمون من القبائل الأفغانية مثل الأفريدي والوزيري وهي قبائل قوية الشكيمة عاني منها الانجليز حروباً متصلة بسبب نزوعها الى الاستقلال وأنفتها من الخضوع لأجنبي ، ولا يحكم الانجليز فقط هذه القبائل بل تحكمها مجالسها الخاصة وزعماؤها المختارون . وعلى نهر كابول تقع مدينة

بيشاور عاصمة ولاية الحدود الشمالية الغربية وعدد سكانها ثلاثة ملايين ٩١ ٪ منهم مسلمون من الجنس الأفغاني .

ولاية البنجاب — وتقع على الضفة الشمالية الغربية لنهر السند — فيبلغ عدد سكانها ٢٨ مليون نسمة فضلاً عن خمسة ملايين نسمة سكان ٤٥ امارة يحكمها أمراء وطنيون وتقع ضمن نطاق الولاية . وولاية البنجاب هي المنتج الرئيسي للقمح والقطن الطويل التيلة في الهند . فيبلغ انتاجها السنوي من القمح ٣٫٥ مليون طن تعادل ٢٥٪ من مجموع محصول الهند منه . وعاصمة الولاية مدينة لاهور وعدد سكانها ٦٧٠ ألف نسمة وتعتبر خامسة مدن الهند في عدد السكان ، وهي مركز صناعي هام ونقطة تلاقي خطوط السكك الحديدية في البنجاب ، وبها الجامعة الوحيدة في الشمال الغربي من الهند . وشرق لاهور تقع مدينة امرتسار وسكانها أربعمائة ألف نسمة وهي المدينة المقدسة للسيخ . وسكان البنجاب بوجه عام متجانسون من ناحية الجنس والعادات . فاللغة الشائعة هي الاوردية وتكتب بحروف عربية وتكثر فيها الكلمات العربية والفارسية ، إلا أن للسيخ لغتهم الخاصة . وغالبية سكان البنجاب مسلمون ونسبتهم الى مجموع السكان ٥٧٫١ ٪ ثم يأتي بعدهم الهندوس ٢٨ ٪ ثم السيخ ونسبتهم ١٤٫٥ ٪

ومن ولايات الحدود الشمالية الغربية والبنجاب وبلوخستان والسند يتكون الشق الشمالي الغربي من الباكستان كما طالبت به الرابطة الاسلامية في مبدأ الأمر ومساحته نصف مليون كيلو متر مربع وعدد سكانه ٣٦ مليون نسمة منهم ٢٢ مليون مسلم ونسبتهم الى مجموع السكان ٦١٫١ ٪ بيد أن ثمة إمارة إسلامية هي كشمير ويحكمها راجا هندوسي في شمال البنجاب ومساحتها مائتا ألف كيلو متر مربع وعدد سكانها أربعة ملايين ٧٦ ٪ منهم مسلمون

وتقل الأغلبية الاسلامية كلما اتجهنا شرق الهند وجنوبها الى أن نصل الى ولاية البنغال في الشمال الشرقي للهند . وتبلغ مساحة البنغال مائتا ألف كيلو متر مربع ويبلغ عدد سكانها على الستين مليوناً ٥٤ ٪ منهم مسلمون . وتقع البنغال على دلتا نهر الجانج فهي من أخصب بقاع الهند ، وأهم محصولاتها الأرز والجوت ، وعاصمة الولاية مدينة كلكتا وعدد سكانها مليونان فهي أعظم مدن الهند سكاناً وأهمها من الناحية الاقتصادية ، كما أنها من أعظم نقط المواصلات الحديدية وتكاد تتركز فيها صناعة الشاي بيد أن معظم سكانها من الهندوس .

وشرق البنغال تقع ولاية آسام ومساحتها ١٤٢ ألف كيلو متر مربع وعدد سكانها عشرة ملايين ثلثهم مسلمون . وهذه الولاية أهم مراكز الهند في زراعة الشاي كما أنها تنتج النفط . ومن البنغال وآسام يتألف الشق الشرقي من الباكستان وعدد سكانه ستون مليوناً

٤ر٥١ ٪ منهم مسلمون ومساحته ٣٤٢ ألف كيلو متر مربع .

ولا يفوتنا أن نشير الى إمارة حيدر أباد في وسط الهند وهي أعظم إمارات الهند التي يحكمها أمراء وطنيون . فمساحتها ٢٤٤ ألف كيلو متر مربع وعدد سكانها يتجاوز الثمانية عشر مليوناً ويحكمها أمير مسلم يلقب بالنظام . بيد أن نسبة المسلمين من سكان الامارة ١٥ ٪ من مجموع السكان في حين أن نسبة الهندوس ٨٤ ٪ . وإمارة حيدر أباد هي الامارة الوحيدة التي لها نظامها النقدي الخاص ، ولقد أعلن أميرها أخيراً رغبته في اعلان استقلالها عن الهندوستان والباكستان على السواء .

* * *

تلك هي بعض الحقائق الاقتصادية والجغرافية عن توزيع المسلمين الاسلامي في الهند رأينا إيراد ذكرها قبل أن نخوض في الحديث في الناحية السياسية لدولة الباكستان .

٢ — القومية الاسلامية في الهند

يبدأ تاريخ الاسلام في الهند في صدر الاسلام حين افتتح العرب المسلمون السند ثم فتح السلطان محمود بن سبكتكين (السلطان محمود الغزنوي) ملتان سنة ١٠٠٥ ميلادية واستمر في فتوحاته حتى عام ١٠٢٥ فافتتح جانباً كبيراً من الهند وأخضع جانباً آخر عن طريق أداء الجزية له . واستمر كثير من خلفائه في الفتوحات حتى أصبحت سيادة السلطان المسلم بدلهي معترفاً بها من كافة سكان الهند وأمرائها . وتقلب سلطان المسلمين بين القوة والضعف فبلغوا غاية قوتهم في عصر بابر (مات عام ١٥٣٠) وأكبر (ومات عام ١٦٠٥) وأورنجزيب (١٦٥٩ — ١٧٠٧) وبعد ذلك ضعفت شوكة دولة المسلمين في الهند حتى قوض الانجليز أركانها عام ١٨٥٧ بعد أن لبثت سيادة الاسلام السياسية أكثر من ثمانمائة وخمسين عاماً فخلعوا السلطان بهادر شاه وولوا الملكة فيكتوريا امبراطورة على الهند .

ولقد كان مركز المسلمين في الهند الشغل الشاغل لكثير من ملوكهم فيها . فانه وإن اعترف امراء الهندوس بسيادة السلطان المسلم في دلهي وارسالهم الجزية إليه ، إلا أن قوتهم السياسية ظلت حائلاً دون انتشار الاسلام بين رعاياهم فضلاً عن ان اضطراب أحوال الهند بتأثير الغزوات المغولية والفارسية المختلفة والفتن الداخلية بين الحكام حدّت تقدم الاسلام الروحي كثيراً .

وكان يروع ملوك الهند الخصيفين انقسام بلادهم وتفرق كلمتها فابتكر السلطان أكبر لغة الاوردو وهي مزيج من الفارسية والعربية وبعض لغات الهند كي تحل محل لغات الهند المختلفة واجتذاباً للهندوس ، وعمد الى الغاء الجزية ورحب بهم في الوظائف العامة وتزوج

على المساهمة في ادارة شئون البلاد حتى كان منهم الولاة والوزراء . بيد أن سياسة أكبر وان أفلحت في تهدئة أحوال الهند واشاعة الأمن في ربوعها، الا أنها لم تفلح في استئصال جذور الخلافات بين عناصر الهند المختلفة وفي القضاء على أسباب العداوة والبغضاء الكامنة في النفوس . والواقع أن الطائفية في الهند ليست مجرد دين ولكنها تعني هناك نظاماً يربط أفراد الطائفة الواحدة دينيًا وسياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا . ونجد المجتمع الهندوسي ينقسم عدة طبقات ينفصل بعضها عن بعض وتعتبر الطبقة الأخيرة منها طبقة منبوذة ويلقب أفرادها بالأنجاس .

ومن ثمّ بدت الطائفية في الهند في مظهر فذ . بيد أن حدتها لم تبلغ طوال الحكم الاسلامي بالشدة التي هي عليها الآن . وبعد ثورة ١٨٥٧ وقد ساهم المسلمون فيها بالنصيب الأوفر أبعد المسلمون عن وظائف الدولة والمهن الفنية الحرة كالطب والمحاماة وبيعت كثير من أملاكهم فأدى هذا الى تقوية النفوذ الهندوسي في النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وعزز ذلك نفور المسلمين خلال القرن التاسع عشر من المدنية الأوربية فانتفع الهندوس بها .

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر بدأ المجتمع الاسلامي الهندي يفيق من سباته . ففي عام ١٨٧٥ أنشئت كلية عليكرة ثم تتابع انشاء المعاهد العلمية والصحف الاسلامية ، وتقدمت النهضة الاسلامية علميًا واقتصاديًا . وكان طبيعيًا أن تتخذ الحركات السياسية في الهند مظهراً دينيًا . فأقبل الشعراء المسلمون يتغنون بمجد الاسلام وعظمته والكتّاب على انشاء المقالات وتأليف الكتب في تاريخ الاسلام والنظم الاسلامية . وتألفت الجمعيات المختلفة وعلى رأسها « جمعية الخلافة الاسلامية » برئاسة الشقيقين شوكت علي ومحمد علي . وأيدتها جماعة علماء الهند . وكانت تنحو كلها الى نصرة الاسلام وتعتبر مسلمي الهند جزءًا لا يتجزأ من مسلمي بقية العالم الاسلامي وبخاصة مسلمي الشرقين الأوسط والأدنى ، واتخذت الحركات السياسية الاسلامية مظهراً معادياً لبريطانيا بسبب موقفها من تركيا في الحرب العالمية الأولى ، وفي سنة ١٩٢٠ وافقت جمعية الخلافة على برنامج غاندي الداعي بعدم التعاون، وعقب ذلك وافق مؤتمر عقد بمدينة ألله أباد ضم زعماء المسلمين والهندوس على ذلك البرنامج . وعزز هذا التقارب ما فرضته معاهدة سيفر على تركيا (١٠ أغسطس سنة ١٩٢٠) من شروط فادحة . بيد أن ازالة الخلافة العثمانية قلل كثيراً من حماس جمعية الخلافة . ثم جاء الخلاف بينها وبين غاندي وانقسامها فريقين انضم أحدهما إلى المؤتمر بزعامة مولانا أبو الكلام آزاد ، والثاني ظل على ولائه للجمعية وتبع ذلك الانقسام تجدد المنازعات

الطائفية وضعف فأن جمعية الخلافة خلت محلها الى التعبير عن أماني مسلمي الهند وآرائهم « الرابطة الاسلامية » التي قامت على أسس جديدة تتفق وطبيعة النظام الطائفي في الهند وتهدف الى انشاء وطن اسلامي هندي .

* * *

في سنة ١٩٣٧ انتشرت فكرة الباكستان عن الوطن الاسلامي الهندي ، والكلمة مشتقة من الحروف الأولى للكلمات التالية : بنجاب — أفغان الحدود — كشمير — سند بلوخستان . وفي عامي ١٩٤٠ و ١٩٤١ أصدر مؤتمرا الرابطة بمدينتي لاهور ومدراس على التوالي ، قراراً بأن المسلمين يقاومون كل حل للمسألة الهندية لا يحقق فكرة الباكستان ، ولقد كان تجدد الاضطرابات الطائفية وأخذها شكلاً عنيفاً جداً بعد الحرب الأخيرة ، ماحدا بالحكومة البريطانية الى تقديم مشروع يعترف بتقسيم الهند دولتين : اتحاد الهند والباكستان . وقد قبلت طوائف الهند المختلفة المشروع البريطاني ، وفي ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٧ تودي بدولتي اتحاد الهند والباكستان وتتخذ الاجراءات الآن لتعيين حدود الدولتين وفصل المصالح المختلفة .

٣ — مشكلات تقسيم الهند

الباكستان دولة ذات شقين : الأول في الشمال الغربي ويشمل حوض نهر السند ، والثاني في الشمال الشرقي ويتضمن دلتا نهر الكانج والبراهما بوترا ، ومتوسط نسبة المسلمين في شقي الباكستان كما طالبت به الرابطة الاسلامية في مبدأ الأمر بـ ٥٦ ٪ من مجموع سكانهما وتشمل (وبفرض ضم كشمير اليها) ٦٦ ٪ من مسلمي الهند

ولما كانت نسبة الأغلبيات غير الاسلامية كبيرة تعوق اكتساب هذه المناطق طابعاً اسلامياً مميزاً فقد روعي فصل المناطق التي تحتوي على أكثرية غير اسلامية كلما أمكنت الأحوال الجغرافية والاقتصادية ذلك . وهذا ما نص عليه مشروع الحكومة البريطانية إذ قضى بتقسيم البنجاب والبنغال بين دولتي القارة الهندية . ويوافق المسلمون على فصل مقاطعة أسيالا حيث يكون المسلمون أغلبية السكان ، وبذلك ترتفع نسبة المسلمين في البنجاب الى ٥٧و٦٢ ٪ بدلاً من ١و٥٧ ٪ أما الشق الشمالي الشرقي من الباكستان (أي البنغال وآسام) فيراد فصل مقاطعة بوردان حيث الهندوس الأغلبية الساحقة وبذلك ترتفع الأغلبية الاسلامية في البنغال إلى ٦٥ ٪ بدلاً من ٥٤ ٪

وتبدو مشكلة التقسيم واضحة من البيان الإحصائي التالي :

أولاً — عدد سكان الباكستان (كما طالبت به الرابطة من مبدأ الأمر)

	١٠٧٫٠٠٤٫٧٨٣	نسمة
منهم سكان مسلمون	٥٩٫١٠١٫٢٠٧	»
نسبتهم المئوية	٥٥٫٢٣	٪
المساحة	٣٤٨٫٣٣٧	ميلاً مربعاً

ثانياً — عدد سكان الباكستان (حيث ترجد أغلبية اسلامية مطلقة) .

	٦٨٫٧٧٩٫٩٣٥	
عدد السكان المسلمين منهم	٤٦٫٣٩٥٫٠٣٠	
نسبتهم المئوية	٧١٫٨٢	٪
المساحة	٢٣١٫٦٣١	ميلاً مربعاً

مساحة المناطق المتنازع عليها (شرق البنجاب وغرب البنغال ومعظم آسام)

	١١٦٫٧٠٦	ميلاً مربعاً
عدد سكانها	٣٨٫٢٢٤٫٨٤٨	نسمة
عدد السكان المسلمين منهم	٩٫٧٠٦٫١٧٧	٢٥٫٣٩ ٪

عدد السكان المسلمين في الهند	٩٤٫٣٨٩٫٤٢٨	نسمة
تضم دولة الباكستان من مسلمي الهند	٩٢	٪
» » (بفرض ضم كشمير)	٥٧	٪

ولقد اعترضت عملية تقسيم البنجاب والبنغال مشكلة المدن الثلاثة العظيمة : لاهور وأمرتسار في البنجاب ، وكلكتا في البنغال . فالمدينتان الأوليان أهم المراكز الحضرية في البنجاب . ولقد تمّ الاتفاق على ترك لاهور للباكستان وضم امرتسار الى هندوستان باعتبارها ذات أهمية حيوية لطائفة السيخ فهي مدينتهم المقدسة . أما كلكتا فهي أعظم مركز تجاري في الهند وأكبر مواتيها ، وهي عاصمة طبيعية لولاية البنغال ومركز صناعة الجوت الذي تتركز زراعته في الباكستان الشرقي . بيد أن الأغلبية الساحقة من سكانها من الهندوس . ولقد تقرر ضمها الى الهندوستان مع ترك ميناء هيتاجونج في آسام للباكستان كما تقرر ضم معظم ولاية آسام الى اتحاد الهند ، وضم مقاطعة سلهيت الى الباكستان .

وستضم دولة الباكستان بشقيها (وبفرض ضم ولاية كشمير اليها) ٥٧ ٪ من مسلمي الهند حسب ، وسيظل أكثر من اربعين مليون مسلم خارجها ، بينما ستضم بين ظهرانيها حوالي الخمسة والعشرين مليوناً من الطوائف الأخرى

ولقد اقترح وقتاً ما نقل السكان من مناطق الى أخرى حلاً للمشكلة ولكن نشأت صعوبات جسيمة في مقدمتها العدد الهائل من السكان الذي تتبادله حركة النقل ، كما أن السكان في المناطق المختلفة قد ألفوا أوضاعاً اقتصادية خاصة ، فمن المستحيل نقل سكان يشتغلون بالصناعة في هندوستان الى مناطق زراعية في باكستان ، أو سكان يعملون في صناعة القطن الى مناطق تصنع للخيش . وهذا ما حدا بالفريقين الى نبذ موضوع تبادل السكان بين الدولتين حلا للمشكلة .

ومن المشاكل التي تقابل عملية التقسيم مسألة فصل المصالح العامة ووسائل المواصلات وبخاصة السكك الحديدية والمسائل الاقتصادية المختلفة مثل نظامي النقد والجمارك ومن الجدير بالذكر أن الشق الشمالي الغربي من الباكستان ينتج القطن والقمح وغيرهما من المواد الأولية في حين أن مصانع القطن تقع في الهندوستان . ومثل ذلك يقال عن الشق الشرقي من الباكستان الذي ينتج الجوت في حين أن مصانع الخيش تقع في كلكتا .

ويحول دون اتصال شقي الباكستان مملكة نيبال ووقوع ولايتي بيهار والأقاليم المتحدة حيث أكثرية السكان من غير المسلمين . ومن أهداف الباكستان التي صرح بها السيد محمد علي جناح الحصول على ممر يصل بين شقي الباكستان .

ومهما يكن من أمر صعوبات التقسيم فلا يختلف اثنان في أن من ثماره استتباب السلام في ربوع الهند بل آسيا والعالم . فان في الهند أمتين متميزتين في الجنس والدين وفلسفة الحياة والعقلية ، ولقد بسط السيد محمد علي جناح سياسة الباكستان . ومما قاله :

« ينبغي أن تكون العلاقات بين الباكستان والهندوستان ودية وتبادلية وستكون حكومة الباكستان حكومة شعبية ممثلة لجميع العناصر كما ستسعى الى الانضمام الى عضوية الأمم المتحدة » . ورحب في حديث آخر بالتعاون بين باكستان ودول الشرق الأوسط وبخاصة مصر . ولقد كانت مصر أول الدول في الاعتراف بدولتي الباكستان واتحاد الهند وقررت تبادل التمثيل السياسي معهما على أن تنشأ سفارتان ملكيتان في كل من الدولتين .

فؤاد محمد شبل

شفاؤك عيد

تهنئة بشفاء جلالة مليك الوادي

لشاعر الاقطار العربية خليل مطران بك

شفاؤك عيدٌ به نسعدُ ونحمدُ لله أما تحمدُ
وشعبكَ بعدَ ضراعاتهِ لخالقهِ شاكراً يسجدُ
لربكَ عندكَ في كلِّ يومٍ يدٌ يا مليكي تليها يدُ
عنايةُ مولىً خليقٌ بها أبرُّ أولي الأمرِ والأجودُ
بلادَ العروبةِ بالهنتا ت يجاوبُ أقربها الأبعدُ
ولمْ تكُ إلاَّ على حبِّها لفاروق يجمعُها مقصِدُ
لقد أمنتْ دهرَها إذ نهضـ ـتَ وعزمُك والحزمُ ما تفقِدُ
تصونُ ملوكٌ كراماتها وأنتَ لها الصائنُ الأيَّدُ
وتقضي شعوبٌ كبارَ المنى وأنتَ المؤازرُ والمسعِدُ
فرأيكَ موئلُها المطمئن وبأسُكَ معقِلها الأوطدُ
أمولايَ أرفعُ آيَ الولا ءِ وقلبيَ يسطرُها لا اليدُ
إذا أنضبتْ علَلٌ موردي فمن منبعِ الفخرِ لي موردُ
ألبستَ فعالكَ في كلِّ ما يُعزُّ بلادكَ لا تنفدُ
وكمْ لكَ فتحٌ جديدٌ به تبارَى تُبوغُكَ والسؤددُ
فدمْ للكنانةِ دم للعُرو بةِ ولبرعَكَ الأحدُ الرمدُ

خليل مطران

٢ – نظرات في النفس والحياة

١ — ما كانت الفضائل تستطيع أن تعزو لها مكاناً في العالم كما عوت لولا إنها كثيراً ما تكون ممزوجة في أنفس أصحابها بشيء من الاعجاب بالنفس يذيع دعوتها ويعلن عن مآثرها ويكافح من أجلها وأجل أصحابها — وقد يختلط الاعجاب بالنفس بالاعجاب بتلك الفضائل ، فهو وإن كان يهيء لها جنداً وأعواناً ، إلاّ أنه كثيراً ما ينقص من طهارتها ، وكمال نبلها، أو قد يقضي عليها بما يدعو إليه الاعجاب بالنفس من شرور الأثرة . فالمرء قد يرتكب الجرائم ويؤذي من خالفه لانه يعد مخالفه أو حدوده مخالفاً وعدوّاً للفضيلة ومناصره مناصراً لها ، وإن قلّ حظه منها .

٢ — إذا أسفنا لِنَبْوةِ مَنْ نَبا عنا فاننا قلما نأسف لافتقاد المتحلّي بعقله وأدبه بل كثيراً ما نأسف لأننا فقدنا بفقده ورداً يدل الناس على ثقة بعض الناس بنا وحسن رأيهم في عشرتنا ورغبتهم في أن يكونوا معنا — فنَعتزّ بالأصدقاء في أعين الناس ونزيد بهم قدراً وجاهاً . أي أن الأسف لِنَبْوةِ صديق أساسها الأثرة وحب النفس — ولكن هذا الأساس لا يمنع من أن تكون الفضيلة فضيلة فكثيراً ما يختلط الايثار بالأثرة في النفس حتى عُدَّ مظهراً من مظاهرها إذ أن النفس تنشد في الايثار هيّناً يرضيها ويريحها بالرغم مما تتكلفه بسببه ، وما يرضيها ويريحها منفعة لها وإن كانت مطلباً نبيلاً .

٣ — في بعض الحالات يخالف المرء منهاج حياته ونفسه كما يخالف غيره من الناس ، وذلك لتعدد نزعات النفس المتغايرة الخفية ؛ ولكن الناس كثيراً ما يحكمون على المرء أنه يسير على وتيرة واحدة وطبع لا يخالفه طبع وصفة لا تغايرها صفة ، وقلما يدركون تغيره وخلافه لنفسه إلاّ اذا تغيروا له وكان لهم مآرب في تغيير حكمهم عليه فاذا حدث ذلك ربما اتهموه بخداعهم وربما كانوا هم الذين خدعوا أنفسهم به وسواء أفطنوا الى أنهم هم الذين خدعوا أنفسهم أم لم يفطنوا فهم قد يحملونه حربرة قصر نظرهم أو خداعهم لأنفسهم طرعاً فيتضاعف ذنبه لديهم . وقد يكونون معذورين في انخداعهم لأن الحياة تفرض التجانس في صفات النفس الواحدة كي يسهل فهمها ومعاشرتها . حتى أن الصفات المتناقضة قد يكون بينها شيء من التشابه والانسجام والتجانس ما دامت في النفس الواحدة .

٤ — في بعض الأحايين يفضّل المرء أن يُحرَم من أن يُنسَب إليه خير صنعه عن أن يعرف الناس الأسباب الحقيقية التي دعته الى عمل ذلك الخير. فيظهر من الأسباب غير ما يبطن

٥ — لعلّ أعظم النجاح في المهارة التي بها يقنع الناس إنهم لا يستطيعون ضرره من غير أن يصيبهم ضرر فيهابونه ويتجنبون أذاه، وقد يسمون فيما ينفعه هيبة وإتقاء شره — ولكن لا يستطيع كل إنسان إتباع الناس على هذه الطريقة، بل إنها قد تكون عاقبتها وخيمة لمن لا يحتنها ومن لا يعرف أساليبها ودقائقها ومستلزماتها. لأنه إذا غاب ولم يقنعهم أو إذا رأوا أنهم يستطيعون أن يقضوا عليه وعلى وسائله بأن يبادروه بالعداء بادروه به وحاولوا القضاء عليه وقد يفلحون. فإذاً ليس من الكياسة أن يحسب المرء إظهاره العداء للناس أو تهديدهم كافياً لنيل احترامهم وهيبتهم إياه.

٦ — من العيوب ما يمتزج بفضائل بعض الناس كما تمتزج العقاقير السامة في الأدوية بمقادير لا تسم، على انه لو حاول المرء وتصيد مزيج فضله بعيوبه السامة قضى على فضله وفضيلته. إلاّ أن الحياة نفسها قد تخرج من الشر خيراً، كما ان بعض الخير قد يكون من عواقبه الشر.

٧ — من الصعب أن يحب إنسان إنساناً مجرد من كل دواعي الاحترام. ومن الصعب ان يحب إنسان إنساناً بشدّة وشاكلة. فالنفس تأبى في أكثر الأحايين ان تحب من تجرد من كل دواعي الاحترام وعلائله. ولكن إنها تأبى ان تحب من تستصغر أمرها وتزدري شأنها عند استجلاء عظمته وعلو شأنه وان كانت تحترمه سرّاً أو علانية ولكن الحالات الشاذة قد توجد في الأمرين.

٨ — من الصعب أن تحترم النفس من لا خير له ولا شر.

٩ — كثير من الناس عدّوا من العظماء بارغم من شرهم الكثير — وهذا يذكرنا قول هنري هين الشاعر الألماني « ان هجرة الانسانية قلما تذكر بالزارع الذي سقاها ورعاها وإنما تذكر بالهادي الذي حفر اسمه على جذعها بحديته » — نعم ان عبقر العظماء الذين شكلوا حوادث التاريخ والأمم ونشروا الحضارات كان يمازجها شر كثير مستشرف. وهذا مشاهد في حياة أمثال الاسكندر المقدوني ويوليوس قيصر ونابليون بونابرت. ولكن اذا كان الناس في بعض الميثات يرفعون المجرمين الذين يمتون بالأمر الى مراتب البطولة فلا غرو ان يفعل الناس ذلك مع من سهروا الناس بنار حروبهم وأنزلوا بهم شرّاً كثيراً اذا كانت عاقبة ذلك نشر الحضارات والآراء.

١٠ — ان العظماء لا يمتازون عن غيرهم من الناس بعظم فضائلهم وانما يمتازون عنهم بعظم ما يعملون وما يقولون — وهذه النظرة تفسّر السابقة. وليس معناها ان العظماء أقل

فضائل ، وإنما يعني أن الناس تتوقع خلوهم من النقص خلواً تاماً بسبب ما يبهرهم من آيات عظمتهم . أو أنهم يريدون توريطهم بمطالبتهم بتلك العصمة أو ان يروزهم مما يبرز نقصهم . أو ان ما يزاولون من عمل الخير ربما جرّ شراً ونقصاً .

من نظرات ليوباردي

١ — المكر وهو من جهود العقل والذكاء قد يلجأ اليه الماكر كي يخفي نقص عقله وذكائه وذكاء المكر هذا كثيراً ما يلجأ اليه الناس في البيئات التي حال فساد الحكام فيها دهراً طويلاً دون تعهد العقل بالتربية والتثقيف فترى فيهم الجهل وقلة النمو الفكري والسذاجة وهيئاً من الغباء ، ومع ذلك ترى أيضاً نوعاً من ذكاء المكر تعوضهم به الحياة عما فقدوه .

٢ — في بعض البيئات التي بين الحضارة والهمجية إذا كان الرجل فقيراً جداً احتقره في سريرتهم من هم أحسن منه حالاً من الناس حتى يكاد يسقط وينزل في نظرهم عن مرتبة الانسان . واذا كان غنياً لم يكن آمناً على حياته بسبب الحسد والرغبة فيما عنده — وهذا صحيح في البيئات التي يثري فيها المرء باستخدام قوته أو احتياله أو سلاحه ويفاخر باستخدامها جميعاً . وفي هذه البيئات يحتقر الناس من يحجمون عن استخدام القوة أو السلاح أو الحيلة لدفع عادية الفقر الشديد وكما يحتقرون مثل هذا الفقير فانهم يجلون المجرم العابث بالامن حتى انهم قد يلبسوه صفات البطولة والعظمة وكثيراً ما تتم هذه الصفات حيث لا يجد المرء فرصة لنيل ما يستحق بسبب الهيابة والظلم والرهبة واحتيال الحكام لتسخير أداة الحكم في أغراضهم . وقد تكون هذه الصفات بسبب آثار حكم مضى وعهد سابق وأحوال في الحكم انقضت . وقد يكون العهد السابق والحكم الغابر قد خلف في نفوس الحكام والمحكومين خصالاً مستحصية باقية .

٣ — في بعض الأحايين يمدحنا مادح بسبب أعمال أو صفات طالما ذممناها في غيرنا فنسرع الى مدح تلك الأعمال والصفات — ويحملنا المرء من المآثم والنقائص اذا خاف لوم الناس أو بغضهم أو ذمهم أو عقابهم فاذا وجدهم يمدحون تلك المآثم والنقائص ويحببونها ويزينونها أقدم عليها غير هياب ولا وجل . وهذا لا يمنعه من مؤاخذة غيره عن ما يفعل مثله اذا وجد لنفسه فائدة ولكنه يحاول أن يفرق بين عمله وعمل غيره وان لم يكن بينهما فرق

٤ — أكثر ذوي الفضل كانوا على بساطة في السلوك والعادات . ولكن من الغريب أن الناس تعد تلك البساطة دليلاً على قلة الفضل والعقل — وذلك اما لأن تلك البساطة تشابه في أذهانهم صفات الطفولة أو البلاهة وإما لأن البساطة تنافي التكلف لهم الذي يغري بالظهور بالمظهر الذي يرضي رغباتهم وغرائزهم . وهذا التكلف لهم منبعه مكر البلهاء الذي يعدونه

أعظم مظاهر العقل ومزاياه لأنه يحوطهم بما يشاءون وكل هذا التكلف قد يخالف بساطة الطبيعة ومن أجل ذلك يعدها الناس نقصاً في الفضل والعقل .

٥ — مهما بلغ المرء من احتقار ما حازه من الدنيا وأحرزها بعد اختبارها فانها ان أرضت له وابتسمت ودعته اليها لمساها وصالحها وابتسم لها بعد العبوس ورضي الالتقاء بها ولو بعض الرجوع . وكذلك حاله مع من يتودد اليه من اختبرهم وساء رأيه فيهم فانه لم يعد لعشرتهم اذا توددوا له قل سوء رأيه فيهم .

٦ — يحسب المرء أنه إذا خاب حزن أصدقاؤه وعاشروه خيبته وإذا نجح فرحوا بنجاحه . ولو كُشف له عن مكنون سرهم لوجد فيه عكس ذلك في كثير من الأحايين — أو على الاقل يجد بجانب الأسف خيبته شعوراً بالمسرة يخالطه مخالطة البغيض للبغيض وبجانب السرور لنجاحه شعوراً بالامتعاض والاستضاءة يناقضه ولكنه يخالطه وقد يجد ذلك حتى عند أقاربه وعند من ينتفع بنجاحه ويحضر بخيبته من الناس . لأن النفس لا تستطيع أن تتغلب على أثرتها كل التغلب وان تغلبت على بعضها .

٧ — أكثر الناس لا يخطون من الأذى الذي يصنعونه للناس وإنما يخجلون من الأذى الذي يصنعه بهم غيرهم لأنه ينقص من أقدارهم لدى أنفسهم — أما إذا خشي المرء ان يخجل إذا ظلم غيره فانه يعمل على ان يُشرك الناس في ظلم المظلوم فاذا نجح في حمل الناس على مشاركته في ظلم المظلوم أمن من الخجل ومن تأنيب الضمير . ولقد كان الطغاة قديماً يتخذون من الناس رجالاً يكون اداة لتنفيذ ظلمهم حتى إذا لم يعد صالحاً لتنفيذه قضوا عليه واتخذوا غيره وبذلك ينالون أغراضهم كما ينالون حمد الناس إذا بطشوا بأداة ظلمهم

٨ — الدنيا كالمرأة الجميلة المعشوقة لا ينال الفتى لديها حظوة بالخجل والحياء فمن أراد ان يعلو حظه وجب عليه أن يُودِّع الحياء وان يكون لسانه بوقاً يدعو الناس الى الاعتراف بمزاياه الحقيقية أو الموهومة أو ان يجد أناساً لهم رغبة وفائدة في ان يكونوا أبواقاً . أما اذا انتظر حتى يسرع الناس للبحث عن فضله واعلانه فانه لن يرى إلا من يُسرع الى إخفائه .

٩ — لو حُرِصَ كل إنسان على ما يقوله في غيبة أصدقائه لما رضي ان يقولوا فيه مثل ما قال فيهم — فانه مهما كان مخلصاً لهم لا يسلم لسانه من سقطات في غيبتهم لا ترضيهم . وهو بالرغم من ذلك يُدهش اذا بلغه ان أحدهم قال فيه مثل ما قال فيهم ويَعُدُّ نفسه مظلوماً لا يجد جزاء اخلاصه وصلاحه لهم في غيبتهم .

١٠ — فما يكون البعيد عن الناس القليل الاختلاط بهم معيناً الظن بهم إلا اذا كانت العزلة بعد المخالطة . فليس أصوأ رأي في الناس مما يرسخ في النفس بقراءة الكتب التي تعلم

سوء الظن بالناس وإنما يكون هذا المقتبس من الكتب كلاماً غير راسخ في النفس لأن العشرة هي التي تفطن الى سوء الرأي في الناس بسبب مرارة اختبارهم — وليس أهدأ الناس سوء ظن بهم المعجب بنفسه وليس من الحتم اجتماع الاعجاب بالنفس وسوء الظن بالناس فاننا قد نرى الرجل الشديد الاعجاب بنفسه عظيم الثقة بها وثقته بنفسه قد تدعوه الى حسن الظن والرأي، فيحسب ان الناس يعجبون بنفسه كما يعجب فينشرح صدره للعطف عليهم ولا سيما ان ذلك العطف يتفق وما في نفسه من العظمة المزعومة التي تقضي ان يشمل الناس ببركات خيرها . واذا ظهر منه غير ذلك من سوء الرأي في الناس كان سحابة صيف عن قليل تنقشع .

من نظرات شوبنهور

١ — مما يجعل الانسان غير مُبالٍ لعاصفة التعساء ولا آبهٍ لها أنه يعتقد في نفسه العجز عن تحمل متاعب أكثر من متاعبه . ومن أجل ذلك اذا حسن حال إنسان بعد ضيق وبؤس فقد يعطف على أهل البؤس إمّا سروراً بنجاته من مثل حالهم وإما خشية أن يعاوده البؤس فهو يرحم نفسه اذ يرحمهم . وأما الذين لم يصادفوا في حياتهم بؤساً فانهم كثيراً ما ينصرفون عن العطف على أهل البؤس لأنهم يرون أنفسهم بمأمن من غوائله فلا يستطيعون أن يضعوا أنفسهم مكانهم — على أنهم لو حاولوا وضع أنفسهم مكان أهل البؤس لنفروا من هذه المحاولة وتأففوا واشمئزوا . ومن الجائز أن النعيم يضعفهم فيريدون أن يتجاهلوا ما يؤذي شعورهم ويصرفهم من مناظر البؤس . على أن الكفاح للخروج من الضيق ، اذا نجح، قد يُعوِّدُ بعض الناس رودة الطبع والقسوة إذ يعد كل معاملة للناس فتالاً كالذي تعوّده في الكفاح ويرى أن الحياة معركة لا يظفر بالنصر فيها من يترك القتال كي يضمد جروح الجرحى . فنفسه هذا الرأي فائدة التعاون .

٢ — قد يكون سبب سعادة الانسان ونجاحه في الحياة أن له ابتسامة سارة يبتهج الرائي عند رؤيتها وينشرح صدره فيعطف على صاحبها ويصنع له كل خير يريده وقد يحسب الرائي بهجة هذه الابتسامة وحلاوتها من طيبة قلب صاحبها واستقامته وسلامة صدره من الشر والأذى والاحقاد وهي قد تكون كذلك وقد لا تكون — إذ ربما كانت من تكوين الوجه وشكل خلقيته من غير حقيقة خُلُقيّة خلف ذلك التكوين أو قد تكون من لباقة الخادع الماهر في إخفاء سريرته — فينبغي لمن يغتر كل الاغترار بمثل هذه الابتسامة أن يتذكر قول هكسير في قصة هاملت « قد يُكثرُ المرء من الابتسام وهو وغد » .. ولكن من ذا الذي لا ينخدع صاحب هذه الابتسامة التي هي مفتاح القلوب والظهر

٣ — بعض ذوي الكفاية العظيمة في أمور الحياة أو العبقرية لا يحاولون اخفاء عيوبهم ولا سيما اذا كانت من الاخطاء أو العيوب التي يعدها الناس بالحق أو الباطل من لوازم تلك الكفاية العظيمة ودليل عليها . وهم لا يحاولون إخفاء عيوبهم أو أخطائهم لانهم يرون أنهم قد أدّوا ثمنها من كفايتهم . وبالعكس نرى بعض من عدموا الكفاية النادرة وإن كان لا بأس بهم يحاولون الظهور بمظهر العصمة ويتألون ويتسلكهم الغيظ اذا ظهرت أخطاؤهم ويحاولون أن يقنعوا الناس أنهم معصومون . وما ذلك إلاّ لانهم ليس لهم فضل عظيم نادر من أجله تغتفر سيئاتهم — بالرغم من ميل الناس إلى التشفي من أهل الفضل بنسبة النقص إليهم — فربّ من لا فضل له لا تتحقق لدى الناس إلاّ إذا خلا من الأخطاء. وقد تبالغ كل طائفة في خطئها فالطائفة الأولى في رفع الكفاية والطائفة الثانية في استخدام كل وسيلة مهما كانت ظالمة لانبات خلوها من العيوب ونقلها الى غيرها . وهناك طائفة ثالثة هي من أهل العجز يحاكي آحادها ما يحسبون أنه من عيوب ذوي الكفاية كي يتسلكوا في زمرتهم ويعدّوا منهم .

٤ — من الجائز أن يحزن إنسان لموت خصم او منافس أو عدوّ حزناً كثيراً اذا افتقد ذلك الانسان خصمه الميت عند النجاح والظفر فيود لو كان حيّاً كي يرى كيف ظفر في الحياة بعده بالنجاح والسعادة ولم يظفر الميت . وهذا نوع من الحقد والتشفي من الميت يكون عند ذوي النفوس الدنيئة .

٥ — رغبة الانسان في أن يظل شهيراً بعد موته انما هي مظهر من مظاهر حب هذه الحياة الدنيا .

٦ — اذا غالى الناس في اعتناق رأي أو مبدأ أو مذهب فلا بد أن يعودوا في المغالاة الى ضده حتى تستقر حياتهم بين الطرفين وانما مثلهم في التذبذب مثل وقاص الساعة .

٧ — كل فضيلة من الفضائل لها رذيلة من نوعها وكل رذيلة لها فضيلة من نوعها . ومن أجل ذلك كثيراً ما نخطىء في الحكم على الناس فقد ننسب الى انسان الفضيلة التي هي من نوع رذيلته أو الرذيلة التي هي من نوع فضيلته فيظنّ الحازم المتأني جباناً والمقتصد المدبر بخيلاً والمبذر المتلاف سخيّاً كريماً وسيء الادب صريحاً مستقيماً والأحمق متحلياً بفضيلة الثقة بالنفس الخ .

٨ — كثير ممن يجعلون عظم منزلة الانسان في العالم بسبب فضائله وعقله يشتطون في القسوة في الحكم اذا حكموا وفي معاملة آحاد الناس إذ يطالبونهم بما يناسب عظم منزلة الانسان التي أساسها الفضائل والعقل . ولكن الفضائل كثيراً ما تخذل الانسان ولا تؤاتيه والعقل كثيراً

ما يسخف أو يخطىء أو يسهر فمظم منزلة الانسان في الكون بسبب ما هو معرض له في حياته من آلام ومصائب وعذاب وجهازه العصبي أرق من جهاز غيره من الحيوانات فهو مرهف الحس وله خيال يصور له آلامه وعقل يشغل بها. فاذا عاشرت انساناً لا تنظر الى ما في إرادته من شر وما في عقله من قصور وما في آرائه من سخف أو هوى فانك ان فعلت ذلك كرهته أو احتقرته بل انظر الى آلامه من واقع ومنظور والى حاجاته وتعبه في الحصول عليها والى بواعث القلق في حياته فان من يتحمل كل ذلك حليق بالعطف والمحبة والاعظام.

٩ — قصور العقل وسوء الخلق أمران مختلفان قد يجتمعان وقد لا يجتمعان. ولكن قصور العقل قد يساعد على انشاء رذائل صاحبه فتُحسب انها ناشئة منه. فالغباء كثيراً ما يظهر دناءة صاحبه وشره بينما العاقل الحازم قد يدرك وسائل اخفاء شره ويستطيعها فيحسب انه خال من الرذائل وان العقل وحسن الخلق متلازمان أبداً. كذلك سوء الطبع قد يستهوي صاحبه فيمنعه من ادراك الحقائق التي لولا سوء خلقه وطبعه لاتضحت لعقله وقد تنفع في حالات دون حالات.

١٠ — كل حيوان لا يقسو الاّ ليأكل أو للدفاع عن نفسه. أما الانسان فانه قد يقسو من غير داع الاّ التلذذ بالقسوة فهو كما سماه العلامة جوبينو صاحب كتاب الاجناس البشرية « الحيوان الذي يلذّ كل الحيوانات في خبث طبعه وشره » واذا وجد حيوان يقتل أكثر مما يأكل، فما ذلك الاّ كما يقول الفرنسيون في أمثالهم عينه أكبر من معدته — فالانسان قد يقسو من غير فائدة لنفسه إلاّ التلذذ بالقسوة. وقد يبلغ هذا التلذذ مرتبة الجنون وكثيراً ما نسمع عن حوادث تعذيب ترتكبه حتى بعض الأسر المحترمة في عهد الحضارة والثقافة. وكأن هوة القسوة تفرز في جسم الانسان سمّاً زعافاً يتجمع كمم الافموان وينتهز أقل سبب وأصغر فرصة كي يُؤذي به بعض الناس أو الحيوانات. ولعل التلذذ بقسوة الالفاظ المؤلمة والنظرات التي تنم عن القسوة وبالمصائب والمكائد كلها أنواع من التلذذ بالقسوة هي عرض سيكولوجي مما كان يصنعه الانسان في أيام الهمجية بأعدائه وأسراه وعبيده تلذذاً بالقسوة لاجل القسوة سرّاً وعلانية من غير رادع. ومن العجيب ان بعض المرضى بعرض نفسي أو عقلي يلتذون ألم قسوة غيرهم سرّاً. وما دام الانسان يقتتل على الحياة وهو وقبق الجهاز العصبي وذو خيال وعقل فلا سبيل الى محو طبع التلذذ بالقسوة كل المحو — إلاّ إذا أسعف طبُّ الغدد الحديث — وربما كان تلذذ الانسان بالقسوة لشدة فرحه بأن الالم نال غيره ولم ينله. فهي نوع من الجبن أو وسيلة للنجاة من الخوف على النفس.

ع . ش

أمراض العيون

— ٢ —

الدفتريا الرمدية

﴿ الرمد الدفتيري ﴾ من المعلوم أن مرض الدفتيريا من الأمراض التي عني بها رجال الطب عناية كبيرة أدت الى سنّ قانون لتطعيم الأطفال إجباريًا في سن الطفولة للوقاية.

وكما أن هذا المرض يصيب الحلق فإنه كذلك يصيب العين والأنف ويسمى في هذه الحالة بإسم : « الرمد الدفتيري » وهو نوع من أنواع الرمد ينشأ عن ميكروب الدفتيريا ، مثله في ذلك مثل الرمد الصديدي إلاّ أنه أشدّ فتكاً منه في بعض الحالات ويكون مصحوباً بغشاء فوق الجفون ، وفوق غشاء الأنف — وهو حينه الذي يصيب القوزتين والحلق — ويكون مصحوباً بارتفاع في درجة حرارة الجسم بين ٣٨ و٣٩ وغالباً ما تصل الدرجة الى الاربعين .

وعلاج هذا النوع من الرمد يتوقف على التشخيص نفسه فيحقن المريض بكمية كبيرة من المصل تبعاً لشدة المرض لا تبعاً لسن المريض .

وليس من الضروري أن تكون نتيجة التحليل إيجابية بل ينظر الى المشاهدات الاكلينكية ، لأن ميكروب الدفتيريا يندر ايجاده من تحت ميكروبات أخرى موجودة معه في العين أو في الحلق فتظهر تلك الميكروبات في التحليل ولا يظهر ميكروب الدفتيريا .

* * *

وأذكر بهذه المناسبة نوعاً من هذا الرمد الدفتيري ظهرت أعراضه في مستشفى الرمد بأسيوط عام ١٩٢٢ وكنت وقتئذ الطبيب الأول بالمستشفى .

فكيف حدث ؟ وكيف شاهدنا المرض وعالجناه بالمعرفة الواجبة قبل أن يستفحل

والمعلوم أنّ الرمد الدفتيري في مستشفيات الرمد له نظام خاص فيعزل المرضى به في جناح خاص من المستشفى ويصرف لكل مريض وعاء خاص به «غسيل» فيتولى هو أو أهله الغسيل بإرشاد الطبيب ويتولى الطبيب الأول علاجهم ويكشف عنهم كل يومين أو ثلاثة حسب مقتضيات ظروف عمله بالمستشفى ويتولى الطبيب الثاني العلاج في الأيام الأخرى .

وذات يوم بينما كنت أفحص وأعالج الأطفال المرضى في ذلك القسم انتبهت في طفلين علا على أعينهم غشاء يشبه غشاء الدفتيريا فأخذت من كلّ عينة وبعثت بها للتحليل في معامل الصحة بالقاهرة وعزلت الطفلين بعيداً عن سائر المرضى فكانت نتيجة التحليل إيجابية ، أعني أنّ صاحبي هذا الرمد مصابان بالرمد الدفتيري ، فأسرعت وفحصت عيون سائر المرضى فوجدت بينهم ثلاثة مصابين بنفس المرض .

وهنا لم أجد بدًّا من أن أتولى علاج المرضى بنفسي بعد علمي وأبرقت لولاة الأمور في وزارة الصحة بشأن هذا المرض في ذلك المستشفى وطلبت الحيام اللازمة لعزل المرضى فتم ذلك في يومين وتمكنت من وقف سير المرض وانتشار العدوى اذ حصرت المرض في عدد من المرضى بلغ مجموعهم ٣٨ طفلاً بينهم خمسة كانت حالتهم شديدة (أي أن إصابتهم كانت بدفتيريا مصحوبة بغرغرينة في الحلق) ورغم العناية بالعلاج والحقن بالمصل ضد هذا الوباء وبالغسيل وبالمس وسواها فان الوباء كان شديد الفتك وكانت نتيجته أن بعضهم فقد بصر العين وتوفي البعض الآخر

ومن أجل ذلك بادرت وزارة الصحة فندبت أحد رجالها لفحص عينات ذلك المرض محليًّا (أي في أسيوط) وذلك لتحليل الغشاء بكثير بوتوجيا حتى لا يضيع الوقت في ارسال العينات الى القاهرة للتحليل وانتظار معرفة النتيجة .

***

فهذا المرض — كما قلنا — يصيب ميكروبه العين والحلق والأنف ، وأحياناً تكون نتيجته ايجابية في العين والحلق والأنف وأحياناً تكون في العين والحلق وحدهما كما تكون في الحلق دون العين ، أو في العين وحدها .

سئلت ذات مرة في أحد الاجتماعات الطبية العامة عن ذلك المرض وكان نص السؤال هو

« هل الميكروب الذي يصيب العين هو نفس الميكروب الذي يصيب الحلق والأنف » فأجبت : نعم ، أن الميكروب هو ميكروب الدفتريا في العين والحلق

وقد تأتي العدوى من مريض بالدفتريا الحلقية أو من دفتريا في الأنف كما قد يصاب مريض في حلقه من مريض بعينه أو بأنفه . والدليل على ذلك انني في ذلك العام (١٩٢٢) دعيت لعلاج طفل علاجاً خاصاً في منزله (وكان والده من الأثرياء) كان مصاباً برمد صديدي فلما فحصت عين الطفل المريض تبين لي أنه مصاب برمد دفتيري لا برمد صديدي عادي (لأن الرمد الدفتيري شبيه بالرمد الصديدي فتتورم الجفون وتحمر المقلة الا أن الرمد الدفتيري يزيد الورم فيه أحياناً ويكون شديداً) فبادرت بحقن الطفل بالمصل اللازم وأصفته بالعلاج وجئت له بممرضة خاصة تقوم على خدمته والعناية به ، ولكن أمه أبت أن تترك لتلك الممرضة وحدها الاشراف عليه لأنه كان وحيدها إذ قد فقدت ثاني أولادها من سنتين ، وهنا كانت الطامة الكبرى إذ مرضت الأم بحلقها بعد شفاء ولدها من الرمد الدفتيري ولما فحص الطبيب مرضها بأنه عبارة عن التهاب بسيط في الحلق طمأنته في رأيه وطلبت معالجتها بالحقن ضد الدفتيريا فأهملوا مشورتي . ولما اشتد المرض على تلك السيدة بعد يومين أو ثلاثة عاد أهلها الى التفكير فيما نبهت أنا اليه ولكن العلاج جاء متأخراً وقضت السيدة الى رحمة الله نتيجة عدواها بالدفتيريا من رمد دفتيري .

والدفتيريا الرمدية تصيب الأطفال من سن الثانية الى الخامسة ، وقد تسبب فقد البصر والوفاة كما سنبين فيما بعد

* * *

تكلمنا فيما تقدم عن الدفتريا الرمدية وبينا أنها تنشأ من الميكروب الذي أطلق عليه إسم كليب لوفر باعبلس نسبة الى مكتشفيه البروفسور الاستاذ كليب (Kleb) والاستاذ (لوفلر) (Loffler)

وهذا الميكروب يوجد في الغشاء المخاطي للجفون وفي الأنف والحلق (في ثنايا اللوز والحلق) فيفرز مادة سامة تسمى توكسين (Toxin) تدخل الأوعية اللمفاوية وتسبب

ضرراً كبيراً ، والسم الذي يفرزه هـذا الميكروب ينتشر في الجسم فيسمه ويقضي على حياة صاحبه .

ويأتي هذا التسمم من مادة التوكسين المغار إليها متى ملأت الأوعية اللمفاوية فتتأثر الكلى تأثراً بالغاً في بعض الاحيان ويتعطل افرازها للبول وهنا يحدث التسمم .

كما تؤثر تلك المادة السامة على القلب فتضعفه الى درجةٍ كبيرة فلا يقوى على تأدية وظيفته . وتحدث الوفاة من هبوط القلب .

وفي حالات أخرى يكون التأثير على المخ .

وقد يحصل شلل في البلعوم (الحلقوم) فترجع جميع السوائل من الأنف .

كما يحدث شلل في عضلات تكييف الأبصار فيضعف البصر .

أسباب العدوى

وترجع أسباب العدوى من هذا المرض الخبيث الى الحالات التالية وهي :

١ — اللمس

٢ — الذباب

٣ — السعال (الكحة) : فينتقل الميكروب اثناء السعال من حلق المريض الى الطفل الموجود أمامه

٤ — حامل الميكروب

فالميكروب ينتقل من الجسم المريض الى الجسم السليم في احدى تلك الحالات ولا سيما أن المريض بدفتيريا الأنف تكون درجة حرارته طبيعية ولا يظهر عليه مرض من الأمراض ولكن ميكروب مرضه هذا الكامن في نفسه ينتقل بواسطة افرازه من أنفه الى حلقه أو الى عينه فاذا اتصل بالحلق سبب دفتيريا الحلق ، كما يسبب دفتيريا الرمد اذا اتصل بالعين . وفي كلتا الحالتين ترتفع درجة الحرارة . ولذلك يجب حقن المريض بمصل الدفتيريا حالاً عند الاشتباه ولا ضرر منها كما يعتقد بعض الناس .

الوقاية

والوقاية من هذا المرض — ولا سيما عند الأطفال لأنهم أكثر من غيرهم تعرضاً للإصابة بهذا المرض — يجب حقن جميع الأطفال ثلاث حقن وقائية عقب ولادتهم . وقد فرضت وزارة الصحة ذلك فرضاً إجبارياً .

فكان لحقن الأطفال في طفولتهم أثر كبير في قلة اصابتهم ووفاتهم من هذا المرض .

وليس لهذا الوباء موعد محدد خلال السنة فالاصابة به تحدث صيفاً وشتاءً على السواء غير أنه اذا ظهر خلال الصيف كانت الاصابات به أكثر فتكاً مما لو ظهر خلال الشتاء .

وعند ظهور هذا الوباء في المستشفيات ، يعزل المصابون في معازل خاصة خشية أن تنتقل العدوى بواسطة الثياب الى الأصحاء .

وقد بين المرحوم الدكتور علوي باشا في كتابه « الأمراض العينية » أنه يعتقد أن الدفتيريا الرمدية قليلة في القطر المصري بالنسبة للبلاد الأجنبية . ولكنه يعتقد كذلك أنه اذا انتشرت كان انتشارها بحالة وباء . وقد كان هذا الوباء الذي حصل في سنة ١٩٢٢ الأول من نوعه في تاريخ الرمد بالقطر المصري .

الوصف الاكلينيكي

سبق أن قسمت الوصف الاكلينيكي لهذا المرض الى ثلاث درجات كالآتي : —

١ — ورم بسيط بالجفون ، وإفراز بسيط وغشاء خفيف على الملتحمة ، وتكون درجة الحرارة بين ٣٧ و ٣٨ درجة .

٢ — ورم شديد بالجفون ، حتى لا يمكن رؤية داخل العين أو قلب الجفن إلا بصعوبة ، وإفراز صديدي شديد ، وارتفاع في درجة الحرارة قد تبلغ الاربعين اذا ما تعددت أنواع الميكروب . ومعظم أنواع الرمد ولا سيما الصديدي يسبب الصداع والأرق

٣ — ورم شديد بالجفون فلا يمكن فتح العين ولا قلب الجفن بسببه لوجود حالة (غرغرينية) في الجفون ، وترتفع درجة الحرارة بين ٣٨ و ٣٩

وفي حالات الرمد الصديدي يحقن المصاب بحقنة لبن فتتحسن صحته والأمر بالعكس إذا حقن مصاب بالرمد الدفتيري بتلك الحقنة فإن حالته تسوء ولذلك يجب التأكد من نوع الرمد أولاً

ولما كان ظهور هذا الوباء يعتبر الأول من نوعه في أسيوط في تلك السنة فقد عزل المصابون في أقسام ثلاثة بالترتيب التالي :

فالقسم الأول خصص للحالات الايجابية وقد أحيط بأسلاك لا يدخلها الذباب fly proof

والقسم الثاني : للحالات السلبية التي يظهر اكلينيكيًا إنها ايجابية وأحيط كذلك بالسلك المانع للذباب .

والقسم الثالث : للحالات المشتبه فيها أو السلبية (ولا نشك إنها إيجابية اكلينيكيًا) وحوله السلك المانع للذباب أيضاً .

وخصص لكل قسم من تلك الأقسام خادم وخادمة يشرفان على خدمة المرضى ولا يختلطان بخدم القسمين الآخرين .

وقد وجد ميكروب السيلان الجونوركوك مع ميكروب الدفتيريا في ١١ حالة من ٢٠ حالة وميكروب الكوخ ويك (Koch Week) في ٧ حالات وميكروب Xerosis في حالتين . وتوفى من تلك الحالات أربعة أطفال بسبب غرغرينة بالمقلة وبلغت نسبة العمى ٥٥ في المئة.

ووجد ميكروب السيلان في ١٢ حالة من الحالات السلبية التي أعتقد إنها ايجابية بسبب تغلب ميكروب السيلان على ميكروب الدفتيريا وتوفى في تلك الحالة اثنان وبلغت نسبة العمي ٤٦ في المئة .

فوفاة ستة أطفال بين ٣٥ طفلاً أي بنسبة ١٧ في المئة كان أمراً له خطره . ولا سيما اذا عرف أن الناس كانوا لا يظنون بل ولا يعتقدون أن الرمد الصديدي يسبب الوفاة .

كما ان فقد البصر وقد بلغ ٥٠ أو ٥٥ في المئة — وهي نسبة كبيرة جدًّا — لا يمكن القضاء عليها إلاّ بالحقن ضد الدفتيريا ، فقد تم حقن أطفال الحالة الشديدة من ٦٠ ألف الى ٨٠ ألف وحدة وحقن أطفال الحالة المتوسطة من ٢٥ ألف الى ٤٠ ألف وحدة وحقن أطفال الحالة الخفيفة من ٨ آلاف إلى ٢٠ ألف وحدة .

ومن ذلك يتبين خطورة الدفتيريا سواء كانت حلقية أو رمدية .

وهذا ما يجب توجيه نظر الناس جميعاً اليه ليعنوا أطفالهم بحقنهم بالمصل الذي يقيهم هذا الوباء وغيره .

الزهري

تاريخه وأعراضه وتأثيره على أجزاء العين

والزهري — كما هو معروف — مرض من أمراض التناسليات يصيب الناس جيلاً بعد جيل وينقسم الى : اولاً — مكتسب . وثانياً — وراثي .

وقد عرف باسم الزهري ويسميه العامة بالتدرين أو داء البلاء أو التشويه لأنه يشوه الجسم .

تاريخه : يحسن في هذه المناسبة ذكر تاريخ ظهور هذا المرض حتى يلم الناس به الماماً ويعرفوا مصدره . وقد جاء في كتاب الطب المصري القديم لمؤلفه الدكتور حسن كمال أن الحكومة المصرية ألفت لجنة برياسة الأستاذ أليوت سميث والأستاذ وود جونس وكيله لفحص ما يكتشف من الجثث المدفونة في البلدان التي كانت في النية اغراقها في بلاد النوبة بعد تعلية خزان اسوان ، وقد وضعت هذه اللجنة تقريرها وضمنته النتائج التي وصلت اليها من الفحص مقرونة برسوم متعددة لجثث محنطة في عصور شتى ، وتاريخ هذه الجثث كان قبل العهد الفرعوني في مصر وتنتهي بعهد اليونان . وقد أثبتت هذه اللجنة ان أمراض الزهري والسرطان والكساح لم يكن لها وجود مطلقاً في وادي النيل ، بل ان الذي كان منتشراً في بعض المناطق هو الالتهاب العظمي المفصلي المسمى Rheumatoid Arthritis ودل التحليل الكيماوي على أن داء النقرس داء الملوك gout كان موجوداً عند هؤلاء الملوك والتهاب النتوء الحلمي Mastoid disease والتهاب حول الزائدة الدودية وعلى التصاق الجمجمة بأعلى العمود الفقري نتيجة المرض المسمى Spondylitis deformans . كما ظهر في بعض جماجم النساء تقيح نتيجة حمل « زلع » الماء أو ما يشبهها .

ويشير بعض الكتاب الى أنه لم ير أثر للزهري في نصف الكرة الشرقي قبل سنة ١٤٩٣ أي قبل « كريستوفر كولمبس » ففي تلك السنة انتشر الزهري في برشلونه بواسطة البحارة الاسبانيين ، كما انتشر في إيطاليا في عهد شارل الثامن فقد نشر جنوده هذا المرض في نابلي ثم في بلدان إيطاليا وسائر الاقطار الأوربية .

وهناك مؤرخون يقولون بوجود هذا المرض في آسيا وأوربا من زمان قديم ، وهم في قولهم هذا يتحدُّون التاريخ القديم والطب القديم والتوراة من وجود أعراض تشبه مرض الزهري في عظام الهياكل والأدوية التي كانت تستعمل وتتذر مثل اليودور والعشبة .

ولكن النقاد يرجحون الرأي الأميركي من أن هذا المرض جاء الى أوربا وآسيا من أميركا ، وكانوا يسمونه أولاً بالمرض النابلي نسبة إلى نابلي ، ويسمونه « الحب الفرنسي » (French pox) وفي سنة ١٥٣٠ سمّى فراكستوريوس وجاليكس ومن ذلك الوقت أخذ الاسم الأخير وهو الزهري .

* * *

وكانوا يظنون أن هذا المرض ينتقل من شخص الى آخر أسوةً بالأمراض المعدية ولكنهم عرفوا فيما بعد طبيعة انتقاله التناسلي . وكان الدكتور فرنل الطبيب الباريسي (Fernil) هو أول من قال بضرورة أخذ القرحة الأولى للمرض وذلك في القرن السادس عشر . واكتشف الدكتور بارسلس (Paracelsus) انتقال هذا المرض بالوراثة .

وفي ذلك الوقت كانت أعراضه أشد فتكاً مما هي الآن .

وفي سنة ١٨٠٠ اكتشف Lancisi الصلة بين مرض الزهري ومرض (Aneurism Aorta) وشرح (Morgagni) تأثير مرض الزهري في الأمعاء الداخلي .

وعندما طعّم نفسه (Hunter) — تحت تأثير خاطئ — بهذا المرض ، جمع بين وحدة القرحة الرخوة والسيلان والزهري .

وفرّق (Ricord) بين القرحة والرخوة الصلبة في القرن التاسع عشر حيث عرفت جميع الاعراض الاكلينيكية ، إلاّ أن السبب لذلك لم يعرف حتى سنة ١٩٠٥ عندما اكتشف شودن (Schaudinn) وجود الميكروب المسمى اسبير وكيتي spirochoete في القرحة الأولى .

وفي سنة ١٩١٠ أعلن ارلخ (Ehrlich) اكتشاف المركب الذي يقتل الميكروب من الدم ولا يضر الانسان ، وهو المركب الزرنيخي ٦٠٦ و ٩١٤ .

العدوى من مرض الزهري

والعدوى بمرض الزهري المكتسب تحصل بالمس ، فاذا ما وجد جرح أو تسلخ بسيط على الغشاء المخاطي أو الجلد خلال الجماع ، ينتقل الميكروب من القرحة الى التسلخ أو الجرح وبسبب العدوى بالقرحة الأولى كما ذكر فرنل الطبيب الباريسي بضرورة وقوعها في حالة الزهري المكتسب أولاً والتي تسمى بالقرحة الصلبة .

وليس الجماع هو السبب الوحيد للعدوى بالزهري المكتسب ، بل وجدت حالات انتقلت خلال تقبيل مريض بالزهري انساناً سليماً متى وجد به جرح بسيط أو خدش (خربشة) وكان الميكروب موجوداً عند التقبيل .

وكذلك يحدث أثناء الولادة إذا ما وجد الميكروب بأصابع الطبيب أو المولدة ولذلك يلبس الأطباء والطبيبات قفازات مصنوعة من الجلد (المسك) بعد تطهيرها .

أما العدوى بالزهري الوراثي فإنه يصل الى الطفل من والديه أو أحدهما عن طريق الدورة الدموية خلال مدة الحمل حيث تكون الأوعية الدموية للطفل متصلة بالأوعية الدموية لرحم الأم .

* * *

وقد ذكرنا في ما تقدم ان العدوى الأولى في الزهري المكتسب هي القرحة التي تصيب المصاب محل اقتحام من ثلاثة الى أربعة أسابيع . وهنا تكون القرحة أولاً بلا افراز إلا إذا صحبها عدوى بميكروب آخر ، وتستمر صغيرة وتتحجر حوافها ، ولذلك سميت بالقرحة الصلبة ، ثم تتحجر الغدد القريبة والبعيدة عنها ، ثم يحصل الطفح على الصدر والبطن والشفتين ويلتهب الحلق ، وتصاب اللوز بقرح تشبه حالة الالتهاب كما يلتهب الأنف وتبدو وأنحته كريهة ، ويصحب ذلك ارتفاع في درجة الحرارة ، ويصحب تلك الحالات أحياناً ، صلع جزئي أو عام في الرأس . وجميع تلك العلامات تشفى وتزول خلال ستة أشهر ، وكأن المريض لم يصب بشيء ما ، ولكن سرعان ما تظهر عليه علامات الدور الثالث للقرحات على الجلد

والأيدي والساق والمقعد ، وتظهر حالة (grimus) في أعضاء الجسم مثل ورم بالكبد والرئة والعظام بصفة عامّة وعظام الحجاج بصفة خاصّة ، ويؤثر ذلك على الشرايين فيحدث ما يسمى بتصلب الشرايين بالجسم وبالمخ ، فينفجر شريان المخ ويصاب المريض بالنقطة المخيّة والشلل والموت .

أما علامات الزهري الوراثي ، فانها تظهر على الطفل بعد ولادته بثلاثة أو أربعة أسابيع على الأقل ، وفي حالات أخرى لا تظهر إلاّ بعد سنتين .

وأهم ما يظهر على الطفل بعد الولادة في الأسبوع الرابع ، فهو العطس ، ورائحة كريهة بالأنف . ويظن أهل الطفل أنه أصيب بالبرد فيعالج على هذا الأساس ولكن العلاج لا يفيده وسرعان ما تظهر عليه تقرحات بالشفتين وحول الشرج والأنف وتزيد هذه التقرحات في الشهر الرابع والخامس ، وغالباً تنتهي بوفاة الطفل ، وتلك علامة من علامات الزهري الوراثي أي أن الطفل يموت في الحول الأول من عمره ، أما الأم فقد تجهض في الشهر الثاني أو الثالث من حملها ، فاذا أتمت شهور حملها وولدت طفلاً سليماً ، ففي الغالب يصاب الطفل بالعلامات التي أشرنا اليها فيما تقدم .

وليس كل امرأة زهرية (أي مصابة بالزهري) تجهض أو يموت أطفالها في الحول الأول ، بل الأمر قد يكون بالعكس . ولكن حدوثه يكون معناه الاشتباه بالزهري الوراثي والاهتمام بعلاجه بعد الفحص والتشخيص .

وقد تظهر على الطفل علامات ضعف البصر ، وضعف السمع ، ويلاحظ ذلك بين سن الخامسة والخامسة والعشرين ، وتأخذ الجبهة شكلاً معيناً يبرز في عظم الجبهة وانخفاض في عظم قمة الأنف ، وتأخذ الأسنان من الأمام شكلاً مخصوصاً بالانبعاج والشرشرة وسوى ذلك مما لا محل لذكره هنا فانه من عمل الطبيب الذي يتولى فحص الدم بطريقة ويسرمان Wasserman وطريقة كانو Kahn . وليس كل تحليل سلبي معناه عدم وجود ميكروب زهري فان الميكروب يكمن أحياناً في عضو من أعضاء الجسم فلا يتحرك ويخرج الى الدم الاّ بعد حقنه ، والمهم في ذلك كله التشخيص الاكلينيكي مع تحليل الدم .

« للبحث تتمة »

الدكتور عبد المسيح عبد المسيح
اخصائي في امراض العيون

الثقافة العامة

وتنظيم وسائل الاشراف عليها

أدرك القائمون على وزارة المعارف أن اكتساب المعرفة لم يعد مقصوراً على التلقين يقوم به المعلمون في حجرات الدرس ، بل ولم يعد مقصوراً على فترة معينة من العمر يقضيها المرء في تنمية الملكات واكتساب المعارف ، فوسعوا من اختصاص الوزارة حتى يشمل كل المرافق المتصلة بالمعرفة بل والتربية في أوسع مداها ، واذا كانت العناية بالدراسة النظامية واجبة ، فالعناية بالدراسة غير النظامية أوجب ، ذلك لأن الرقابة على الأولى أوجدتها سنن وتقاليد ونظم رسخت على الأجيال ، أما الثانية فجديدة وتأثيرها في النفوس أعمد وأمكن لحرية وسائلها ومسايرتها لمراحل الحياة جميعاً . ومن ثم كان الغرض من اشراف وزارة المعارف على الثقافة العامة هو توجيهها للصالح الخاص والعام وتقويم المعوج من أفرادها وأحوالها وسد النقص الذي قد ينجم في ناحية من نواحيها مع المحافظة على التراث العقلي والمعنوي للأمة المصرية بنشر ذخائرها والكشف عن المطمور من تفاتيشها والعمل على تنسيق النهضة الثقافية في مصر معها في الأمم العربية الشقيقة من ناحية والأمم الغربية من ناحية أخرى .

ولكن عدم الاستقرار الذي تتسم به هذه الفترة من حياة الأمة ، وهي فترات الانتقال أشبه ، جعل الوزارة لا تستقر على خطة معينة واضحة في اشرافها الثقافي الجديد ، آية ذلك أنها فهمت من الثقافة العامة وسائل اكتساب المعرفة خارج المدرسة حيناً ، فقصرتها على الترجمة والتعاون الثقافي والاحصاء ، دون أن تبين ماهية هذا الاحصاء . ثم جاءت بعد ذلك فجعلت حد الثقافة — كما يقول المناطقة — خارج الفصول الدراسية ، فضمت الى ادارتها ما يتصل بالنشاط المدرسي من رحلة وتمثيل ، أضف الى ذلك أنها وكلت هذا الاشراف الثقافي الى جماعة من المدرسين القدماء أعترف بكفاءتهم وعلمهم وفضلهم وتفننهم في علوم كثيرة ، ولكني أعترف كذلك بأن تعريفهم للثقافة غير جامع لكل الوحدات التي تتألف منها في عصرنا هذا الحديث . وهم لذلك وقعوا في خطأين واضحين

الأول عدم التفريق الحقيقي بين التعليم والثقافة العامة. والثاني احتفاظهم بالكلمة المكتوبة وايثارهم للتأليف والترجمة والنشر واهمالهم لتلك الوسائط الثقافية الجماهيرية الخطيرة كالسينما والاذاعة والصحافة، وهم اذا التفتوا اليها فانما هي الالتفاتة العجلى التي تتذبذب بين وظيفة التعليم المدرسي ووظيفة الثقافة العامة.

والأداة الحكومية عندنا في تطورها من الملكية الى الايجابية أو من البيروقراطية الى الديمقراطية دفعت أولي الأمر الى معاودة تصنيف الادارات الحكومية القائمة واستحداث ادارات بل وزارات جديدة، بيد أن هذا ايضاً لما يستقر على خطوط واضحة فأصبحنا نرى — فيما يتصل بموضوع الثقافة العامة وزارات الداخلية والشؤون الاجتماعية والمعارف تتنازع الاختصاص في بعض المسائل والاشراف على بعض الادارات والمصالح، مثال ذلك ان شؤون التمثيل ودار الأوبرا تتلاعق بوزارة المعارف حيناً وبوزارة الشؤون الاجتماعية حيناً آخر مع أن وظيفة كل وزارة تختلف عن وظيفة الأخرى، وان الرقابة السينمائية تتوزعها وزارتا الداخلية والشؤون ولا تحتفل بها وزارة المعارف، مع أنها وسيلة من أهم وسائل الثقافة العامة. ومن هنا تضاربت الخطط والاختصاصات وأصبحت الهيئات الحكومية تسير كل واحدة منها في خطتها، بل وأصبح الأفراد والجماعات يعمل كل حسب نزعته المستقلة دون تنسيق للحركة الثقافية، وهو التنسيق الذي يعمل على فدم تكرار الجهد أو تضاربه والذي يجعل كل فريق يفيد من تجارب الفريق الآخر ويبني عليها، ولهذا كان لزاماً أن توضع وظيفة كل وزارة، فالداخلية تشرف على العمل الثقافي من حيث مساسه بالأمن العام، والشؤون الاجتماعية تشرف عليه من حيث مساسه بالخلق العام، أما وزارة المعارف فهي المعنية به القوامة عليه تشجعه وتدعو إليه، بل وتخلقه خلقاً إن اقتضى الحال.

***

وقد آن لنا أن نعيد النظر في إشراف وزارة المعارف على شؤون الثقافة العامة، ذلك لأن مهمتها في هذه الناحية لا تقل، إن لم تزد، على مهمتها في الاشراف على الوحدات التعليمية النظامية، لأن وسائل الثقافة العامة تتصل بالحياة العقلية، الفردية والجماعية على السواء، وبخاصة في هذه الفترة التي نحاول فيها أن نحمي الشباب من الآراء الهدامة والتجمعات الفاشية المعارضة للنظام الديموقراطي الذي نريد أن نمكن له ونرسخ أصوله، وقد فطن لذلك بعض الخبراء في العقلية الجماعية، فدعوا الى الإشراف الرشيد على وسائل الثقافة العامة، وأعني بالرشيد هنا الى ما لا يتعارض مع حرية الفكر وحرية التبادل الثقافي في حدود المحافظة على مقومات الأمة في ظل النظام الديموقراطي، وقالوا إن هذا الاشراف

ينطوي على مهمتين : إحداهما سلبية تعمل على الحماية من تسرب الثقافات الضارة ومن إساءة استعمال وسائلها ، والأخرى ، إيجابية تشجع القائمين بأمر الثقافات المفيدة وتستحدث ما ينبغي أن يوجد منها .

ولم تعد العلاقة بين الدول مقصورة على الاتصال السياسي والتبادل الاقتصادي والتجاري بل شملت التعاون الثقافي بأوسع حدوده ، فأنشئت شعبة التربية والعلم والثقافة الخاصة بالأمم المتحدة « unesco » وهي التي تنظم العلاقات الثقافية بين الأمم ، وتشرف على تبادل الآثار الفنية والعلمية بين مختلف الشعوب ، وتصدر النشرات والاحصائيات ، وقد نظمت هذه الشعبة بحيث تنتظم الكلمة المكتوبة والملفوظة وسائر الفنون البصرية والسمعية التي تؤثر في الفرد والجماعة وتشجع القائمين بها وتنسق الجهود المساهمة فيها ، كما أنّ جامعة الأمم العربية لم تغفل الثقافة العامة وأثرها في التقريب العقلي والشعوري بين هذه الأمم فأنشأت مكتبها الدائم ودعت الى المؤتمرات الثقافية ، وهي تحاول جاهدة أن تكشف عن نفائس المخطوطات والآثار الفنية وأن تشجع النهضة الفكرية وتعمل على تنسيق خطواتها .

* * *

أما وقد أصبحت الثقافة العامة هذه المكانة الملحوظة في الحياة الوطنية والدولية فقد صار من المحتم علينا أن نعيد النظر في الأداة الحكومية المهيمنة عليها .

ومن ثمّ لم تثبت على نظام أو تستحدث مهنة ، فاذا اضطرت الى القيام بعمل من الأعمال وكلت به الى غير أهله أو دفعت به الى المختصين فيه من غير رجالها

وقد آن لنا أن نهتدي بتنظيمات الشعبة الدولية والمكتب الدائم للجامعة العربية ، وأن ننشىء الأداة المشرفة على الثقافة العامة بالوزارة من جديد ، على أنه لا يعزب عن بالنا أن الإفادة من هذا التعاون الثقافي الدولي يجب أن تكون بقدر وأن نفرق بين ما يقصد للدعاية وما يقصد للثقافة وأن نحذر التبعية الثقافية لأنها وخيمة العاقبة كالتبعية السياسية والاقتصادية والعسكرية ، وقد تكون مقدمة لها وداعية إليها « ولعلّ أول ما ينبغي أن نحتفل به هو العمل على استصدار قانون يحافظ على الملكية الأدبية والفنية والعلمية حتى لا تصبح المؤلفات والآثار الفنية نهباً للنقلة والمقتبسين بغير حق ، وقد ترددنا في استصدار هذا القانون لأننا لم نرد أن نقفل الباب في وجه المترجمين ولما نزل في نهضتنا الفكرية عيالاً على غيرنا ، ولكن العقلية المصرية تأخذ مكانها التدريجي بين العقليات العالمية فالباب الذي نتعمده من ناحية بعدم استصدار هذا القانون يقفل في وجوه الفنانين

المصريين أبواب الافادة من جهودهم اذا أريد نقلها أو الاقتباس منها ، وسيدعو التبادل الثقافي الدولي الى عقد المعاهدات الثقافية وما يشبهها ، فعلينا أن نحترم الملكية الثقافية لغيرنا حتى يحترموا ملكياتنا .

ولسنا نستطيع أن ننظم هذا الاشراف الثقافي العام إلا إذا عرفنا ما عندنا وما ينقصنا باصطناع الاحصاء الثقافي الذي تبنى عليه المناهج والتوجيهات في كل فرع من فروع الثقافة ، ونحن اذا أردنا أن نحرص على مكانتنا الثقافية كان لزاماً علينا أن نأخذ بأكمل الوسائل الاحصائية من تسجيل وتصنيف وتحليل ، حتى يصبح هذا الاشراف قائماً على العلم الصحيح بنفسيتنا الجماعية وقدراتنا العقلية والشعورية .

وما دمنا قد أخذنا باللامركزية في شؤون التعليم وعرفنا فائدتها في حسن التوزيع وملاءمة التعليم للبيئات المختلفة قدر المستطاع ، فمن الضروري أن نأخذ بهذا النظام نفسه في التقسيم الثقافي حتى لا يتركز اهتمامنا في منطقة أو منطقتين . علينا أن نقسم القطر الى أقسام ثقافية أو نفيد من التقسيم السابق الى مناطق تعليمية فنلحق بها ادارات ثقافية تنظر في حاجة القسم أو الاقليم أو المنطقة الى الثقافة العامة أو نستكثر من الجامعات الشعبية ونوسع من وظيفتها أو نفتتح دراكز ثقافية قائمة برأسها .

* * *

وقد أدركنا في مطلع نهضتنا الفكرية أننا أحوج ما نكون إلى الترجمة فنقلنا الكثير من التآليف في شتى فروع المعرفة . وفي الأدب والعلوم الانسانية بخاصة . ولكن هذه الحركة قصرت جهدها كله تقريباً على اللغتين الفرنسية والانجليزية حتى أن قادة الرأي فينا كانوا يقسمون أنفسهم الى مدرستين : لاتينية وسكسونية . وقد أراد المثقفون على وزارة المعارف في يوم من الأيام أن يتخلصوا من هذا الضرب من الاحتكار الثقافي فأضافوا لغات أخرى إلى ما يدرس بالمدارس وجعلوا للطالب في مرحلة التعليم الثانوية أن يختار اللغة الأجنبية الاضافية . بيد أن هذه الحركة لم تؤت ثمارها لهذا السبب أو ذاك . فأول بنا أن نوسع من حركة الترجمة ، نأخذ ما ينقصنا من جميع اللغات والشعوب بلا تفريق ، ونستعين في ذلك من غير فلك بهيئة التربية والعلم والثقافة الخاصة بالأمم المتحدة .

ولما أنهأنا مراقبة الثقافة العامة في وزارة المعارف وألحقنا بها ادارة للترجمة الفنية ، ونقصد بالفنية هنا الترجمة غير الادارية وقعنا في خلاف فقهي : أتقوم الدولة بالترجمة أم تشجع القائمين بها فقط . ولم يكن لهذا الخلاف محل لأن الدولة الآخذة بأسباب النهوض الفكري عليها أن تسهم مساهمة حقيقية في حركة الترجمة ، ولسنا في ذلك بدعاً ، فقد سبقتنا

حكومات كثيرة بترجمة نفائس الكتب التي تحتاج إليها أممها .

وحركة الترجمة على طول مداها وتشعب موضوعاتها وكثرة المشتغلين بها لا تزال قاصرة من وجوه كثيرة ، فروائع الأدب العالمي لما تكمل ترجمتها بعد ، وفروع العلم الطبيعي لا تزال عصيّة على المترجمين اما لأن أساتذة هذه العلوم قد درسوها بلغات أجنبية واما لأن المصطلحات لم يتفق عليها بعد . ونحن قبل أن ننظم الحركة للترجمة نرى لزاماً علينا أن نحصي المترجمات القائمة وأن نصنفها على موضوعاتها وأن نبين الصالح منها وأن نفيد من تجارب الذين قاموا بها في نقل العبارة والاصطلاح والاسلوب جميعاً . وأن نحصي المترجمين القادرين ونشجعهم بالارشاد والعون المادي وهذا مطلب من مطالب الشعبة الدولية لكي يتيسر لها أن تنظم التبادل الثقافي بين الأمم .

أما رسم الخطة لحركة الترجمة بعد هذا التمهيد فلن يكون عسيراً لأننا نعرف ما ينقصنا من روائع الأدب العالمي فنكشف على نقله ونقف على الكتب العظيمة التي أثرت في العقل الانساني فنترجمها ونشرحها ، وندرك ما نحتاج اليه من فروع العلم فنترجمها ونتتبع ما يؤلف في اللغات الأجنبية عن مصر والعرب والاسلام فنرد على ما يستأهل الرد ونترجم ما يستحق الترجمة .

ولا يفوتنا جانب خطير من جوانب الترجمة ، هو النقل من العربية الى غيرها من اللغات ويكاد يكون الاهتمام به معدوماً ، ولست أقصد به الدعاية لمصر وآثارها ونهضتها كما يفهم الكثيرون ولكني أقصد به اعطاء العبقرية المصرية فرصة اظهار كفاءتها بين العبقريات الأخرى ، فنحتفل بما تطلبه منا الشعبة الدولية من ناحية ونساعد المصريين الذين يجيدون لغة أجنبية ويريدون الترجمة اليها على القيام بهذا الجهد الشريف من جهود الثقافة العامة .

ومن العجيب اننا لا نزال نعامل المترجمين الفنيين اذا أردنا تشجيعهم أو الافادة من عملهم بذلك « التسعير الجبري » الذي أقره مجلس الوزراء في زمن مضى وحاولت مراقبة الثقافة العامة أن تغير من هذا الوضع فلم تفلح ، أو لعلها ألفت الى يوم قريب أو بعيد ، وكان خيراً لها لو عاملت المترجمين بغير هذه المعاملة فاهترت حق الطبع بالقدر الذي يدخل التشجيع فيه .

وذكرت مراقبة الثقافة العالية التأليف الى جانب الترجمة ، ولكنها ذكرته كما تذكر الألفاظ المتضايفة لاغير ، ونهمت ضنه الندرة على التحرير فوكلت أمر تشجيعه الى بعض المتخصصين في اللغة العربية دون سواهم مع أن هذا التشجيع يجب أن يوكل الى جماعة من

المتقنين في علوم كثيرة يعرفون ما تحتاج اليه الأمة فيدعون الى التأليف فيه ولا يقتصر عملهم على قراءة الكتب وبيان ما يصلح منها للمكتبات المدرسية . وقد فطنت الوزارة الى تشجيع التأليف بوضع الجوائز وعقد المسابقات فأعلنت عن مسابقة منها لكتب الثقافة العامة وكتب الأطفال وكتب الآباء والأمهات ، وليس من الضروري أن تنشر الوزارة بنفسها المؤلفات التي تشجعها وتعين على تأليفها . وخير لها أن ترشد الناشرين اليها وأن تساهم في الدعاية لها وأن تنشىء جمعيات « الكتاب » وأنديته في كل مركز ثقافي أو معهد لتحث أوساط المتعلمين على القراءة المفيدة المنتجة وتبصرهم بالكتب الناقصة وتعلمهم التمييز بين الكتب والنفايات .

واذا كانت الحكومة لا تستطيع أن تقصد الى الربح من أعمالها ، وبخاصة الثقافية منها فانه يجمل بها أن تعاون الهيئات والأفراد الذين يعملون على نشر الكتب جادين مخلصين وألا تقف في معاونتها هذه عند الحدود المرسومة الى الآن وألا تقتصر هذه المعاونة على الجانب المادي وحده ، بل يجب أن ترشدهم الى المخطوط النفيس والمؤلف القيم والمترجم الأمين أو حتى تمدهم به فتحفيهم من حق التأليف ، وتلك معاونة صادقة تزيد على المعاونة المادية . أضف الى ذلك أن الوزارة نفسها « عميل » مهم في سوق الكتاب ، تشتري كثيراً من الكتب لتوزعها على مكتبات مدارسها أو تفرقها على تلاميذها وهي تتبع في هذه الناحية أسلوبها التقليدي في تأليف اللجان التي اذا اجتمعت فانما تجتمع مرة كل ستة أشهر ، وتتوقف بأمر يصدر بايقاف الانفاق على الكتب . لا بد من سياسة ثابتة رشيدة تتبع في شراء الكتب فلا يؤخذ من بند المقررات ما رصد على المكتبات ولا يتأثر التقدير بالحظوة من كبار الرجال فتطغى المحسوبية على المعايير الثقافية وما تطمح إليه من مثل .

ونحن مطالبون بحكم اتصالنا بالمؤسسات الثقافية العالمية أن نرصد جهدنا الثقافي بين الحين والحين ، وأن نصدر نشرات تسجل هذا الجهد وأن نتبادل هذه النشرات مع الأمم الأخرى مساهمة منا في حركة الأخذ والعطاء في ميادين العلم والتربية والثقافة العامة ، أفليس من واجبنا والحالة هذه أن نذيع في جمهور المتعلمين عندنا خلاصة حقيقية لجهدنا الثقافي وهم بطبعه أولى من غيرهم وأن نضيف إليه جهد الأمم الأخرى حتى يفيدوا منه ويفيدوا عليه . واذا كانت وزارة الدفاع تصدر صحيفة عن الجيش تعمل على تثقيف ضباطه والتقريب بين عقلياتهم ، بل واذا كانت وزارة الشؤون الاجتماعية تصدر مجلة يكاد يختص فيها الطابع الرسمي وتخرج بها الحكومة من مألوفها في عدم الاتجار بأعمالها فان مراقبة الثقافة في وزارة المعارف أولى من غيرها بأن تصدر صحيفة تبين فيها الحركة الثقافية في مصر والأمم الأخرى

أولاً بأول، حتى يطلع المثقفون ، وبخاصة رجال التعليم ، على نواحي النشاط الثقافي في العالم وقد يشجعهم هذا الى العمل الثقافي الايجابي .

وليس أدعى الى التأليف بين وحدات العقلية المصرية العامة أو العقلية العربية العامة من الكتب الجامعة أو دوائر المعارف ، وقد تنبه الى ذلك المثقفون بالعالمية ، فدعوا الى تأليف دائرة معارف عالمية تنتظم الحياة الانسانية مبرأة من شوائب العصبية والشعوبية وما جرته على الانسانية من محن وكوارث وحروب . والأمة المصرية لم تصدر الى الآن كتابها الجامع لجهد أبنائها وجماعاتها منذ أنشأت حضارتها المكينة على ضفاف وادي النيل بل واللغة العربية تنتظر دائرة معارفها الكبرى التي تقف الى جانب دائرة المعارف البريطانية أو الفرنسية ، فاهياك بدوائر المعارف الخاصة بالفنون والعلوم وضروب الجهد الانساني ، ونحن ان نستطيع بطبيعة الحال، ولما نستكمل بعد أدواتنا ، أن ننشىء دائرة معارف مثالية ولكنا نستطيع أن نحاول مفيدين من تجاربنا وتجارب غيرنا .

ومن حق وزارة المعارف أن تمد اشرافها الثقافي العام على دور الكتب وأن تعين الهيئات الاقليمية والخاصة على إنشاء دور جديدة وأن تنتخب لها الكتب ، وقد تزودها بها إن استطاعت وهيء طبقة من المتخصصين في فن المكتبة توزعهم على هذه الدور وأن تجعل مكتبات المدارس ومعاهد العلم مكتبات عامة لغير المدرسين والتلاميذ كما وجدت الى ذلك سبيلاً ، وأن تنظم مكتبات خاصة بالصبيان أو الشبان أو النساء ، ومكتبات فنية خاصة تنتظم مصادر هذا الفرع أو ذاك من فروع المعرفة وأن تفيد من وسائل النقل فتدفع « بالمكتبة المتنقلة » الى أطراف المنطقة الثقافية أو الاقليم الثقافي وقد حوت النشرات والكتب والصور والأخبار التي تفيد الناس في معاشهم وتعينهم على استغلال فراغهم .

وثمة جانب من جوانب الثقافة القومية العامة قد أغفلناه وهو الأدب الشعبي ، وقد عنيت به شعبة التربية والعلم والثقافة الخاصة بالأمم المتحدة من ناحيتين : من الناحية الأدبية الخالصة ومن ناحية دلالته على الأمة التي صدر عنها ، ولعصر أدب شعبي عنى به البلغاء الأوربيون في حين غلب علينا الأدب الفردي الأرستقراطي ، ولما احتجنا الى القوالب القصصية والتمثيلية مددنا بأبصارنا عبر البحر المحيط ولم نحاول أن نقيم أدبنا القصصي والتمثيلي على أصوله ، وان تكن ساذجة وحرام علينا أن نترك تراثنا لغيرنا يدرسونه وينشدون به ونوقف جهودنا على آداب الفرس واليونان ومن اليهم ! . على وزارة المعارف مستعينة بالمتخصصين أن تجمع آثار هذا الأدب وان تعمل على تنقيته مما علق به من الشوائب على

يد النقلة والناصبين والجامعين ! وأن تدفع بأصحاب المواهب الى أن يعيدوا تأليف بعض مشاهده وأن تشجع على تمثيل بعضها الآخر على خشبة المسرح أو على الشاشة البيضاء .

ولما أردنا أن نشجع التمثيل ، دعونا لجنة لترقية المسرح حشرنا فيها بعض المشاهير في كل الشئون حتى شئون المال والأعمال ، وكانت هذه اللجنة فلما تجتمع ، واحتفلنا بالترجمة والتأليف جميعاً فعينا تمثيليات من روائع الأدب المسرحي العالمي لكي تترجم ووزعت بالفعل على طائفة من الأدباء الناهين فترجموا بعضها ، وأكاد أقول إنه لم يمثل شيء منها ، ورصدنا الجوائز للتأليف المسرحي فلم ينتعش حتى قال قائل ان العقلية المصرية قاصرة عن انشاء الأدب التمثيلي وتبلبلنا بين اللهجة الفصيحة والدارجة وبين الشعر والنثر ووفقنا الى تعبير دار الأوبرا دون أن نهمل عنايتنا الحسنة في استدعاء الفرق الأجنبية الشهيرة ، وأنشأنا فرقة حكومية للتمثيل وأنشأنا معهداً يدرس أصوله وفروعه وجعلنا التمثيل من النشاط المدرسي وعينا له المفتشين . ولكن هذا كله لم ينهض بهذا الفن الجميل لأن تشجيعنا اياه كان مرتجلاً ، ولأن وزارتي المعارف والشئون الاجتماعية تتنازعان على داره الأولى ومعهده العالي ، وليس أدل على انحطاط مستوى هذا الفن من أن بعض المسرحيات التي تعرضها الفرقة الحكومية باللغة العامية مفسافة يعرف معظم المثقفين أنها منقولة عن أصل أجنبي ومن أن المعهد العالي للتمثيل يدرس فيه عصاميون لا مؤهلات لهم يتصورون الأدب اليوناني من غير فهم له في لغته أو حتى في لغة أخرى .

ولا يمكن أن يشجع هذا الفن الا اذا اشتق من صميم البيئة المصرية واعتمد على التراث القصصي الشعبي وتعاون القائمون به على نهضته مع المشرفين على الحركة الثقافية العامة من تأليف وترجمة مع توزيع المسارح المتنقلة على المراكز الثقافية وفروع الجامعة الشعبية والمدارس والساحات الرياضية ، وأن يناط بهذا كله الى وزارة المعارف دون سواها ، لأن التمثيل من صميم الثقافة الشعبية العامة واذا كان لغيرها أن ينهض بشيء من الجهد فيه فليكن بإعارة الدور التابعة للمجالس البلدية أو بالاعانة المالية والادارية .

وعدت شعبة التربية والعلم والثقافة الخاصة بالأمم المتحدة السينما من أخطر الوسائط الثقافية الجماعية وأقواها تأثيراً في النفوس وخصتها بعنايتها من ناحية التأليف لها ومن ناحية الصناعات الفنية المتصلة بها ، وهذه الشعبة تشجع على تبادل العمل الفني وتزاور القائمين به ، فعلى وزارة المعارف أن تعرف للسينما قدرها فتحتفل بالتأليف والترجمة لها وتزودها سوقها بالعقليات المستنيرة وتعين الأفلام الثقافية والتاريخية وتدفع الى تعريب الحوار في الروائع الأدبية التي تصدرها شركات السينما في الخارج حتى يفيد منها أكبر عدد

من الجمهور المصري فيرتقي ذوقه ويدفع المشتغلين بصناعة السينما الى الاجادة والاتقان ، وتنتخب من القصص المصري الممتاز ما يصلح للسينما فتعطي بذلك المؤلفين فرصة مزدوجة للافادة من مواهبهم ، وتزود المراكز الثقافية بآلات العرض وتستبدل الآلات الموجودة في المدارس بأخرى تصلح للفيلم العادي وتنشر الثقافة السينمائية الفنية بشتى فروعها من تأليف القصة والسيناريو والحوار والاخراج والاضاءة والتصوير وتسجيل الصوت وتقطيع مشاهده . وما اليه مع تخريج طبقة من النقاد تبصر الجمهور بما ينبغي أن يرغب فيه من المشاهد والافلام .

أما الاذاعة — وكل ما يصدر عنها داخل في العمل الثقافي الخالص — كان المنتظر أن ترفع الشعب اليها لا أن تنزل هي اليه وبخاصة لأنها ليست كالسينما تعتمد في وجودها عليه وتفتقر إلى التجارة والربح . يجب أن يوكل برنامجها الى الهيئة المشرفة على الثقافة العامة في وزارة المعارف وأن تتدرج هذه الوزارة في ترقية الذوق الفني ونشر الثقافة البسيطة وترقية الغناء الموسيقي وتقل روائع الأدب الاذاعي التي تلائم المزاج المصري .

* * *

والصحافة سواء أكانت ثقافية خالصة أم عامة ، عامل من أقوى العوامل في تدوين الرأي العام الثقافي ، وقد حددت ظروف الحرب من صفحاتها وجعلتها لا تحتفل بالثقافة إلا قليلاً ، ولكن هذه الظروف آخذة في الزوال وستحتل الثقافة مكانها القديم وتعود المقالة الأدبية أو العلمية أو الأقصوصة القصيرة الى الظهور . لن تناقض هذه الانواع الثقافية « الخبر أو الحادثة » ولكنها ستقف الى جانبها . فمن واجب وزارة المعارف أن تشرف اشرافاً أدبياً على الصحافة الثقافية وعلى أبواب الثقافة في الصحف العامة ، وأن تشجع هذه الناحية باعانة الأولى وتزويد الثانية بالارشاد واستغلال العمل الصحفي في الدعاية للنشاط الثقافي وتهيئة النفوس للاقبال عليه والافادة منه .

وليس أدل على حيوية الأمة من الاهتمام باحيائها والمحافظة على آثارها واقامة المتاحف المجسمة لجهودها في سبيل الحضارة ، فالمتحف أفصح من الكتب والمدارس ، ومتاحف الآثار المصرية منفصلة عن بعضها وكأنما فاتت مصر على فترات متقطعة وهي تخضع المنهج القديم الذي يقسم التاريخ الى دول فازية وأديان مختلفة . فما أحوجنا الى توحيد المتاحف في متحف واحد للحضارة المصرية في شتى عصورها ، وقد أقيمت للعلوم المختلفة متاحف وللمرافق العامة متاحف من حق وزارة المعارف أن تشرف عليها اشرافاً ثقافياً وأن تكون هي الواسطة الملائمة لها للمنسقة لادارتها وان ألحق كل منها بالمرفق الذي يدل عليه .

وكما أن المتحف يدل على الجهود الماضية ، فالمعرض يعطي صورة للنشاط الحاضر ، ومن ثم كانت المعارض من أقوى وسائل الدعاية ، والعمل الثقافي كسائر الأعمال يحتاج الى الدعاية له بالكلمة المكتوبة والملفوظة والصورة والمثال . وقد أقيم معرض ثقافي خاص بالكتاب العربي ولكنه كان معرضاً قاصراً تبدو العجلة على كل ناحية من نواحيه . فعلينا أن نقيم أمثال هذا المعرض بعد أن نستعد له وألا نغفل المعارض النوعية كمعارض الصور والتماثيل وأن نهتم في المعارض غير الثقافية فنجعل من معارض النبات والحيوان والحرف والصناعات معارض ثقافية وألا نقصرها على اقليم دون اقليم وأن تتعاون وزارة المعارف مع شتى الوزارات والمصالح التي تريد اقامة معرض من المعارض فتمدها بالخبراء في هذا الجانب من الثقافة من ناحية وبالمتخصصين في تنظيم المعارض وتصنيف المعروضات من ناحية أخرى .

ووزارة المعارف تقدم العون الأدبي والمادي للجمعيات والأندية الثقافية بالعمل وتخصها لنوع من الاشراف الاداري والثقافي وتبعث المفتشين الاداريين للنظر في حساباتها وأنظمتها ، بل وترسل المفتشين الثقافيين للتحقق من وفائها بالأغراض الثقافية التي انتدبت لها . ولكن هذا الاشراف بصورتيه الادارية والثقافية صوري أو يكاد . . . وما رأيك في أننا كنا نرسل متخصصاً في الثقافة الفرنسية للتفتيش على هيئة خريجي قسم اللغة الانجليزية مثلاً . ونرسل مدرساً من مدرسي اللغة العربية المتخرجين في دار العلوم للتفتيش على أعمال المجمع المصري للثقافة العلمية ، ما جدوى تفتيشهما وما قيمة تقاريرهما ؟ ان الاضافة تصرف بمقتضى هذا التفتيش وتلك التقارير ولكن هذا ليس كل شيء ، فان هذه الجمعيات وتلك الأندية ومنها ما هو في مصر ومنها ما يمثل الثقافة المصرية في الخارج . ينبغي أن تخضع لاشراف الوزارة الثقافي الجدي فتمدها بالبرامج وبالارشاد وبالأخصائيين وبالكتب وتتبع أعمالها من حين الى حين ، لا بالتفتيش عليها مرة واحدة في كل سنة وتشجع الأفراد والهيئات على تأليف اللجان والجمعيات والأندية الثقافية الخاصة لتقيام بالأنواع التي تنقصنا ، كما تشجع الهيئات النقابية الخاصة والأندية المنشأة لاستغلال أوقات الفراغ بصورة من الصور على أن تكون الثقافة معناها الواسع سر أهم ما يعنيها ويشغل أعضاءها في شيء من التنسيق بين جهود هذه الهيئات جميعاً حتى تشمل كل فروع الثقافة وتوزع على كل المناطق ويسهل التبادل الثقافي والتزاور فيما بينها تيسيراً لوحدة الثقافة العامة التي ننشدها .

ومن الأخطاء التي ينبغي أن ننبه إليها أن كل مثقف أو متخصص في ناحية من نواحي الثقافة لا يستطيع بالضرورة أن يشجع الحركة الثقافية ويهيء النفوس لاستقبال العمل الثقافي ومعرفة ما يصلح وما لا يصلح لهذه الهيئة أو تلك الطبقة . فجدير بنا أن نعمل تراثاً على إيجاد

جيل من « الثقافيين » يدرسون السيكلوجية الجماهية عامة والمعصرية خاصة وحاجياتها . وطرائق التأثير فيها والالمام بما تفعله الأمم الأخرى في هذا السبيل بارسال البعثات وانتخاب بعض ذوي الاستعداد ليكونوا مع الملحقين الثقافيين في سفاراتنا بالخارج وتنظيم الزيارات الرسمية للمؤسسات العاملة على نشر الثقافة مع تخريج عدد من المتخصصين في فنون المعارض والمكتبات وما إليها .

وهذه الجهود لا يمكن أن يزاولها المكلفون بها على وجهها الصحيح في ديوان الوزارة وفي تلك الحجرات التي يستطيع أن ينشأها كل من أراد ولو لم يكن له عمل متصل بها ، وهي إن ساعدت على عمل فانما هو العمل الديواني العتيق الذي يعتمد على الحركة العضلية الآلية أكثر مما يعتمد على التأمل والتفكير ودراسة ومراجعة النشرات وتحليل الاحصائيات . كما أن ادارتها مبعثرة لا ارتباط فيها بين قسم وقسم ، مع أن التنسيق هو بمثابة الأصل الذي ينتظم أصولها . وقد أدّى هذا الى عدم اتضاح الحدود والأعمال والحدام المسئولية الفردية ومن الخير أن تستقل بمبنى خاص يجمع أكثر مصالحها وادارتها ان لم نستطع أن نجمعها كلها في صعيد واحد وبخاصة لأنها تحتاج في عملها هذا الى الاتصال بالهيئات الثقافية الدولية والعلماء والفنانين الناجين . وكم من عالم شرقي أو مستشرق أو أديب غربي نضطر الى زيارة قسم من أقسام مراقبة الثقافة الحالية فاصطدم بالواقع الذي يباين عمة مصر الثقافية الحسنة في الخارج .

* * *

اما تقسيم هذا الاشراف الثقافي الى مصالح ومراقبات وادارات وأقسام . فذلك بعد الذي شرحنا يسير لأنه يقوم على تقسيم العمل على النوع والأنواع . وما دامت وزارة المعارف قد انتهجت سياسة التخفيف عن كواهل التلاميذ في مراحل التعليم النظامي فبسطت البرامج ويسرت الامتحانات وأنقصت اليوم الدراسي فزادت من فراغ التلاميذ وبخاصة المراهقين وصغار الشبان فمن واجبها أن تحتفل بالنشاط المدرسي واستكمال ما لم يحصله التلاميذ في المدرسة بالثقافة العامة وغرس الهواية المفيدة في نفوس الشبان وشغلهم في أوقات الفراغ بما يصلح أخلاقهم وينفع أمتهم ويسمو بغرائزهم وعواطفهم ، وإلا اضطر هؤلاء الأحداث الى الانحراف والغواية والانقياد ببعض الآراء المتطرفة والانسياق وراء بعض الزعماء الذين يستغلون عواطف الشبان باسم العدالة الاجتماعية حيناً والمحافظة على مقومات الدين حيناً آخر .

عبد الحميد يونس
عضو لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية

في التربية

— ٢ —

مشاكل النمو والصراع النفسي

— ١ —

قبل أن نعرض لما ينتاب الناشيء من أزمات تحول دون نموه نموًّا طبيعيًّا ، نشير الى أنواع المدارس التي تساير مراحل النمو في مصر إشارة عامة . انقسمت مراحل الدراسة الماضية أربعة مراحل ، يزدوج في كل مرحلة منها نوعان من المدارس فرقت بين تزيلها الصروفات . ففي المرحلة الأولى المدرسة الإلزامية ، ورياض الأطفال ، وفي المرحلة الثانية المدرسة الأولية والمدرسة الابتدائية ، وفي المرحلة الثالثة المدارس الصناعية والتجارية والزراعية ، والمدرسة الثانوية ، وفي المرحلة الرابعة المدارس العليا والكليات الجامعية . وقد بذلت مساعٍ جد حديثة لتقريب المستوى المادّي والعلمي لهذه المدارس ، وبدأت بتيسير وسائل التعليم والتوسع في نسبة المجانية ، ومحاولات لجعل التعليم الابتدائي مجانًا ، وتقسيم التعليم الثانوي الى مجاري صناعي وزراعي ونظري ، وتيسير اختيار السبيل تبعًا للمواهب ، ومواصلة الدراسة منها إلى ما يناظرها في التعليم العالي . وقد تلونت هذه الحركة بالروح الديموقراطية الحديثة والسعي الى تعليم الشعب ، وكان اتجاهها الرئيسي نحو تعميم المجانية وتيسير الدراسة .

وتلت تلك حركة أحدث منها ، بل تعاصرها ، قوامها السعي إلى ترقية محتوى التعليم من ناحية الكيف ، مع الاستعانة بأساليب التربية وعلم النفس الحديثين ، وتنادي بالمدرسة الواحدة في المرحلة الأولى ، وتحويل المدارس الأولية والالزامية والابتدائية الى مدرسة أولية جديدة تؤدي الى التوسع في التعليم العام ، وفي نفس الوقت الى تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص بصورة عملية ، وتسعى إلى إعداد مدرس جديد في معاهد جديدة على أسس حديثة . وتلي هذه المرحلة مرحلة دراسة وسطى ، تناسب مرحلة الطفولة المتأخرة ، ومرحلة الدراسة الثانوية ، وربما كان من النافع تنويعها فتتسع للمدرسة الثانوية التي اقترحها رجال المدرسة الأولى ، فتتصل الناشيء بالجامعة . على أن مشكلة المناهج والكتب الصالحة وطرق التدريس

لم تحتل بؤرة الاهتمام بعد ، وهي في حاجة الى جهود كل من له صلة بالتربية ، وعقد مؤتمرات عامة ، وتجربة المشروعات في نطاق أوسع مما تجرب فيه اليوم بالمدارس النموذجية ، ومن الممكن تصوير طرق المشروعات في المرحلة الأولى ، وطرق المشاكل وأساليب مدارس الفن في المدارس الثانوية والمثل الأعلى للنمو القويم إشباع حاجات الناشيء في كل مرحلة من المراحل ، وإنماء ذاتيته تبعاً لمواهبه إذا أردنا لمجتمعنا هذا وفيًّا مثاليًّا . ومن المغالطة الاحتجاج بقلة المال ، فباب الضرائب مفتوح ، وفي مصر ثروات مختكرة وإنما جمعت من مال المستهلك والعامل والصانع والفلاح والقصب المصري ، ولا يستقيم القصب ويعالج بابه من فقر وجهل ومرض إلاَّ بالتربية السليمة ، وأنه لوهم أن يعتقد فرد أن التربية الصحيحة ستضر بمصالح طبقة من الطبقات .

— ٢ —

وقد يحدث ألاَّ ينمو الطفل نموًّا سليماً طبيعيًّا ويجتاز مرحلة الى أخرى ، فقد يقف عند مرحلة لا يتعداها ، وقد يحدث له نكوص وارتداد الى مرحلة سابقة .

يدل على ذلك ما وصل اليه فرويد ومدارس التحليل النفسي من نتائج البحث في عالم اللاشعور . على أن فرويد يرجع أسباب الشذوذ الى الغريزة الجنسية ، ولا يوافق مكدوجل على ارجاع كل المشاكل الى هذه الغريزة وحدها ، وإنما يرجعها إلى ما يسميه الدافع الهورمي ، أي الدافع للحياة ، ويقابل الليبدو عند فرويد ، وهو يشمل الدوافع الغريزية كلها ، بما فيها الغريزة الجنسية ، ومناطق الشعور ومناطق اللاشعور على السواء . أما رجال التحليل النفسي ، فيرون أن الشعور وميدان العقل والخبرات الفردية إنما هي مظهر الحياة النفسية وسطحها بينما الجوهر الخافي الذي يسير الحياة هو اللاشعور ، ولا يدرك كنهه الاَّ بالتحليل النفسي والتأمل الباطني على أن في هذا التفسير للحياة النفسية ما يشبه الدوافع الحية التأمية (الهورمية) والاحتفائية (المبسية) عند مدرسة مكدوجل ، فأساس الحياة النفسية قدرة على النمو واستعداد للاحتفاظ بالخبرات ، ينتج عنهما مركبات أو عقد تنشط في اللاشعور وترى هذه المدرسة أن العواطف مركبات تكونت بهذه الطريقة ، وتلونت بألوان وجدانية نزوعية اتصلت بفكرة ، وتنتظم هذه العواطف تحت سيطرة عاطفة الذات .

ولو حدث النموّ سيراً ناجحاً لما كان هناك شذوذ ، فلو قام اللاشعور أو البناء النفسي بوظيفته بانسجام أدّى الى انسجام السلوك لما الإنسان نموًّا مثاليًّا ، وإنما توجد ميول خاصّة تتمرد ولا تتعاون مع غيرها من النزعات تحت سيطرة عاطفة اعتبار الذات ، أو الذات المثلى . ولا تبقى هذه النزعات المتمردة راكدة بل تنشط في اللاشعور وتنازع غريزة

اعتبار الذات وتظهر آثارها في السلوك وتؤدي إلى انقسام الشخصية ونموّ سلوك شاذ. ويحس الفرد بمثل هذا الصراع في قرارة نفسه بين شهوات البدن والروح، وتنازع انفعالات الغضب والخوف، والطرف وحب الاستطلاع. على أن هذه الصور بسيطة زائلة مؤقتة بينما يوجد انفعالات وعواطف دائمة الطرب. وعلاجها هو اكتشافها وتحليلها ومحاولة التوفيق بينها حتى تنسجم تحت طاعة الذات المثلى. ولا صلح دون مفاوضة، كذلك لا سلامة نفسية بدون معرفة النزعة الشاردة والتوفيق بينها وبين الذات المثالية، وتلك مهمة المحلل النفساني وميدانه هو تفسير الأحلام، وعثرات اللسان، وتداعي الكلام الحر، وغير ذلك مما يكشف للفرد نزعاته المكبوتة الباطنية، وبقدر ما يوفق بينها يحدث الاتزان في الشخصية. أما إذا اشتد بأس العقد المكبوتة، وزادت سطوتها فظهرت في السلوك، ولم تعد الذات تسيطر عليها، فيحدث في النفس ما يشبه حرب العصابات، وتسعى العقد المكبوتة إلى الظهور على السطح، وإذا زاد بأسها خلقت شخصية أخرى مركبة قوامها النزعات الشاردة فتنقسم شخصية الفرد إلى شخصيتين، وتتناوب مع الشخصية الطبيعية الظهور والسيطرة. وفي الحالين يقاسي الفرد من المجهود النفسي الذي يبذله بكبت العقد التي تظل في اللاشعور تنتظر الفرص للظهور.

ويفسر فرويد اللاشعور تفسيراً رمزيًّا تصويريًّا، فيجعل منه حجرة انتظار كبيرة تؤدي الى حجرة صغيرة هي ما قبل الشعور. ويزدحم كل أنواع المشاعر التي تريد الدخول في حجرة اللاشعور، وتسعى الى الدخول في حيز ما قبل الشعور، لولا الرقيب الذي يختار ما يصل الى حيز الشعور، بينما يمنع المشاعر الأخرى فتكبت. على أن أحدها قد يتنكر في ثوب ما ويخدع الرقيب ويدخل الى حيز الشعور. وهذا التفسير فرض نظري خالص، فالتشبيه مضلل إذا صار سيداً لا خادماً، أما اذا اعتبر فرضاً كتفرد من الخبرة والعقد النفسية والشعور، كان معناه ما يأتي: تنشط العقد المكبوتة في النفس وتصطرع لتظهر في حيز الشعور، فيضعف تكامل الشخصية وانسجامها، وتستقل العقدة النفسية ولا تتعاون مع الشخصية. وقد تنشط وتظهر في ميدان الشعور في ثوب بريء لا يكشف عنها مباشرة، وبذلك يكون لها معنىً ورمزًا. وتكثر هذه الرموز في الاحلام إذ ينام الرقيب فتنطلق العقد المكبوتة وتمرح في الشعور وتوجه السلوك سافرة غير متنكرة، ولكن تنافي هذه الأحلام معاييرنا الخلقية الاجتماعية، لذا ينتابها النسيان. وقد تظهر العقد في الأحلام بصورة رمزية، ويرى المحلل أنّ هناك رموزاً عامة مشتركة بين الأحلام، فالملك يمثل الأب، والشمس والقمر والكواكب تمثل الأب والأم والإخوة كما ورد في حلم يوسف.

— ٣ —

وقد ألقت أبحاث فرويد وينج وأتباعهم ضوءاً على الأحلام ، فكثر أحلام الخوف في مراحل الطفولة والمراهقة ، وتفسر بأنها خوف من عقد مكبوتة تولك أن تكشف عن حقيقتها فتفزع الشخصية الطبيعية ، وتتدخل في اليقظة المناسبة . والسير أثناء النوم رمز للصراع الذهني ، وتعتزل فيه الشخصية الرئيسية مكانها وتهبه للشخصية الثانية ، والقهقهة في الحديث دليل على صراع عقلي ، ربما سببه خوف الأب ، الذي قد يظهر في صورة استعمال الطفل ليده اليسرى رغبةً في المخالفة . ويرى فرويد أن النسيان وعثرات اللسان وتجنب تعبيرات خاصة مظاهر الكبت ، كذلك المبالغة في العناية بشيء ، وسقوط أداة ، وقعة تصيب الخطاب عفواً ، وخطأ في عبارة ، كلها عقد أسلمت والرقيب نائم ، أو تنكرت وخدعته فظهرت في الشعور ودلت على دوافع خفية . ومظاهر ذلك في المدرسة عبث التلميذ بكراسته وهروبه من المدرسة ، وعثرات لسانه . وكل مظاهر الشذوذ رمز لا شعوري لمدائه للمدرسة والنظام والدرس ، ومن يحضر متأخراً عن ميعاده يعبر تعبيراً لاشعورياً عن كبت في نفسه رغم اعتقاده بأنه لا يقصد الاهمال أو المعاكسة . وقد يدل الحماس الزائد المبالغ فيه على عكسه ليغطي الفرد به ما يكبت في لاشعوره ، فمن ذلك النظافة المبالغ فيها ، التي قد تغطي شعوراً بإثم باطن ، ومنه محاولة عمل يفوق الطاقة تعويضاً عن ضعف أو انحطاط ، ومنه قسوة النقد على الغير تغطية لخطأ مكبوت . ولكل من يسعى الى علاج الطفل المشكل أن يرجع الى معين اللاشعور وصور الصراع النفسي ، وتتعدد هذه المشاكل في مراحل المراهقة ، فقد يفشل المراهق في التكيف مع العالم الخارجي ، فيشغل بما في عالمه النفسي وينطوي على ذاته أكثر مما يتصل بالعالم الخارجي ، ونتيجة ذلك أن يكوّن فكرة سيئة عن العالم ، وينغمس في أحلام اليقظة التي تنسج له عالماً وهمياً يحيا فيه وفق رغباته . وكثيراً ما يشكو المراهق من التعب ، والأمراض الوهمية ، ويسعى للنوم ، وذلك تعبير عن عجزه عن مجابهة حقائق الحياة ، ورغبته في الانسحاب من معركتها .

***

وليست الراحة مهرباً له من مشاكله ، وإنما العلاج إشراكه في النشاط الخارجي ، والرياضة دواء لمشاكله البسيطة ، تفيها مجال يعبر فيه المراهق عن ذاته ، ولا بدّ من عناية خاصة لمشاكله المعقدة ، فربما انتهى الصراع النفسي بالجنون .

وقد يؤدي الفشل في التكيف إلى نكوص ورجوع الى مرحلة أولى ، يشعر الفرد بأنه

كان أكثر راحة فيما منه في حاضره ، ويظهر ذلك في التعلق بالقديم ورفض استبداله بالجديد وربما تحمل الآباء مسئولية ما يحدث من وقوف نمو أبنائهم عند مرحلة أو نكوصهم إلى مرحلة أولى إذ يؤدي بهم الحنان الى خلق ابن متواكل يعتمد عليهم في كل صغيرة وكبيرة ولا يسمحون له باستقلال في الرأي والتفكير . ومن مهمات التربية أن تساعد الناشيء على الاستقلال في كل المشاكل ، والاعتماد على نفسه وتفكيره في مجابهة الحياة .

* * *

ومرحلة المراهقة هي مرحلة الشذوذ والاجرام إذا اشتد الفشل في التكيف ، فيحدث نكوص يرجع بالمراهق الى مستوى الطفل الغريزي ، فيدع غرائزه تعبر عن نفسها تعبيراً غير اجتماعي . وربما كان الغريزة الجنسية أثر في أخطر الجرائم ، وربما كانت الجريمة مظهراً لغريزة السيطرة ممكوساً بعد أن فشل صاحبها في توجيهها توجيهاً اجتماعيًّا ، فقام المجتمع مقام الأب المكروه ، دون أن يدري المجرم سبب ارتكابه لجريمته . وربما كان الهرب من المدرسة مظهراً للتمرد على سلطة الأب ، أو رغبة في الاستقلال أو السيطرة ، وربما كان مظهراً للبقاء تحت كنف الأبوين أو ثورة عليهما . كذلك الكذب فهو مظهر لعقدة مكبوتة في الأعم الأغلب . والسرقة مسلك شاذ للتعبير عن غريزة حب التملك ، وربما كانت مظهر ثورة على الأبوين أو المجتمع عليهما . وعلاج ذلك كله إعلاء الغريزة وتوجيهها توجيهاً اجتماعيًّا مرغوباً فيه ، وعلى المربين أن يوفقوا في المدرسة مجال إعلاء هذه الميول ، ولا ينفع العقاب كما يضر ، وإنما يزيد في دفع المذنب إلى جانب العداوة للمجتمع ، والكبت في التربية من الأمور الخطرة الخاطئة ، وإنما يوفر المربي المجال لكل الدوافع حتى يعبر عن نفسها ويشرف على ذلك إشرافاً يصحبه الحنو والعطف وصدق التفهم . وإذا أردنا أن نربي شخصيات مثالية ، تخلق مجتمعاً راقياً تقيًّا نبيلاً متحرراً ، فهي مرحلة المراهقة بدء الطريق .

* * *

فهل تحبب مدارسنا الثانوية بإداراتها ونظمها ، ومناهجها وكتبها المراهق فيها ؟ وكم من أبنائنا يجتاز هذه المرحلة ولم يعترضه مظهر من مظاهر الشذوذ ؟ وما هي أسباب هذا الشذوذ ؟ إن في ذلك مجال لتفكير فيه الأب والمربي والمصلح .

محمود عامر شوكت

العناية بالدواجن

وتحسين أنسالها في روسيا السوفيتية

Stockbreeduig and the Artificial Insemination of Livestock. By V. K, Milonsnov and I. I. Sokolovskaya. Trans. by Dr. A. O, Morton : London-Hutchinson : 1947 : 25s. net.

تحاول روسيا السوفيتية أن تسابق الامم في مضمار الرقي ، على أن يشمل ذلك جميع مرافق الحياة . وفي هذا الكتاب عرض للاساليب النظرية والعملية التي يقوم بها علماء الروس في تحسين نسل الدواجن . ولقد نوه المؤلفان بالجهود التي بذلتها انجلترا في هذا الشأن في مقدمة الكتاب ، وأشادا بعودة بعض ضروب الدواجن التي استطاع العلماء والهواة في انجلترا أن يفوزوا باستخلاصها ، ثم عقب المؤلفان على نظرية « داروين » في قابلية تغاير الاحياء وعلى مذهبه في الانتخاب الطبيعي ، فاستعرق ذلك البحث الفصلين الاولين منه . وقد عرزا نظرية « التغاير التفاوتي Correlated Variation » بمشاهدات أجتباها في الدواجن الروسية وأتبعاها بالتجارب التي أجرياها على كثير من أجزاء الجسم والانسجة في الدم والمشية وألبانها ولحومها ، وأظهرا عملياً ما بين بعض هذه التراكيب وبعض من الدب الغاية . وقد ذهبا الى ضرورة إيجاد البيئة ذات الحالات الصالحة لاستخلاص أنسال تؤدي أغراضاً خاصة بالانتخاب الطبيعي .

على أنهما لم يقتصرا على ذلك . بل تابعا البحث في نظريات جديدة ذهبا إليها ، كقولها بأن النشاط الجنسي يشق كثيراً مع تكوين الجسم . وقد أيدا قولها بمذهب « باغلوف » الروسي القائل بأن الحيوان الرفيق التكوين يكون فيه ضعف سواء أمن ناحية التلبه أم من ناحية التكيف على الدواء .

وعقدا فصلا في التزاوج ، تناول ان تزاوج غير السويين ، أي أن يكون أحد الفردين ناقصاً والآخر كامل ، ليكمل الكامل منهما ناحية النقص في صاحبه ، نظرية مرغوبة ، وذهبا الى أن تزاوج الاسوياء هو الاسلوب الصحيح في تخليق الانسال ، وعطفا على أساليب الاستيلاد ، وبحثا في توالد الافراد ، وتوالد الانسال الصحيحة ، والتوائد بالتهجين ، وأبانا عن الاساس العلمي والعملي لكل من هذه الطرق .

ولا شك في أن أفيد فصول الكتاب هو الفصل المعقود على طريقة التلقيح الصناعي في الدواجن ، وشرح الطريقة المتبعة في روسيا في تلقيح الاناث بنوع من الورق تشبع بعناصر الذكور . وان كثيراً مما قرر المؤلفان في هذا الفصل يمكن تأييده عملا وعلماً وإن خالفا فيه بعض الاساليب التي جرى عليها علماء اختصاصيون في انجلترا وفرنسا والمانيا . ومما ذهبا إليه ان زيادة الحيوانات المنوية في التلقيح الصناعي أو قلتها عن نسبة معينة ، لها نتائج ضارة تصيب الاناث ذاتها . وقد ضربا على ذلك الامثال الكثيرة ، ووصفا الطرق التي تتبع في الفحص عن صفة القيح (المني) قبل استعماله ، ومضيا في بحث الانتخاب الاقاحي في بيضات الارانب ، بأن أتحاها بحيوانات ذكرين مختلفين تمام الاختلاف .

ويقيم ذلك فصول كثيرة الفائدة في التفريخ والتوالد والتربية كلها قائم على أساس علمي وعلى أساليب عملية .

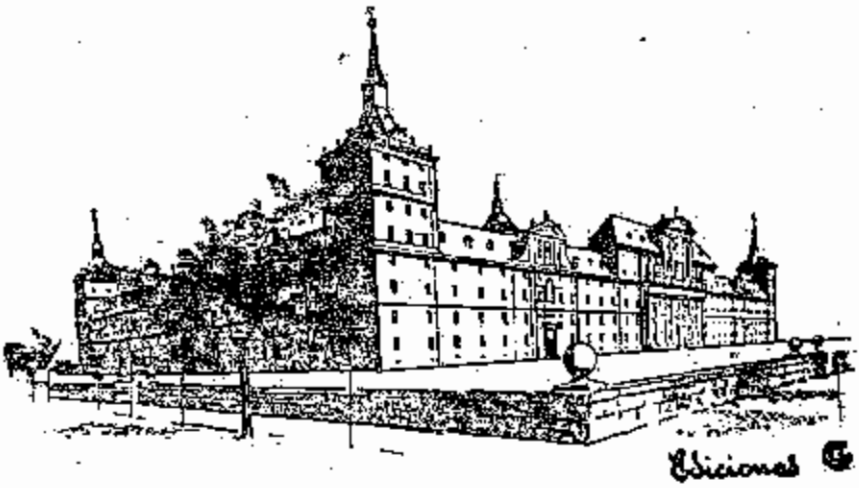

قصر الاسكوريال

الاسكوريال

في صيف هذا العام أوفدت كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بعثة من أساتذتها وطلبتها وخرجت لزيارة معالم أسبانيا وأهم آثارها فكانت رحلة موفقة تمكنت البعثة خلالها من زيارة أهم مدنها ومعالمها ومن بينها الاسكوريال ثامن عجائب الدنيا .

ويطلق هذا الاسم على بناء مستطيل ضخم شاهق الارتفاع يضم بين جدرانه كنيسة ومكتبة وقصراً ملكيًا ومقابر للملوك وديراً ، ويتقدم هذا البناء ساحة كبيرة تتناسب مع ضخامته كما يشرف على قرية صغيرة تعد ضاحية من ضواحي مدريد وتبعد عنها الى الجنوب بنحو خمسة وخمسين ميلاً ، وقد شيد الاسكوريال على السفوح الجنوبية لجبال سيرادي جوادراما وعلى ارتفاع ٣٤٣٢ قدم فوق سطح البحر .

وقد اشتق اسم الاسكوريال من الكلمة اللاتينية المقابلة لها ومعناها النسخ . ولذلك تعتبر الاسكوريال نسخة أخرى من كنيسة القديس سان لورانس التي تهدمت من قبل وأعاد بناءها فيليب الثاني ملك أسبانيا (٥٦ — ١٥٩٨) في القرن السادس عشر تخليداً لذكرى هذا القديس وذلك على أثر انتصاره على الفرنسيين وطرد جيشهم في موقعة سانت كونتين في ١٠ من أغسطس عام ١٥٥٧ .

واستغرق بناء الاسكوريال نحو سبعة عشر عاماً ويشغل ساحة قدرها ٣٩٦٧٨٢ قدماً ويشتمل على سبعة أبراج وخمسة عشر مدخلاً وما لا يقل عن ١٢٠٠٠ نافذة وباب .

١ — ﴿ الكنيسة ﴾ : أهم المباني وأرفعها منزلة يحج إليها الاسبانيوز من آن لآخر لما لها أنها كما أنها إحدى كنائس أوربا الهامة التي ترجع إلى عصر النهضة . وتبلغ مساحتها ٧٠٠٠ قدم تتوسطها أربعة دعائم ضخمة شيدت عليها قبة ترتفع قمتها ٣٢٠ قدماً ويتصدر القبة المكان المقدس (المذبح) ويصعد إليه بنحو ست عشرة درجة وهو من عمل أحد مشاهير الرسامين البلجيكيين ويقدر ثمنه بنحو ثمانية ملايين من الجنيهات .

٢ — ﴿ المكتبة ﴾ : تقع فوق الايوان الرئيسي للكنيسة وهي من أشهر ، بل من أعظم مكاتب العالم لما تحتويه من مخطوطات قديمة قيمة ، كان بعضها ملكاً خاصًا للملوك

الاسبان والبعض الآخر وصل إليها عقب انتصارهم على سلطان المغرب مولى زيدان (١٦٠٣ ـ ١٦٢٨) فحفظ بها مخطوطات الكنائس والأديرة العديدة حتى لا تصل اليها يد العابثين من الثوار وقت الاضطرابات التي تعرضت لها اسبانيا في العصور السالفة وبها أقدم مجموعة من المخطوطات العربية والعبرية واليونانية واللاتينية البالغ عددها ٤٠٠٠٠ مخطوط منها كتابان مقدسان يرجعان إلى القرن العاشر ، وأخريان إلى القرن الحادي عشر كما حفظ بها بعض أعمال الفونسو الحكيم (١٢٥٢ ـ ١٢٨٤) ومصحف من القرن الثالث عشر زخرفت هوامشه وفواصله بألوان زاهية لا زالت محتفظة بجمالها إلى اليوم . ويدل تسامحهم الديني على عرض هذه الكتب المقدسة بجانب بعضها في قاعة واحدة ، بل وعلى منضدة واحدة ، كما عرض على إحدى هذه المناضد كتاب « الفرقان المطاع » وهو كتاب قصصي تاريخي مزين بالصور التوضيحية ويرجع تاريخه إلى عام ١١٧٦ . وزخرفت هذه القاعة وسقف المقبرة برسوم الفرسكو لاشهر الفنانين الاسبان .

٣ — ﴿ المدافن الملكية ﴾ : خصص الطابق الأول من هذا القسم للمدافن الملكية فأقيم تحت مذبح الكنيسة حجرة مثمنة خصصت لدفن الملوك والملكات يمكن الوصول إليها من داخل الكنيسة أو من خارجها . يتصدر هذه الحجرة المثمنة المسيح واصطف من يمينه ومن يساره ستة وعشرون تابوتاً من الخشب النفيس المطعم بالعاج والأحجار الكريمة لا يزال ثلاثة منها خالية تنتظر رفات من يوافيه القدر .

وتؤدي هذه الحجرة إلى دهليز يوصل إلى حجرة صغيرة خصصت لدفن باقي أفراد العائلة المالكة من الأمراء والنبلاء وهي مقابر من المرمر أو الرخام البديع الصنع يعتلي بعضها تماثيل لاصحابها على وسائد يحسبها الرائي وسائد من ريش النعام كما نقشت عليها لفتة تاريخية مع شارته الملكية . وينتهي هذا الدهليز بحجيرة صغيرة يتوسطها مقابر صغيرة على شكل دائرة خصصت للاطفال الابرياء دون من السابعة من أبناء الملوك ولذلك تسمى هذه الحجرة بحجرة الابرياء .

٤ — ﴿ القصر ﴾ . سمت نفس فيليب الثاني عن الدنيا وزهدت في الملك فأراد أن يتقرب الى الله بروح خالصة فبنى له بجوار بيت الله قصراً متواضعاً بعيداً عن أبهة الملك وجلاله وزوده بالقليل من الرياش والأثاث وزينه بالرسوم فجاء آية من الجمال الفني وفي غاية الروعة طليت جدرانه وسقوفه بأبدع ما أنتجه الفنانون الاسبان والبلجيك من رسوم الفريسكو أمثال بلجرينو ، وبارتلوميو ، ولويس دي كاربجال ، وتيبالدي ، وتيبان ، وتنتوريتو ، ولجريكو وجوردانو وروبينو وكانون وبن فولتيني وشيلني . كما غطى بعض جدرانها بالمجاجيد

المكتبة في قصر الاسكوريال

الفاخرة نسجت خيوطها من أسلاك ذهبية وحريرية في المصانع الملكية عليها رسوم دينية واجتماعية زاهية اللون كسجاجيد حجرة الاستقبال من رسم جويا . وزوّدت هذه الابهاء بالستر النفيسة والثريات الرائعة . وروعي أن يسود بعض هذه الابهاء لون واحد كالأخضر أو الأصفر أو الأحمر وعرفت بعض الصالات بهذه الأسماء .

وتتوسط هذه القاعات قاعة العرش تتصدرها منصة مرتفعة تعلو عن الأرضية بدرجتين وأقيم عليها كرسي العرش للجلوس الملك ، أما الملكة فخصص لها كرسي بجوار الحاشية على خلاف العروش الأوربية الأخرى حيث تجلس الملكة بجوار الملك على منصة واحدة .

يجاور قاعة العرش قاعة أخرى من رسم الرسام البلجيكي روبينز ، ثم يليها قاعة السفراء وأخرى لمكتبه الخاص صنعت من خشب العود الخالص وغيرها لعبادته من خشب الأبنوس رسم رسومها الرسام بن فولتيني ، أما حجرة السيد فن طراز بومبي . وهناك قاعة طويلة زين جانب منها بالفريسكو برسوم تمثل المواقع الحربية التي وقعت بين جون النمسوي ومحمد الثاني أثناء القرن السادس عشر .

وقد تعوّد الملوك الذين تعاقبوا بعد فيليب الثاني على اسبانيا أن يتخذوا من هذا القصر حجراً خاصة لهم قبلوها ببعض التعديل .

هذا في الطابق الثاني ، أما الطابق الأول فقد خصص لسكن فيليب الثاني ولم يقطنه أحد سواه سوى ابنه منذ القرن السادس عشر . ولذلك لا تزال حجراته محتفظة بطابعها القديم وفرشها وأثاثها بنظامها الذي كان أيام فيليب ومن بينها حجرة نومه وسريره الذي فاضت عليه روحه في ١٣ سبتمبر سنة ١٥٩٨

أما باقي بناء الاسكوريال فقد خصص لسكن الرهبان الذين يشرفون عليه . ولا يزال الاسبان يعتدون بهذا الأثر الجليل ويحيطونه بكل روعة وجمال وداًبوا على المحافظة عليه رغم الحوادث التي توالت عليه وما تعرض له من دمار بعض أجزاءه عقب الحريق العظيم عام ١٦٧١ ولم ينجُ منه إلاّ الكنيسة وجزء من القصر وبرجان ، كما تعرّض البناء جميعه لانتقام الفرنسيين ١٨٠٨

ويقصد الاسكوريال من آن لآخر كثير من المشتغلين بالفن والآثار ودراسة المخطوطات القديمة .

محمد سعيد العريان

مشهد من مسرحية كليوباترا

للشاعر محمد فريد

(منظر بهو في القصر الملكي . تسمع موسيقى هادئة وتشاهد الملكة كليوباترا جالسة على عرشها بملابسها الزاهية الفاتنة في حالة تفكير وعلى مسافة منها جمع من الراقصات الجميلات تخاطبهن رئيستهن)

رئيسة الراقصات : يا صبايا تباورين في كل مبتكرْ
ولتكنْ رقصة الملي لانطونيو اذا حضرْ

كليوباترا وكأنما تناجي نفسها : —

يا فؤادي أي سرٍّ دهانا هاج بالقلب والفؤاد هوانا
كان قبلاً نسأمًا تتهادى فغدا اليوم نائمًا نيرانا
يا غراماً نموتَ طفلاً لعوبا كيف ألقى على يديك الهوانا
من لقلب مكبلٍ كأسيرٍ ويرى الناس حوله عبدانا
كم يروع الجلالُ منه البرايا إنه الآن يستجيش حنانا
قدرٌ قد أهلَّ يوم التقينا آه .. مما جرى به لقيانا
رحت أسعى اليه بين فتون بأمر الملك .. فاستطير جنانا
فوق فُلك كأنها خِدع الوهم بهاءً وروعةً وافتنانا
قد سباه الجمال فهو أسيري كيف أنطونيو تسومني طغيانا ؟
أكذا الحب هادئ؟ جميلٌ فشرامٌ . من مجيري ؟ وقد غدا بركانا

هي وكأنما تنبهت : —

إيه لا . لا . فؤاديَ رفقاً انظر الآن ما ترى عقبانا ؟
كل طاغٍ لمصر باغٍ عدوٌّ راح يعوي وكم دعى ذؤبانا
ان للحب غفلةً فتيقظ حق مصرٍ يفوق حق هوانا

(تسمع أصوات أبواق تطلق إذاً خارج البهو . يدخل أنطونيو متجهماً نحو الملكة)

أنطونيو [بلهفة] : كليوباترا ملاكي

كليوباترا وقد همت لاستقباله : أنطونيو حبيبي!

أنطونيو : قد هاج بي شوق اليك يهزني ... جم النوازع ثائر الصبوات
كم راح يهتف في الضلوع مدوياً ... أنت الحياة وضيئة البسمات
أغشى المعامع كالقضاء وهوله ... فاذا ذكرتك رفرفت عبراتي !

كليوباترا : حقّاً أتصدقني ؟

أنطونيو : وأقسم جاهداً ... اني أترجم صادقاً خفقاتي
لو شئت خضتُ النار أبسم هازئاً ... أو شئتِ بدلتُ الحياة مماتي

كليوباترا : ماذا أشاء .. ومن يصاول في الوغى بطعان جبارٍ وهزمة عات ؟

ويذود أعداءك إذا هم بيّتوا ... ومضت جحافلهم الى عتباتي
تغلي بنار الحقد هاج ضرامها ... حسدٌ تأجج في صدور عداتي
رب الكماة ومن تملك مهجتي ... أترى تحقق عالم الرغبات ؟

أنطونيو : فيك تمثل عذب أطياف المنى ... فتناً .. تهدهد حسنها خطراتي
فدعي حديث الحرب .. عندك ربها ... إن شب روع . . تلقه عزماتي
الحرب في عينيك . يا لأوارها ... أعيا إله الحرب . أين ثباتي !

(ينحني عليها مطوقاً)

كليوباترا متنهدة :

ويح الوشاة وويح ما يصفونه ... قد أكثروا من حولنا الشبهات
أزروا بقدس الحب فيما ثرثروا ... واستمرأت أحقادهم حرماتي
هل يعلمون بأنه الحب الذي ... يلقى عليك وأكتوى حرقاتي ؟
ماذا عليهم لو تدارك مكثرٌ ... فليكثروا . . ها أنت أنت حياتي

أنطونيو :

(يضمها مقبلاً)

تشريح الهر

Functional Anatomy of the Mammal. A Guide to the Dissection of the Cat and an Introduction to the Structural and Functional Relationship between the Cat and Man By Prof. W. James Leach.

London, McGraw-Hill Book Co. 1946. 12s. 6 d.

إن اختيار حيوان ثديي للتشريح يدلج أن يكون تشريحه مدخلا لعلم التشريح الانساني ودرس وظائف أعضائه ، قد اقتصر الى الآن على الارنب والفأر . ولكن الحيوانات القواضم : Rodents التي منها هذين ، أقل ملاءمة لهذا الغرض من الحيوان اللاحم Carnivore فان اللواحم أقل بدائية من القواضم ، وأقرب تركيباً من الانسان . لهذا نوه كثير من العلماء بظهور هذا الكتاب ليكون مدخلا لتشريح ذوات الثدي ، لاسيما وان الهر حيوان كثير الوجود ويسهل أن يحصل عليه المشرحون.

ولقد عقى المؤلف بعقد موازنات بين تشريح الهر والانسان وخصائصهما الوظائفية ، ووضع ملخصات مفيدة للطالبين . وعقد بحثاً في تأثير الوضع الجسمي على التكيف التركيبي وبخاصة فيما يتعلق باقتصاب القامة في الانسان ، توخى فيه سهولة العرض والاداء اذ استطاع أن يتخلص من استعمال كثير من المصطلحات اللفظية التي تحشى بها الكتب العلمية . ومن الفوائد التي لا تنكر في هذا الكتاب ملخصات وضعها المؤلف في وظائف الاعضاء وآلية العضلات وجراحتها ، وغير ذلك من الاشياء التي تحتاج إليها المرضات أو الاطباء المبتدئين.

وعطف المؤلف بعد ذلك على الجهازات المختلفة في الجسم ، وبحثها عملياً في هرر حفظت بالمخدرات ، وتدليل في بعض الدروس التي وجهت الى الكتاب أن المؤلف اذا كان قد اتخذ من صغار الهرر موضعاً لبحثه بدل الهرر البالغة ، لكان عمله أوفى ، فان أجزاءها الدقيقة تكون أبين ولو أنها أصغر حجما ، وإن هذا أظهر ما يكون في الجهاز العصبي السمبتوتي الذي يمكن استبانته بجلاء وسهولة بالنظر الى كبر حجم العقد وصفة الانسجة الغامقة اذ تكون ملامية القوام .

حافظ وشوقي

صدى الحوادث عند الشاعرين

مرّت بالشرق العربي والعالم الاسلامي عامةً ومصر خاصةً خلال الحقبة التي عاشها الشاعران أحداثٌ وحوادث كان لها أثرٌ قويٌ في قرائح الشعراء وقتذاك ، فانطلقوا يسجّلونها ، كلٌ على قدر طاقته ومواهبه ، وحسب الأثر الذي تركه كلٌ منها في نفوسهم ، فكانت قصائدهم صدى هذه الأحداث ومعرض هذه الحوادث . وكان لشاعرانا من المجلّين في هذه الحلبة .

لذلك نطوي السنين القهقرى حتى هذه الحقبة لنستمع إلى صدى هذه الأحداث والحوادث عند هذين الشاعرين ، ونرى كيف تصرّف كلٌ منهما فيها بفنّه ومدى توفيق كلٍّ منهما في هذا التصرف . فتبرز لنا في مقدمة هذه الحوادث والاحداث :

حادثة دنشواي

في ١٣ من يونيه سنة ١٩٠٦ وقعت هذه الحادثة حيث ذهب بعض الضباط والموظفين البريطانيين لصيد الحمام في هذه البلدة فأصابت رصاصةٌ من رصاصاتهم امرأة وحرقت جُرْناً فتجمع الأهلون غاضبين فاعتدى البريطانيون عليهم بأسلحتهم ، ولكن القوم حملوا عليهم بالطوب والعصيّ وانتزعت منهم أسلحتهم فجُرح بعضهم جروحاً خفيفة ، وفرّ منهم جريح وظلّ يعدو نحو المعسكر حتى أصابته ضربة الشمس بعيداً عن هذه البلدة . وثارت ثائرة الانجليز لهذه الحادثة فعقدوا محكمة عسكرية قضت على واحد وعشرين رجلاً بأحكام مختلفة أعدم منهم أربعة . وقد صدر هذا الحكم في ٢٧ من يونيه سنة ١٩٠٦ أي بعد الحادثة بأربعة عشر يوماً .

ولقد كان لهذا الحكم الوقع السيء في النفوس ، وأثار الزعيم المرحوم مصطفى كامل سخط العالم على هذا الحكم . وهبَّ بعض النواب الأحرار من البريطانيين يناقشون الحكومة في البرلمان من هذا العمل المنكر . وكانت حملة مصطفى كامل عاملاً قويًّا زعزع مركز كرومر فاستقال من منصبه بعد شهور .

تلك حادثة دنشواي التي يقول عنها الأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك إنها « من حوادث مصر التاريخية التي لا تنمحي على مرِّ السنين لما كان لها من الأثر البليغ في تطوُّر الحركة الوطنية وفي مركز الاحتلال الانجليزي ، فهي نهاية عهدٍ كان الاحتلال يتمتع فيه بالإستقرار والطمأنينة ، وبداية مرحلة جديدة من مراحل الجهاد القوميِّ عمَّ فيها الشعور الوطنيُّ بعد أن كان الظنُّ أن عواد الأمة راضٍ عن الاحتلال »[1] — هذه الحادثة وجدت في شعر حافظ صداها قبل أن تجده في شعر شوقي ، ولا ندري السبب الذي أخَّر شوقيًّا عن تناولها في وقتها ، ولعلَّ منصبه في القصر وصلته به كشاعر ربِّ القصر هما اللذان حالا دون تناوله هذا الحادث حتى حدث من كرومر ما حدث بعد ذلك من إهانته للمصريين والخديو اسماعيل في الخطبة التي ألقاها في الحفلة التي أقيمت توديعاً له . فرأى شوقي أن الجوَّ ملائم لتقول في هذه الحادثة بعد مرور عام عليها وذلك بقصيدة طلب العفو عن مجنانيها . وقد نشرت هذه القصيدة بجريدة « اللواء » في ٢٧ من يونيه سنة ١٩٠٧

أما حافظ فقد ردَّد ذكر هذه الحادثة في أكثر من قصيدة ، وكان أول ما نظمه فيها قصيدته الدالية التي نشرت في ٢ من يوليه سنة ١٩٠٦ أي بعد صدور الحكم بخمسة أيام ، وفيها يقول :

جاءَ جهّالنا بأمرٍ وجئتم ... بضعف ضعيفٍ قوةً واشتدادا
أحيوا القتلَ إن ضننتم بعفوٍ ... أقصاصاً أردتمُ أم كيادا ؟
أحيوا القتل إن ضننتم بعفوٍ ... أقهوماً أصبتمُ أم جمادا ؟
ليت شعري أتلك (محكمة التفتيش) عادت أم عهد (نيرون) عادا ؟
كيف يحلو من القويِّ التشفّي ... منْ ضعيفٍ ألقى اليه القيادا ؟

(١) كتاب « مصطفى كامل ، باعث الحركة الوطنية » للاستاذ عبد الرحمن الرافعي بك — ص ٢٠٠

إنها مُثْلَةٌ تشفُّ عن الغيـ ـظ ولسنا لفيظكم أندادا

وهذه القصيدة على ما فيها من السخرية التي أرادها في قوله :

وإذا أعوزتكمُ ذاتُ طوقٍ بين تلك الربا فصيدوا العبادا

إنما نحن والحمام سواءٌ لم تفادوا أطواقنا الأجيادا

لم تخلُ من حذر في توجيه الخطاب الى الانجليز ، وكان جديراً أن تكون قاسية كل القسوة لأن الشاعر كتبها بعد صدور الحكم وتفوس المصريين تغلي حقداً وكراهية ، فهو يبدأها بهذا البيت اللين الناعم حيث يقول :

أيها القائمون بالأمر فينا هل نسيتم ولاءنا والودادا ؟

ثم يقول فيها :

أكرمونا بأرضنا حيث كنتم إنما يكرم الجوادُ الجوادا

أمة النيل أكبرت أن تعادي من يرعاها وأهفقت أن تعادَى

في حين أنه تناول « المدعي العمومي » في هذه القضية ، وهو مصريٌّ ، بالنقد الجارح الشديد والتهكم اللاذع المرير . وكان المفتصبون الجناة أولى بمثل هذه القسوة والشدة في النقد والتجريح لأن تهكمه في أبياته التي قالها فيهم لينة وادعة بجانب قسوته على « المدعي العمومي » المصري . حيث قال فيه بعد أبيات لاذعة :

إيه يا مدّرَه القضاء وبامن عاد في غفلة الزمان وشادا

أنت جلاّدُنا فلا تنسَ أنّا قد لبسنا على يديك الحِدَادا

وفي قصيدة أخرى وجّه القول فيها إلى كرومر وأشار الى ما ادعاه البريطانيون على المصريين من أن السبب في حادثة دنشواي هو التعصب الديني من المسلمين في مصر فهو يدفع هذا بقوله :

إن أرهقوا صيّادكم فلطيم القوت لا للمسلمين تعصبوا

ولربما ضنّ الفقير بقوته وسخا بهجته على من يغضبُ

ثم يصف الشاعر هذه الحادثة في الأبيات التالية ، ويصور هول تنفيذ الحكم فيمن اتهموا تصويراً بلغ حد الروعة عمرٌ فيه قسوة الحكم الظالم المجرم في تاريخ الانسانية ، وما

أصاب المحكوم عليهم من حيرة وذهول أمام هذه القسوة فيقول :

في دنشواي وأنت عنا غائبٌ لعب القضاءُ بنا وعزّ المهرب
حسبوا النفوس من الحمام بديلةً فتسابقوا في صيدهنّ وصوّبوا
نُكبوا وأقفرت المنازل بعدهم لو كنتَ حاضر أمرهم لم يُنكبوا
خلّيتهم والقاصرون بمرصدٍ وصياطهم وحبالهم تتأهبُ

ثم يقول في لفتةٍ عجيبة وتصوير رائع :

جلدوا ولو مُنيتَهم لتعلّقوا بحبال من هُنقوا ولم يتهيّبوا
شُنقوا ولو مُنحوا الخيار لأهلوا بلظى سياط الجالدين ورحّبوا
يتعاضدون على الممات ، وكأسُهُ بين الشفاه وطعمه لا يعذُبُ
موتان : هذا عاجلٌ مستمرٌ يرنو ، وهذا آجلٌ يترقبُ
والمستشار مكانّ برجاله ومعاجزٌ ومناجزٌ ومحزّبُ
يختال في أعطافها متبسماً والدمع حول ركابه يتصببُ

* * *

هاتان قصيدتان من شعر حافظ تناولتا هذه الحادثة ، فأما الأولى فأسلوبها خطابيٌّ تقريريٌّ ، وأما الثانية فتصويريةٌ امتزج فيها الواقع بالخيال ... فلننظر في قصيدة شوقي التي نظمها بعد مرور العام عند طلب العفو عن سجناء هذه الحادثة . وذلك بعد أن استقال كرومر وعاد الى وطنه ، وفيها يقول :

يا (دنشوايَ) على رُبالكِ سلامُ ذهبتْ بأنس ربوعكِ الآيامُ
شهداءُ حكمكِ في البلاد تفرقوا هبات الشمل اتيقيت نظامُ
مرّت عليهم في الصعود أهلّةٌ ومضى عليهم في القيود العامُ
كيف الأرامل فيك بعد رجالها وبأي حالٍ أصبح الأيتامُ
عشرون بيتاً أقفرت وانتابها بعد البشاشة وحشةٌ وظلامُ
يا ليت شعري في البروج حمائمٌ أم في البروج منيّةٌ ورحام
(فيرون) لو أدركتَ عهد (كرومر) لعرفت كيف تنفذ الأحكامُ

ثم يلتفت الى فظائع الحكم في القضية يصوّر هوله فلم يقدّر له أن يبلغ روعة الصورة التي رسمها حافظ — مع قدرة شوقي التصويرية — ويبدو في قصيدة شوقي مدى التأثر بقصيدة حافظ البائية التي ذكرناها ... قال شوقي :

تُوحي حمائم دلشواي وروّعي هدباً بوادي النيل ليس ينام
إن نامت الأحياء حالت بينه سَحَراً وبين فراشه الأحلامُ
متوجعٌ يتململ اليوم الذي ضجّت لشدة هوله الأقدامُ
والمستشار الى الفظائع ناظرٌ تدمى جلودٌ حوله وعظامُ
في كل ناحيـــة وكل محلة جزعاً من الملإ الأسيف نزحامُ
وعلى وجوه الناكلين كآبةٌ وعلى وجوه الناكلات رَغامُ

تلك حادثة من الحوادث الكبيرة التي أثارت الشعور في مصر ، وأثارت الرأي العام في العالم ، وقد أثارت شاعرية حافظ ثم أثارت شاعرية شوقي . على أن الباحث المنصف يرى قدرة حافظ في تصوير هذه الحادثة فقد وفّق في إبراز صورته مكتملة لعناصر القوة والحركة على حين نجد صورة شوقي ينقصها ذلك ، وكما وُفّق حافظ في إبراز صورة هذه الحادثة فقد كان السبّاق الى تسجيلها والتأثر بها .

وداع كرومر

وفي ابريل سنة ١٩٠٧ استقال اللورد كرومر من منصبه فودّعه الشاعران بقصيدتين ، فأما قصيدة حافظ فهي عندي أقرب الى المقال الصحفي يريد كاتبه أن يجعل من نفسه مؤرخاً ، يعرض شتى الآراء ، وكذلك شاء حافظ أن يحمّل الشعر في هذا الظرف هذه المهمة ، فكان في هذا مسجّلاً فاته الشعور كما أخطأه الإحساس الوطنيّ ، فهو بعد أن يذكر لكرومر ما يراه من فضل ، قائلاً إننا لسنا « أمة تجحد اليدا » يعود الى ذكر أقوال المهاجمين لسياسة كرومر ويختم قصيدته بهذه الأبيات :

فهذا حديث الناس والناس ألسُنٌ إذا قال هذا ، صاح ذاك مفنّدا
ولو كنتُ من أهل السياسة بينهم لسجّلتُ لي رأياً وبُحتُ بمقصدا

ولكنني في معرض القول هاسٌ أضاف الى التاريخ قولاً مخلّدا
فيأيها الشيخ الجليل تحيّةً ويأيها القصر المشيف تجلّدا
ائن غاب هذا الليث عنك لطالما لقد لبثت آثاره فيك هُجّدا

وأما قصيدة شوقي فهي أقرب الى روح الشعر وكانت غضبة على كرومر للموقف الذي وقفه في حفلة وداعه وتحكّمه على أهل هذا البلد وإهانته للخديو اسماعيل بدون أن يراعي شيئاً من المجاملة لابنه الذي حضر حفلة التوديع وهو الأمير — السلطان فيما بعد — حسين كامل . ولذلك نرى أن قصيدة شوقي قصيدة العاطفة بينما نرى قصيدة حافظ أقرب الى الصناعة . وليس أدلّ على شدة السخط عند شوقي من هذا البيت في قصيدته الذي يظهرنا على أنه كان مساقاً بعاطفته:

لما رحلت عن البلاد تشهدت فكأنك الداءُ العياءُ وحيلا

على حين قال حافظ في تخاذل عجيب يخاطب كرومر بهذه الأبيات :

أيمنّا فلم يصلك بنا الخوف مسلكاً وهدا فلم يطرق لنا الدّهرُ مرقدا
وكنتَ رحيم القلب تحمي ضعيفنا وتدفع عنا حادث الدهر إن عدا
ولولا أسيٌ في دلشواي ولوعةٌ وفاجعةٌ أدمتْ قلوباً وأكبُدا
ورمشيكَ هيماً بالتعصب غافلاً وتصويرك الشرقيّ غرّاً مجرّدا
لذُبنا أسًى يوم الوداع لأننا نرى فيك ذاك المصلح المتودّدا

على أن شوقيًا كان منصفاً للتاريخ القوميّ حين ردّ على كرومر بأنه إذا فاخر بشيء من العمل في سبيل تقدّم هذا البلد فان هذا البلد لم يعدم وسائل الإصلاح في عهد محمد علي وفي عهد اسماعيل قبل ان يصاب الوطن بالاحتلال الانجليزي . في حين أغفل ذلك حافظ. ويظهر ان حافظاً أحسّ أن قصيدته هذه قد فقدت عنصر الشعور الوطني الصريح، فلمّح في قصائد أخرى بعد ذلك الى مساوىء العهد الراحل ولم يجعل عرض هذه المساوىء منسوباً الى آخرين كما حاول ذلك في قصيدته التي ذكرنا شيئاً منها ، بل عرض هو هذه المساوىء بإحساسه ورأيه . ونحن لا نستطيع تعليل مسلك حافظ في هذا الموقف مع إنه لم يكن مقيداً بشيء

ومهما يكن من شيء فإن هذا الحادث لم يجد فيه الفنّ الشعريّ عند الشاعرين أثراً

يمتدُّ به الاعتداد الذي يجده في أشعارها في حوادث أخرى . فلننظر في شيء آخر من الاحداث التي لقيت من فيض قريحتيهما ما هو جديرٌ بالخلود والبقاء .

وفاة مصطفى كامل

في ١١ من فبراير ١٩٠٨ خفق قلب مصر خفقة الجزع لمصاب البلاد في وفاة زعيمها الشاب مصطفى كامل باشا الذي بعث الحركة الوطنية في هذه البلاد بعد خمود ، وأيقظ الجهاد في النفوس بعد طول هجود ، وأقضَّ مضجع الغاصب وكان قد اطمأنَّ الى أن العزم في نفوس المصريين قد فتر ، وان روح الكفاح فيهم قد همدت ، وان شعب وادي النيل قد استكان الى حالته ، حتى شاءت عناية الله بكنانته أن يستيقظ هذا الشعب — الذي شيب الزمان ولم يشب — على صوت جمع كل معاني القوة والفتوة ومضاء العزم ونزاهة القلب والضمير واليد واللسان في إهاب شابٍّ هو الفصلة المتقدة ، تخفق لصدى صوته كلُّ قلب ، وتحرك لندائه أبناء الوادي مستيقظين كما يستيقظ على ضوء الصباح كل حي .

ولكن هذه الشعلة من الوطنية التي كانت تحترق لتضيء الطريق لصابرين لم ترحم نفسها في بلوغ هدفها ، فكان مصطفى لا يسمع نداء غير نداء وطنه ، ولم يستجب لنداء الجسد في حقه من الراحة لانه لم يعرف الاستسلام واليأس . وهو الذي علم أبناء الوادي أن لا حياة مع اليأس وان لا يأس مع الحياة .

لذلك كان صوت هذا الزعيم الشاب خطباً جسيماً روّعت له البلاد واصطكت لهوله الأسماع ووجفت القلوب ، واهتزت المشاعر فتدفقت قرائح الشعراء في رثائه ، ولا عجب فقد أحيا الشعر في البلاد .

وقد برزت من مراثي الشعراء فيه — يومذاك — قصيدة شوقي التي يقول في مطلعها :

المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما في مأتمٍ والدّاني

وهذه القصيدة من عيون شعر الرثاء عند شوقي ، وقد صوّر فيها في دقة تامة إحساسه المتفجع في فقد صديق الصبا والشباب ، وصوّر آخر لقاء وإياه وهو يعوده في مرضه الاخير تصوير الأخ المفجوع في أخ عزيز . ولكن هذه القصيدة على دقة الإحساس فيها تخلو

من تناول حياة الفقيد السياسية تناولاً يجعلها صورة الراحل . فهي من هذه الوجهة يمكن أن يقال إنها مرثية لصديق عاديّ ، ولم يكن مصطفى بالمجرد العاديّ في الناحية التي لمع فيها اسمه ، وهي الوطنية المتأججة .

كان على شوقي أن يصور هذا الجانب في الفقيد وأن يجلوها كل الجلاء لتكون الصورة واضحة المعالم عن سياسي كانت حياته كلها جهاداً وكفاحاً وإخلاصاً لراية الغاصب وإشعالاً لنار الوطنية في النفوس ، وتطرّفاً في هذه الوطنية .

وكان على شوقي — وقد زامل الفقيد في مراحل نموّه — أن يصوّر هذا الشعور الوطنيّ وهو ينمو مع صديقه حتى بلغ به هذا الحدّ من العظمة واسترعى أنظار الناس إليه ليس في مصر حسب ، وانما في شتى بلاد العالم .

كان عليه أن يتناول هذا الجانب من حياة الفقيد في مرثيته ، ولكنه على الضدّ من ذلك كان حذراً في مسّ هذا الجانب ، ما يكاد يقرب منه حتى يبعد عنه ، وما يكاد الموقف يجرّه الى ذكر ذلك حتى يعود أسرع ما يكون الى التخلص من هذا الخاطر ، فهو حين يقول :

هل قام قبلك في المدائن فاتحٌ فاز بغير مهنّدٍ وسنان ؟

يخيّل لمن يسمعه أنه سينتقل الى جهاد هذا البطل الذي أيقظ في نفوس أبناء الوادي روح الوطنية وأثار عزيمتهم للكفاح والجلاد ، وكانت خطبه ومقالاته وصحفه مدرسة للوطنية يتخرج فيها شباب الأمة وقد عرفوا معنى الحياة ، وان الشاعر سيذكر كل ذلك صريحاً واضحاً . ولكن لا يلبث السامع أو القارئ أن يجد الشاعر يقول بعد هذا البيت :

يدعو الى العلم الشريف وعنده إن العلوم دعائم العمران

وبذلك يتخلص من شعب السياسة قبل أن يقوده الى ذكر شيء من ذلك في المرثية ، وينتقل فيتكلم في نواحٍ أخرى من حياة الفقيد حتى تقوده العاطفة المتقدة مرة أخرى الى غير ما يقصد فيقول :

عوفيتَ من حَرَب الحياة وحربها فهل استرحتَ أم استراح الفاني

يا صاحبَ مصر ويا شهيد غرامها هذا ثرى مصر فضمّ بأمان

اخلع على مصر شبابك عالياً والبس شباب الخلد والولدان

فلعلّ مصراً من عبابك ترتدي عجلاً تنيهُ به على البلدان
فلو انّ بالطرمين من عزماته بعض المضاء تحرّك الطرمان
علّمتَ عيدان المدائن والقرى كيف الحياة تكون في الثيران

وهنا يتوقع السامع أن يجد الشاعر قد اقترب من أبرز النواحي في حياة مصطفى كامل — ناحية الوطنية التي لا تعرف المهادنة أو المسالمة في تلك البقعة أو الحركة التي أفضت مضجع الغاصب وزعزعت سلطان عميد بعد حادثة دنشواي ، وأنّ الشاعر سيضرب على الوتر الحساس في هذه الناحية ، ولكن شوقياً ينوب من هذه العاطفة التي تسوقه الى ما لا يقصد فيتنبه ، ويبتعد عن هذا ويقول ليختم المرثية :

مصر الأسيفة ريفها وصعيدها قبرٌ أبرُّ على عظامك حانِ
أقسمتُ أنك في التراب طهارةٌ ملكٌ يهاب سؤاله الملكانِ

ولعلّ سبب هذا الحذر مركز الشاعر من القصر — كما قلنا عند الكلام على موقفه من حادثة دنشواي — ومراعاته لظروف خاصة هي أنّ العلاقة القوية التي كانت بين الخديو ومصطفى كامل والتأييد الذي كانت تلقاه الحركة الوطنية من محمد قد اعترتها في السنوات الأخيرة من حياة مصطفى شيء من التفتور فالجفاء ، فكان على شوقي أن يكون حذراً في الرثاء فلا يظهر شعوره في هذه الناحية لتفقد الزعيم الوطني وإنْ أظهر شعوره بالألم والتفجع لموت الصديق الذي كان يهتف بقصائده ويجلّ فوق النيرات مكانه — على حدّ تعبيره — وقد صوّر شوقي في أبياته التالية مشهداً رائعاً لتفقيد في مرضه حيث يقول :

ولثت نظرتك والردى بك محدقٌ والداء ملءُ معالم الجثمانِ
يبغي ويطغى والطبيب مضلّلٌ قنطٌ وساعات الرحيل دواني
ونواظر العوّاد عنك أمالها دمعٌ تعالج كتمه وتعاني
تملي وتكتب والمفاعل جمّةٌ ويداك في القرطاس ترتجفانِ
فهششتَ لي حتى كأنك عائدي وأنا الذي هدّ السقامُ كياني
ورأيتُ كيف تموت آساد الشرى وعرفتُ كيف مصارع الشجعانِ
ووجدتُ في ذاك الخيال عزاءنا ما للمنون بدكّهنّ يدانِ

وجعلتَ تسألني الرثاءَ فهاكه من أدمعي ومرائري وجَناني

فإذا كانت الظروف هي التي دعت شوقيًّا إلى أن يكون حَذِراً في رثاء مصطفى برمذاك فإننا نرى بعد ذلك كيف وفّى شوقي حقّ صديقه الزعيم الوطني بعد أن خلص من قيود الوظيفة وأغلال الظروف .

فقد انتهز شوقي فرصة الذكرى السابعة عشرة للتقييد — أي في سنة ١٩٢٤ — وكانت البلاد قد تفرقت شيعاً وذبّ في النفوس ذبيب التنافر والخُلف فقال شوقي

إلامَ الخُلْفُ بينكمُ إلاما ؟ ! وهذي الضجّةُ الكبرى علاما ؟!

وهذه القصيدة من أروع قصائد شوقي ، وهي الدليل على امتلاكه ناصية القول والتعبير عن آمال المصريين من حافظ في الدور الأخير من حياتيهما ، أو على الأصح بعد عودة شوقي من منفاه في سنة ١٩٢١ واستكانة حافظ الى قيده وصمته .

فلقد صوّر شوقي في هذه القصيدة العيوب التي وقع فيها القادة ودعت الى تأخير قضية الوطن .

* * *

والى جانب هذا التصوير أحسّ شوقي بأن الأسباب التي حالت بينه وبين الوفاء بحق صديقه الزعيم الوطني مصطفى قد زالت فصوّره في هذه القصيدة أروع صورة ، صوّره غير حذِرٍ ولا متقيد بظروف فاستطاع أن يعطي الصورة الصادقة عن أبرز ناحية في حياة مصطفى ، وهي التي لم يصوّرها في مرثيته قبل سبعة عشر عاماً . . . قال — وهذا ما يعنينا من هذه القصيدة الآن :

شهيدَ الحق قم تَرَهُ بتيما بأرضٍ ضيّعت فيها اليتامى
أقام على الشفاه بها غريباً وسرّ على القلوب فما أقاما
سقيتَ فلم تبت نفسٌ بخير كأن بمهجة الوطن السقاما
ولم أرَ مثل نعشك إذ تهادى فعلى الأرض وانتظم الانام
تحمّل همةً ، وأقلّ ديناً وضمّ مروءةً وحوى زماما

وما أنساك في العشرين لما ... طلعت حياتها قرآ تماما
يشار اليك في النادي وترمى ... بعيني من أحبّ ومن تعامى
إذا جئت المنابر كنت قسًّا ... اذا هو في عكاظ علا السناما
وأنت ألدّ للحق اهتزازاً ... وألطف حين تنطقه ابتساما
وتحمل من أديم الحق وجهاً ... صراحاً ليس يتخذ اللثاما

* * *

تلك سورة صادقة لوطنية مصطفى ونبوغه ، وهذي صورة لجهاده يرسمها شوقي في هذه القصيدة أيضاً :

أتذكر قبل هذا الجيل جيلاً ... سهرنا من معلمهم ونانا ؟
يهارُ الحق بغّضنا اليهم ... هكيمَ القيصرية والمجاما
نواؤك كان يسقيهم بجامٍ ... وكان الشعر بين يديّ جاما
من الوطنية امتبقوا رحيقاً ... فضضنا عن معتقها الختاما
غرسنا كرْمها فزكا أصولاً ... بكل قرارةٍ وزكا مداما
جمعتهمو على فيراث صوتٍ ... كنفخ الصُّور حرّك الرجاما
لك الخُطب التي غصّ الأعادي ... بسوْرتها وساغت للنُّدامى
فكانت في مرارتها زئيراً ... وكانت في حلاوتها بُغاما
بك الوطنية اعتدلت وكانت ... حديثاً من خرافةَ أو منامًا
بنيتَ قضية الأوطان منها ... وصيّرت الجلاءَ لها دعامًا
هززتَ بني الزمان به صبيًّا ... ورُعتَ به بني الدنيا غلامًا

* * *

وفي سنة ١٩٢٦ نظم شوقي قصيدة ثالثة في مصطفى هي خواطر أوحتها اليه ذكراه . ويمكن أن يُقال إنها رد على قصيدته السابقة التي تناول فيها خلاف الأحزاب . فقد نظم قصيدته بعد إذ كان الصفاء قد عاد الى النفوس ، وتناسى الزعماء خلافاتهم ، وعادوا

أحقادهم ، واجتمعت كلمتهم ، وتآلفت أحزابهم صفًّا واحداً . فهو يتذكر في هذه الآونة مصطفى ويقول :

أضيعَ الحقّ ذائدٌ والى « مصطفى » افتقرْ

ويخاطب أهل وطنه قائلاً :

أيها القوم عظّموا وامنعوا الأمّ والحجرْ
اذكروا الخطبة التي هي من آيهِ الكُبرْ
لم يرَ الناس قبلها منبراً تحت مختضِر

ويلتفت الى زميل صباه فيقول :

يا أخا النفس في الصبا لذةُ الروح في الصغر

ويهتف به بعد أبيات :

قم ترَ القوم كتلةً مثل ملمومة العشَرْ
جدّدوا ألفة الهوى والإخاء الذي غطر
ليس للخلف بينهم أو لأسبابه أثر . . .

* * *

تلك مراثي شوقي في مصطفى . . . تبلغ المرثية الثانية منها حدّ الإبداع لأنها صورة حقيقية لذلك الزعيم ، أطلق فيها الشاعر نفسه على سجيتها ، ولم يتقيد فيها بشيء . ولولا ذلك التنبه والحذر اللذان أخذ نفسه بهما في مرثيته الأولى لارتفعت الى مرتبة المرثية الثانية أو فاقتها ، ولجمع فيها الى التفجع الأليم وصدق الاحساس مطابقة الصورة لصاحبها ، ولكان لها الى جانب روعتها في صدق الشعور جانبُ روعة الصدق في التصوير ، ولكنها فقدت هذا الجانب وخلت منه ففقدت أهمَّ جانب من رسالة مصطفى التي اشتهر بها وعاش لها ومات من أجلها ، وهو الجانب الذي يلتمسه الباحث الناقد عند الشاعر في تلك المرثية فيعز عليه .

حسن كامل الصيرفي

باب المراسلة والمناظرة

رد على نقد

كتب الأستاذ الفاضل رشيد السعد (القورنة — العراق) بالعدد السابق من المقتطف كلمة نقد رقيقة عن هفوة عروضية في قصيدتي « فراق » المنشورة بمقتطف يوليو هذا العام وقعت في البيت :

(من رآى ... هول هذا المنظر الداجي مطبقا)

وأجيب أن الأمر خطأ مطبعي فقد صححتُ بنفسي « بروتة » تجارب الطبع وكان البيت هكذا :

من رآى ... يا هول هذا المنظر الداجي... مطبقا !!

* * *

وبعد صدور العدد راجعتُ ادارة المقتطف في هذا الأمر ومن حسن المصادفة كنت قد احتفظت بنسخة من تلك التجارب قبل أن تسقط من البيت « يا » فاعتذر رئيس المطبعة بسقوطها عند الطبع ولكن أُغفل التنويه عن ذلك وكان واجباً. على إني أشكر هذه الفرصة التي أتاحت لي الاتصال بالأستاذ رشيد الصال روح بروح وإنه ليسرنا هذا الاهتمام النبيل الذي يبدو من القراء الأفاضل في مختلف أقطار العالم العربي حتى لنحس وكأننا عصبة واحدة قد اجتمعت على رفع شأن اللغة العربية والأدب العربي رغم تنائي الديار. وإني لأشكر للاستاذ رشيد حسن تقديره وجميل تعبيره ولعله لا يحرمنا اهتمامه في المستقبل والسلام

المخلص

محمد فهمي — القاهرة

مكتبة المقتطف

المسند

تطبعه دار المعارف بالقاهرة في أجزاء متتالية : وقد صدر منه ثلاثة أجزاء

أصدق الأستاذ أحمد محمد شاكر العالم النبيل ، يد على أدبنا الديني وتراثنا الأدبي لا تنكر. فقد عمل منذ أن هب عن طرق التعلم على نشر الكتب القديمة بعد مدارستها والإكباب عليها والتوفر على الكشف عن مواضع الخطأ فيها ، حتى لقد أصبح كتاب يحققه الأستاذ من المراجع التي يوثق بها . وآخر أثر من هذه الآثار الأدبية الرائعة الطبعة الجديدة من كتاب المسند في الحديث للعلامة أحمد بن محمد بن حنبل إمام الإسلام ومثله الأعلى في صدر الإسلام

ولقد قدم الأستاذ لهذه الطبعة الفريدة بمقدمة مستفيضة شرح فيها الأسلوب الذي اتجاه في تحقيق الأحاديث ، وأبان عن الطريقة التي انتحاها في وضع فهارسه ، وقد مكث أياماً طوالاً يضع خطط العمل ومناهجه ، ويغير فيها ويبدل ، حتى استقامت له السبيل ووضح النهج واستنار ، فشرع في العمل » . قال :

« وجعلت لأحاديث الكتاب أرقاماً متتابعة من أول الكتاب الى آخره ، وجعلت هذه الأرقام كالأعلام للأحاديث ، بنيت عليها الفهارس التي ابتكرتها كلها » .

أما الفهارس المطبوعة فهي : (١) فهرس للصحابة رواة الأحاديث رتب على حروف المعجم : (٢) فهرس الجرح والتعديل : (٣) فهرس للأعلام : (٤) فهرس الأماكن : (٥) فهرس لغريب الحديث .

أما الفهارس العلمية فهي الأصل لهذا العمل العظيم. وقد بنيت هذه الفهارس على الأرقام التي رقم بها الأستاذ الأحاديث ، وهي أرقام مسلسلة تجعل العثور على الحديث سهل هين حتى ولو تعددت طبعات الكتاب فيما بعد . قال محقق المسند حفظه الله :

« وأرجو أن يكون عملي هذا محققاً لكلمة الإمام أحمد لابنه عبد الله : « احتفظ بهذا المسند ، فإنه سيكون للناس إماماً » . وهي الكلمة التي رواها ابن الجوزي في مناقب احمد

ص ١٩١ وجعلناها في صدر هذا الكتاب عنواناً له » .

قال : « وقد قال الحافظ الذهبي ، فيما رواه عنه الحافظ شمس الدين بن الجزري في كتاب « المسعد لأحمد » : « فلعلّ الله تبارك وتعالى أن يقيضَ لهذا الديوان السامي من يخدمه ويبوّب عليه . ويتكلم على رجاله ، ويرتب هيئته ووضعه ، فانه محتوٍ على أكثر الحديث النبوي ، وقلّ ان يثبت حديث إلاّ وهو فيه » .

على أن في صدور هذه الطبعة من المسند لفرصة انتهزها للكلام في بعض أشياء تتعلق بالأحاديث الاسلامية . ولكن المقام هنا قد يطول . فإن الكلام في هذا الباب يتناول نواحي شتى من التاريخ والاجتماع ، ولا بدّ من أن يرجع الى آراء بعض المؤرخين والجمّاث من المستشرقين الذين كتبوا في الاسلاميات . بيد ان هذا لا يحول دون أن نستطلع رأي الأستاذ هاكر في أمرين استخلصتهما من اكبابي على درس ما تناول المستشرقون من بحوث في الحديث : الأول هو تعريف طبقات الأحاديث ، والثاني تاريخ القصّاص .

ففي كتاب الأستاذ جيلبوم عن الحديث وأدب الحديث المطبوع في مطبعة جامعة أكسفورد سنة ١٩٢٤ تعريف كامل عن طبقات الأحاديث امتنحها على ما يظهر من جملة ما استوعب من تاريخ نشوء علم الحديث ، وهي عنده مصنفة كالآتي .

(١) الصحيح (٢) المسند : وهو الحديث الذي ينقله ثقات عن النبي مباشرةً (٣) المتصل الذي لا اضطراب في سنده ، فاذا لم تتصل روايته بالنبي فهو معلق (٤) المرفوع : وهو الذي يرجع به الى النبي : فهو إما متصل أو معلق (٥) المعنعَن : مسنود بكلمة « عن » بدلاً من أن يكون النقل بالذات (٦) المعلق : ينقص سنده حلقة أو أكثر من الرواة ، فاذا كانت الحلقة (أي الاسم) ناقصة من وسط السلسلة فهو منقطع ، واذا كانت من النهاية فهو مرسل (٧) الفرد : الذي روى في مكان واحد بعينه أو نقل عن واحد لا أكثر ، فيعتبر ضعيفاً (٨) المدرج ، الذي يكون قد أقحم في سنده اسم واحد من أوالي الرواة (٩) المشهور : القائم الذي نقله رواة كثيرون (١٠) الغريب : الذي يرجع الى نقلة واحد أو راوٍ واحد (١١) العزيز : الذي يرويه اثنان أو ثلاثة لا أكثر (١٢) المصحف : الذي اضطربت عبارته إما لذكر اسم شخص ما في سنده أو لاختلاف في نصه (١٣) المسلسل : يرتد سنده الى النبي وفيه يقال « سمعت » كذا وكذا (١٤) الضعيف (١٥) الموقوف : لا يتصل سنده بالنبي ، فينقصه شرط من شروط الصحة (١٦) المقطوع : مصدره الصحابة ، فيروي شيئاً من أقوالهم وأعمالهم (١٧) المرسل : منقول عن الصحابة عن النبي (١٨) المنقطع : الذي تنقصه حلقة في السند (١٩) المعدل : الذي ينقصه اسم أو أكثر في السند : كقولهم عن

مالك أو محمداً قال (٢٠) الشاذ : الذي يناقض حديثاً آخر صحيح السند (٢١) المنكر: حديث ضعيف ويناقض حديثاً صحيحاً ، (٢٢) المعلل : فيه غلطة مستنكرة تدرك بالتأمل أو فيه اضطراب (٢٣) المدلس : فيه غلطة مستترة إما بإدعاء صلة منتحلة بين رواته ، أو أن أحد الأسماء الواردة في روايته قد قُنِّع عمداً بذكر كنية (٢٤) المضطرب : الذي لا يتفق نصه مع حديث آخر (٢٥) المقلوب : حديث يعرف أنه روي عن شخص غير الشخص الذي تنسب اليه روايته (٢٦) الموضوع : المنقول بحيث يختلف فيه الرأي بين انه صحيح وانه منتحل (٢٧) الحسن : الذي تتوسط مرتبته بين الصحيح والضعيف .

على هذا التصنيف جرى جلة المؤلفين من رجال الغرب ، فهل للاستاذ الفاضل أن يزوّدنا بعلم من لدنه في هذا المجرى التاريخي ، وان ينقد منه ما يستحق النقد وان يثبت منه ما يستحق الاثبات .

ويروي بعض المؤرخين منهم روايات عن القصاص ينقلونها عن أدب المسلمين وتاريخهم وقد يستدل منها على ان أمر الحديث كان قد هان على كثير من الفئات في ذلك الزمن حتى اتخذ صبيلاً الى الكيد السياسي أو الى التجارة المرذولة .

فقد روي ان الشاعر كلثوم بن عمرو العتّابي الذي عاش في عصر الرشيد والمأمون ، قد جمع من حوله في مسجد ببغداد جماً من الناس وروى لهم حديثاً زعم انه حديث صحيح ومحصله : أنّ الذي في مستطاعه أن يلمس أرنبة أنفه بطرف لسانه ، ينج بأذن الله جهنم لن تمسه . وما كاد يفرغ من روايته حتى أخرج الجميع ألسنتهم ليمتحنوا في أنفسهم : أتنطبق على أحد منهم علامة النجاة الذين قدر لهم أن يدخلوا الفردوس ؟

وكذلك روى أن قاصًّا من هؤلاء كان يتفق وآخر من شيعته ، فيقف أحدهما بباب هارع ويقف صاحبه بالباب الآخر ، فيروي أحدهما أحاديث تشيد بعليّ ، ويروي الآخر أحاديث تشيد بأبي بكر ، حتى إذا انتهيا وجما من الصدقات ما تجود به أكف المؤمنين ، التقيا في ناحية واقتسما ربحهما آمنين .

فهل للأستاذ المحقق أن يزوّدنا بشيء من هذا التاريخ أو يحقق لنا شيئاً من صحة هذه الروايات إثباتاً أو نفياً ؟ على أن هنالك من الكتب الواردة على رواية الحديث ما لا يتفق والعقيدة السائدة ، فيها ينبغي على علمائنا ومؤرخينا أن يفحصوا عنها ويجلوها خدمةً للاسلام والمسلمين .

وختاماً لهذا البحث ننقل هنا ، تعريفاً بقيمة هذا العمل العلمي ، شيئاً من كتاب « مرشد المتعلم » تأليف سير جون أدمز وترجمة الأستاذ محمد احمد الغمراوي ، وذلك من فصل اضافي بقلم المترجم : قال :

« أما الحديث فلا نعرف أحداً وضع له مفتاحاً بالمعنى السابق إلا المستشرق فنسنك في أجزاء جاءت الى دار الكتب قريباً ، وله فهرس بالافرنجية أتم من هذا ، لانه يدلك على الاحاديث المتعلقة بالموضوع الواحد بدلاً من أن يدلك على الاحاديث الوارد منها لفظ من الالفاظ . ولا نعرف من المسلمين مشتغلاً بوضع شيء يشبهه إلا القاضي المحدث أحمد محمد شاكر ، فانه يعمل من زمن في وضع فهرس لمسند الإمام احمد ، رجو له في إتمامه تمام التوفيق

١ — زقاق المدق

للاستاذ نجيب محفوظ — لجنة النشر للجامعيين

طالما ساءلت نفسي والحسرة تملأها كلما رأيت التجديد يأتي على أحيائنا الوطنية فيتأ فشيئاً .. ترى هل تُطمس معالم هذا التاريخ الحافل قبل أن يُطلق الفنان الذي يخلدها إلى الأبد ؟؟! نعم لقد أخرج توفيق الحكيم في هذا اللون معجزته عودة الروح . ولكنها وحدها لا تكفي . فضلاً عن أن توفيق قد انحرف عن هذا اللون منذ بعيد . وأخيراً وقع في يدي كتاب خان الخليلي للمؤلف فتناولته متكاسلاً عديم الثقة في أن أقرأ فيتأ يوني وبدأت أقرأ . . . وتوالت الساعات وأنا لا أدري فقد نسيتُ نفسي لقد استغرقني ما أقرأ وهاتفي ما أرى وهارکت هؤلاء الناس وشاطرتهم بؤسهم ونعيمهم وبست قليلاً لحظهم القليل من السرور وتألمت كثيراً لنصيبهم الكثير من الآلام . . . ولا زلت أذكرهم وأحن اليهم كأنهم قوم عشت بينهم حقباً أو تربطني بهم أواصر القربى . . . لقد استطاع نجيب محفوظ أن يجعلني أحب هذه الأحياء الوطنية التي كانت تتقزز منها نفسي وأن أستروح مناظرها تلك التي كنت أنفر منها قبل أن تكشف لي يد الفنان عما وراءها من أسرار . . . هكذا كان شعوري عند ما قرأت قصته خان الخليلي وهو نفس شعوري عندما قرأت قصته الأخيرة زقاق المدق .

اني أقرظها قولا صريحة وأنا لا أربطني صلة شخصية بهذا الأديب وأعلن اليوم وحتومن على قولي الأجيال القادمة . لقد خُلق لنا أدب قصصي في مستوى الأدب الروسي الذي استرعى أنظار العالم بفضل دستوفسكي وتشيكوف وترجنيف ؛ وسيقف أدب القصة عندنا بين الآداب العالمية سامقاً يفيض قوةً وحياةً ونبضاً . . .

إنك مع نجيب محفوظ لا تقرأ قصة بل أكثر من هذا . . انك تشاهد وتعاشر وتشارك أشخاصاً وكأنهم في عالم الحقيقة أمامك يضطربون بل في صميم الحياة بلحمهم ودمهم بملامحهم المميزة الواضحة بهمومهم وآمالهم بمثالبهم وفضائلهم حتى أصحاب العاهات والشريرين تشعر نحوهم بعطف لا يقل عما تشعر به نحو اصحاب الفضائل من هؤلاء القوم ...

كم أنا مشتاق الى هذه الفتاة التي لا أخطئها وأنا أسير في شوارع الغورية والأزهر ، إني أراها أمامي كما وصفها المؤلف وأعلم عما تخفيه عني في حنايا نفسها من خير وشر فتفسد جلا ذلك كله نجيب وكشفه أمام عيني . وعجبي الخلو الخلاق ذلك الثواب الذي هو صورة حديثة للطابع الأخلاقي القديم طابع القناعة والرضى والحب والتعلق بالحي والعشيرة رغم ما يقاسيه من قلة في الرزق، ولكن لا عليه.. ما دام يجد صديقاً يخلص له مثل كامل صانع البسبوسة وخلان قهوة المعلم كرشة بالزقاق يسمر معهم كل مساء .

والشيخ رضوان التقي الورع والسيد علوان القرمي صاحب الوكالة الذي شاء المؤلف أوشاءت قرائن الخلق الفني التي سيطرت على القصة ان تبتر مسراته بقسوة بعد ان كدنا نستروح معه كثيراً من راحة الحياة ولينها وكأنها الواحة الوارفة الظليلة واه لما يلفت النظر ان الاستاذ نجيب لا يترك في قصصه مثل هذه الشخصيات تنعم بما هي فيه من رغد بل لعل لعنة الحياة لا تحل إلا بهم وكأنما لكي يعيد المؤلف التوازن الى القصة لا بد لأمثالهم من كارثة! ان الغريب الشاذ في شخصيات نجيب ان يستمتع شخص ما بالسعادة والهناءة فمثل هذا الشخص يثير غيظي له في حبل المسرات لكي يبتره بعد ذلك بتراً قاسياً عنيفاً، ان بين نجيب وبين هؤلاء عداء عجيباً . لا أدري مبعثه في نفسه . انه يعاملهم بقسوة حتى أن بوارق الهناءة التي تلوح أحياناً في قصصه لا تستطيع أبداً ان تبدد ما يكتنف جوها من صرامة وقتام . وان أحق ما توصف به قصص نجيب أنها قصص قاتمة حتى أننا لم نسمع في سهرات قهوة المعلم كرشة هيثاً من «النكت» المرحة مما اشتهر به أبناء البلد ، اللهم إلا بعض نكتٍ صارمة ! وذلك اللون القني القاتم يبدو أيضاً في لوحات بعض الرسامين المصريين العصاميين أمثال حسين بدوي ودرويش ولا بد لهذا من علاقة بحياتهم وبيئتهم .

أما المعلم كرشة وزوجته فهما الصورة الحقيقية التي لا «رتوش» فيها لحياة هذه الطبقة من أبناء البلد وكذا إنهما حسين الشرس، فقط.. ان هنود المعلم كرشة يبدو غريباً عليه بعض الشيء ولربما لو كان أصيب به كامل صانع البسبوسة مثلاً ثم تطور عنده الى استلطاف بعد تضخم جسمه لأضاع هذا في القصة جواً غير قليل من المرح والفكاهة هي في أشد الحاجة إليه

أما نهاية القصة فلعل المؤلف كان يريد أن يشرك حسين الشرس في المعركة، ولكن حالت دون ذلك بعض الاعتبارات !! والحق أن عدم إشراكه في المعركة كان غير طبيعي وهو الشيء الوحيد في القصة كلها تقريباً الذي لم يتسع منطق التحليل والملابسات وقد يكون المؤلف رأى أن اشراك حسين في المعركة وتجدته قرميله يستتبعان حتماً القبض عليه . ومعنى هذا أن الزقاق يفقر من شبانه بعد أن أفقر من فتاته الوحيدة ، ومعنى هذا أيضاً أن القصة

تحمل اللعنة على الرقاق وهذا ما لا يقبله نجيب لرقاقه المحبوب !

إن صدق التصوير ودقة الوصف وعمق التحليل هي ما يمتاز به فن نجيب محفوظ وإن روح المؤلف وسيطرته على أشخاصه وتحريكهم لا تفتر أبداً لحظة من اللحظات طوال القصة التي تستغرق حوالي الثلاثمائة صفحة فضلاً عن التوافق والانسجام بين جميع أجزاء العمل الفني. وليس هذا على أديب بالشيء القليل وإنه لي أدبنا لفضل جزيل

ثمر فرعي

٢ — الوعي الجديد

للاستاذ حسين دياب — لجنة النشر للجامعيين

آلاف من شباب هذا الجيل في مصر تجيش نفوسهم بشتى العواطف ومضطرم الأفكار مدفوعين برغبة الاصلاح ولهفة الأمل في تقدم بلادهم تقدماً يتفق بها الى مصاف أرقى الأمم . ولكن القليل منهم من تحددت في ذهنه الأهداف واستنار السبيل ثم خطا فيه قدماً وقد قرن التفكير بالعمل . وفي طليعة هؤلاء النفر القليل الأستاذ حسين دياب مؤلف كتاب الوعي الجديد فهو من أساسه قصة حياة المؤلف نفسه تطرق منها الى عرض قصة حياة الجيل الجديد المثقف في إطار يعبر عن حالة البلاد الاجتماعية وأثر الأوضاع الاقتصادية في طبقات الشعب في أسلوب قصصي أخاذ ينفي عن النفس سأم البحث وطول الاستقراء بما يدفعك برفاقة الى حيث تجد نفسك أمام مشكلات أنت مدفوع الى التفكير فيها لأنها مشكلات الجيل وقضايا الوطن الاجتماعية والاقتصادية التي يجب على الشباب أن يجد لها حلاً . وقد عرض المؤلف حلولاً بعضها يمس صميم الأوضاع الاجتماعية وبعضها يدور حول نظام الدولة في حرص أحياناً وفي جرأة في بعض الأحايين وتلك جاء بعضها حلولاً وبعضها مسكنات

والناحية القصصية في هذا الكتاب تعطينا صورة صادقة الى حدٍّ كبير ومحببة الى حدٍّ كبير أيضاً للريف المصري ببساطته وإيمانه وأوضاعه الاجتماعية وتقاليده الخاصة تنطق بها سيرة ذلك الفتى — الذي تدور حوله فصول الكتاب ، وأسرته ومحيطه الذي هو طابع واحد لا يتغير في جميع أنحاء ريفنا المصري.

ثم تدرجه في مراحل التعليم الابتدائي والثانوي والعالي وفي انتقاله من مرحلة لمرحلة حتى التحق بالوظائف الحكومية وقد تخدع فتظن الكاتب ما قصد من عرض هذه الصور إلا التسلية ولكنك لا تسير في الكتاب حتى تلوم نفسك على هذا الظن ، فما أراد إلا الاصلاح، الاصلاح الذي يرضي حماس الشباب والذي بدأه من نقطة الدفاع عن كرامته في محيط وجد كل من فيه وكأنما قد تحالفوا على النيل منها . وما تنتهي من الكتاب حتى تشعر بأن الشعب يجب أن ينال الكثير من الحقوق الاجتماعية وأن يتغير الكثير من الأوضاع الحالية

والتي يجب أن تميل الى مصلحة الطبقات الفقيرة حتى تحيا حياة فيها شيء من لين العيش : أما هياب الجيل من أبناء الطبقة الوسطى فلا أقل من أن يعيشوا كراماً وعلى أصحاب الثروات أن يشعروا نحو مواطنيهم بشعور الاخوة في الوطن والانسانية لا التباعد والاستعلاء ، وواجب الحكومة والديموقراطية أن تمهد الكثير من وسائل الانعاش والرفاهية لجميع الطبقات غير مؤثرة طبقة على أخرى وكما يقف الافراد سواء أمام القانون فلتكن جميع الطبقات سواء في الاهتمام والمعاملة في نظر الدولة

٣ — ديموقراطية جديدة

الاستاذ احمد جمال الدين — مطبعة الاعتماد

يتناول هذا الكتاب المشاكل التي تواجه أمم الشرق الناهضة ويحاول أن يجد حلولاً للتوفيق بين تراث الشرق الذي يستمد أكثر وحيه من الدين وبين أنصار المدنية الحديثة فانه إذا كان الصراع الفكري في أوربا والغرب يقوم بين المذاهب السياسية والاجتماعية فانه في الشرق لا بدّ من حسبان عامل ثالث له أثره وله خطره وهو التراث الديني الذي تغلغل بفضل عبقرية المشرعين الاسلاميين الى جميع خلايا الحياة الشرقية تقريباً المدنية والاجتماعية

وقد فهم الأستاذ جمال الدين هذه الحقيقة تمام الفهم فرأى من العبث أن يبسط نظرياته وطريقة فهمه للديموقراطية قبل أن يحل هذه المشكلة حلاً يمهد السبيل إلى غرضه وقد وفق فيما رآى توفيقاً جديراً بالتنويه : فمن الأمثلة البديعة على فهمه الجديد لتقاليد الدين ومحاولة تطويعها بل مطابقتها للأوضاع العصرية الحديثة قوله في ص ٨١ بعد تمهيد لفكرته — يمكن مقارنة مشاهدة السيدة عائشة لرقص الحبشة بمشاهدة الفتيات للروايات المسرحية والسينمائية ومبايعة النساء يمكن أن يعتبر أصلاً لإعطاء المرأة حق الانتخاب ، وصباق النبي السيدة عائشة في الجري صورته العصرية دور من التنس بين الزوج وزوجته — إذا فهمنا ذلك فلن نجد تناقضاً بين الدين وبين الحياة الكريمة القوية لهذا العصر .

وتقوم فكرة المؤلف لفهم الديموقراطية على أسس فيها الكثير من التبرم بعيوب المجتمعات الشرقية ، ومن هذه العيوب استلهم فهمه الجديد أو علاجه الجديد للديموقراطية كما يجب أن تطبق في هذه المجتمعات ثم نقد كل التنديد بفكرة المصلح الفرد مهما كان صلاحه . ويرى من الأفضل أن يطول أمد الاصلاح حتى يتحقق على يد الأمة ممثلة في تطورها الديمقراطي مهما تأتها النيابية فهو خير من أن يتم في فترة قصيرة على يد فرد مصلح مهما بعدت مراميه عن الأثرة والأنانية .

ويرى المؤلف أن العدالة التي كانت تتحقق في التاريخ الاسلامي على يد بعض الحكام

المخلصين كعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز لم تضف الى حقوق الانسان شيئاً جديداً رغم تصريح عمر الدهر « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » فان هذا التصريح سرعان ما نسي . بينما أثبتت الثورة الفرنسية تلك الحقوق اثباتاً قاطعاً جعلها من حق الجماهير غير منازع وكانت أساس كل الديموقراطيات الحديثة.

ونلاحظ أن المؤلف في الفصل الأول ينوّه بفضل الايمان المجرد على المجتمع وأثره في تقدمه ولكنه يعود في الباب الثاني عند حديثه عن الديمقراطية فيبدي مخاوفه من هذا الايمان حاصباً اياه مادة متفجرة خطيرة لا يؤمن وقوعها في يد زعيم مندفع لتسوء العاقبة ، بل انه ليقرر ان مثل هذا الايمان الحماسي لا بد له كنتيجة طبيعية من خلق زعيم وهنا الشر الذي يخشاه المؤلف .

أما آراؤه في اصلاح النظام الديمقراطي بعد أن قرر صلاحيته وأفضليته على جميع الانظمة المعروفة فهذه في حاجة الى مناقشة المختصين في هذه النظم . وكم يكون مفيداً أن يدور الجدل والنقاش حول مثل هذه الآراء الجديرة بالاهتمام التي يبديها المؤلف في كتابه فاننا أحوج ما نكون الى ثقافة سياسية اجتماعية مبنية على فهم النظام الذي نأخذ به وهو النظام الديموقراطي وان في كتاب ديموقراطية جديدة قدراً ان لم يكن كافياً لهذه الثقافة، فهو بلا شك محفز للاستزادة منها وموجّه حسن التوجيه للراغبين .

٤ — رسالة بإنشاء مجلس فاروق الاول لتقدم العلوم باللغة العربية

الاستاذ محمد علوي عبد الهادي

هي رسالة صغيرة الحجم يتناولها القارىء وهو غير معتقد أن سيجد فيها فكرة يستطيع الوقوف عندها طويلاً فإذا قرأها وقف مفكراً وأمعن في التفكير في محتويات هذه الصحائف القليلة التي استطاع كاتبها الأستاذ محمد علوي عبد الهادي أن يطرق فيها موضوعاً على جانب من الأهمية نحن في أشد الحاجة اليه لتسير نهضتنا الحديثة على أمس قاعدة الدعائم وان البراهين التي ساقها المؤلف وغيرته على اللغة العربية والقومية الشرقية التي تتجلى في آرائه والحماس المدعم بالاطلاع الذين يمزز بهما آراءه كلها مما يحملنا على التنويه بفضله وجهده . وكم نتمنى أن يكثر أمثال المؤلف من خريجي الجامعات المصرية فيجعلون همهم بعد التخرج استخدام ما تعلموه وما اكتسبوه من ثقافة الغرب كوسيلة للنهوض بثقافتنا الشرقية الخاصة ، والتنويه بتراثنا الفكري الذي كان له فضل بعث الحضارة الأوربية الحديثة والذي يقوم مع الأسف بعض علماء أوربا بالاستفادة بفضله أكثر مما يفعل أبناؤه. م . فهـ

١ — لمحات من الدراسات المصرية القديمة

للدكتور باهور ليب — مجلة المقتطف — ١٤٢ صفحة من القطع الكبير

لعلَّ المصريين أجهل الناس بتاريخهم القديم

هذه حقيقة مرَّة ، ولكن هذا لا يحول دون أن نسجلها هنا .

فلو كنا من القراءة مجهولون عندنا وإن كانوا معروفين عند طائفة كبيرة من علماء الغرب حتى غير المشتغلين منهم بعلم المصريولوجيا . وفلسفة القراءة تنال عناية من الأعاجم أكثر مما تلقاه من المصريين أنفسهم . ولعل هذه الحقيقة هي التي حدت بالأستاذ أحمد زكي صعد العالم الأثري المعروف الى طبع كتاب عن حفرياته في حلوان باللغة الانجليزية لا العربية لانه أحسَّ أن في نشر كتابه بالعربية وأداً له بينما نشره بالانجليزية يتيح لمصنفه فرصة إثارة اهتمام بين الأوساط العلمية الأجنبية .

فالدكتور باهور ليب مشكور إذن على عنايته بنشر كتابه الجديد «لمحات من الدراسات المصرية القديمة» ، ومجلة المقتطف محمودة الجهد في اشرافها على طباعته وفي خص قرائها به في خاتمة عامها الحالي كهدية سنوية نفيسة .

ولو شاء المرء أن يدوِّن ملاحظات من قراءاته في كتاب الدكتور ليب لكان عليه أن يعيد كتابة الكتاب بأسره . وما ذلك إلاَّ لأن المؤلف صاغ في قليل من الكلم كثيراً من الحقائق ، وتحير بوجهٍ خاص تلك الحقائق التاريخية التي تبرز المصريين القدماء — من فراعنة وقبط — بعشر أصحاب عصر النهضات في شتى مرافق الحياة .

وجولة قصيرة مع المؤلف في عالم مصنَّفه توفقك على ما فطر عليه المصريون الأقدمون من سعة أفق وصفاء ذهن وحسن استعداد لقبول الحضارة والعمل على تنميتها والأخذ بناصرها . ومن آفاقهم البعيدة في الرأي ، حرصهم على وحدة وادي النيل وحدبهم على قطر مصر الجنوبي حتى كان حاكم السودان يلقب باسم ابن الملك دلالة على أن فرعون ينتدب من يقوم مقام ابنه في ادارة شؤون السودان . وكان المصريون الفراعنة متضلعين من الطب — فعرفوا التشريح والتحنيط وتخصص أطباؤهم في أمراض الأسنان والبطن والعينين فدلُّوا على أنهم كانوا عصريين في تفكيرهم . وليت الدكتور باهور أثبت في هذا الشطر من كتابه ما كان للمصريين من فضل في كشف طريقة يتسنى لهم بها معرفة جنس الجنين قبل ولادته تلك الطريقة التي تبين أخيراً بفضل بحوث الطبيب المصري الدكتور نجيب رياض صحتها . وعرف الفراعنة القانون الجنائي والقانون المدني وكانت لهم محاكمات حكم في أكثرها إمَّا بالاعدام

بالمخازوق أو بالنفي أو بجدع الأنف كما إنهم عرفوا محاكم الاختلاط لرفع الدعاوى على الأجنبيين من السكان . وتعشق المصريون الفن بضروبه فعرفوا الموسيقى والهندسة وتعلقت النساء بالزينة والتطرية وبرع منهن كثير في الرقص .

ومما يجدر إبرازه هنا بوجه خاص اهتمام الدكتور باحور بالتنبيه على الأخطاء التاريخية الشائعة فبيّن أن مقالة « مصر هبة النيل » لم يكن هيرودوت أول من قاله بها وإنما نقلها عن عالم جغرافي يوناني إسمه هيكاتيه ، ودلّل على أن الأدب التمثيلي والفن القبطي لم يكونا مقتصرين على الشؤون الدينية وإنما شملا كذلك شؤون الدنيا . وبرهن على أن سرابيوم الاسكندرية من صنع بطليموس الأول لا الثالث كما يقول البعض ، وأقام الدليل على أن البطالسة من أصل سامي شرقي لا غربي .

وصفوة القول ان كتاب « لمحات من الدراسات المصرية القديمة » تعريف طيّب للمصريين بالمصريين القدماء وبحث نفيس يرجع إليه الأديب والعالم على السواء ليقفا على حقائق تاريخية مشرقة مشرّفة .

٢ — عالم الروح

مجلة شهرية يصدرها الاستاذ احمد فهمي أبو الخير

الأستاذ أحمد فهمي أبو الخير رائد مصري في علم الروح وعلم من أعلامه في الشرق — وهو قلّة وعلم الروح علم أصبح له خطره في الغرب حتى غدا مادة تدرّس في الجامعات الأوربية وتعين لها كراسي في الجامعات العالمية الكبرى ويعترف بها رجال الدين في لندن

فليس أمراً عجيباً أن يصدر الأستاذ أبو الخير مجلة شهرية روحية تحمل رسالة هذا العلم الجديد إلى قارئ الصحف بعد ما كانت الرسالة مقصورة على قارئ الكتاب وليس من المتعسر أن تصدر تلك المجلة الخاصة بين زحمة الدوريات العامة التي تخرجها دور الطباعة في كل يوم

ولا ريب في أن في علم الروح أموراً كثيرة لا تزال مستغلقة على الفهم . ومهمة مجلة « عالم الروح » أن تفسر تلك الحقائق المستسرّة للعامة وتبين لهم أن وراء كثير من الأحداث عنصراً روحيًّا مجهولاً . وآية ذلك ما جاء في مقال نشرته المجلة من أن الرئيس روزفلت كان يستهدي في أعماله بآراء عالم الروح عن طريق الوسطاء الروحيين وهذا القول له خطره لأن الرئيس روزفلت أعظم رؤساء أميركا بغير استثناء ومدة حكمه أطول مدة لرئيس فرد قضاها في البيت الأبيض .

فالأستاذ أبو الخير جديرٌ بالتهنئة على مجلته الجديدة ، ومن الامتاع والتثقيف الاقبال على تلاوة هذه المجلة .

وديع فلسطين

فهرس الجزء الخامس

من المجلد الحادي عشر بعد المئة

٣٥١ التكافل الاشتراكي نظرية مسّا في النظام الاجتماعي : اسماعيل مظهر

٣٥٩ باكستان : فؤاد محمد شبل

٣٦٦ هفاؤك عيد (قصيدة) : خليل مطران بك

٣٦٧ نظرات في النفس والحياة (لاروشفوكولد) : تعريب ع . ش .

٣٧٤ أمراض العيون والدفتريا الرمدية : الدكتور عبد المسيح جرجس

٣٨٤ الثقافة العامة وتنظيم وسائل الاشراف عليها : عبد الحميد يونس

٣٩٥ في القرية : مشاكل النمو والصراع النفسي : محمود حامد شوكت

٤٠٠ العناية بالدواجن وتحسين أنسالها في روسيا السوفيتية

٤٠١ الاسكوريال : محمد رجب البيلي

٤٠٤ مشهد من مسرحية كليوباترا : محمد فهمي

٤٠٦ تشريح الطير

٤٠٧ حافظ وشوقي : صدى الحوادث عند الشاعرين : حسن كامل الصيرفي

٤١١ المراسلة والمناظرة « رد على نقد : محمد فهمي

٤٢٠ مكتبة المقتطف « للسند . رفيق المدق : محمد فهمي . الوعي الجديد . ديمقراطية جديدة . رسالة لانشا . مجلس تقدم العلوم باللغة العربية : م. ف. (١) لمحات من الدراسات المصرية القديمة (٢) عالم الروح : وديع فلسطين

لحق المقتطف

مربوط : جنة الصحارى الأفريقية وروض الصحراء الغربية : بقلم عبد اللطيف واكد

JUNE — DECEMBER 1947 يونيو — ديسمبر سنة ١٩٤٧

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صروف والدكتور فارس نمر

أنشئت سنة ١٨٧٦

المجلد الحادي عشر بعد المائة

AL-MUKTATAF

A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

Edited by : Ismail Mazhar

VOL. 111

Founded 1876 By Drs Y. Sarruf & F. Nimr

فهرس المجلد الحادي عشر

بعد المئة من المقتطف

صفحة

(ا)

آثار هامة الكشف عنها ٣٤٠
ابن جني أبو الفتح عثمان ١٥٣
آلة كهربائية للخياطة ٣٣٧
الأدب العربي والتجديد ٢٩٢
أديسون توماس
ذكراه المئوية ٥٧
الاستعمار : الحائل دون
سلام العالم ٤٣
الاسكوريال ٤٠١
الله، كتاب حول نقده ١٢٩
الله، وفكرة الألوهية
أو الربوبية ٨١
أمريكا الشمالية اكتشافها
قبل كولمبس ٣٣٨
أنابيب من العجائن
الكيميائية والشرايين ٣٣٥
الانسان هذا الغز
الأعظم ٢٤١

(ب)

باكستان ٣٥٩
بال، عقار جديد ٣٤١
البترول والكيمياء ٦٢
البحر الميت وكنوزه ٣٣٦
بصر حديد ٣٩٨
البكتريا حربها ١٩٤
البنسلين والسل ٦٧

(ت)

تايبريتر تستعمل عن بعد ٢١٣
التربية ومشاكل النمو
والصراع النفسي ٣٩٥
التصوير البغدادي
سورة جديدة ٢٠٢
تعليقات أدبية ٣٢٨
التعليم الذاتي والمدرسة
المثلى ١٧
التكافل الاشتراكي ٣٥٢

(ث)

الثقافة العامة ٣٨٤
الثقافة العربية في الجزائر ٢٥٣

(ح)

حافظ وشوقي ٣٠٤، ٤٠٨
الحرب تؤدي الى الحرب ٢٩
الحرية والشخصية ١٢٠

(د)

د. د. ت. والسمك ٣٢٥
الدواجن العناية بها
وتحسين نسلها ٤٠٠

(ذ)

الذرة نظريتها ٢٩٩

(ر)

الراديو المصور
بالمستشفيات ٣٣٧
رد على نقد ٤١٩
الروماتزم وأسبابه ٣٣٩

(ز)

الزيت المعدني
استخراجه ٦٧

صفحة

الزيت في الشرق الأوسط ١٣٩

(س)

السرعة بحث فيها ٦٠
السل التغلب عليه ٢١٤
سيكولوجية النمو وعلاقتها بالتربية ٢٣٥، ٣٩٥

(ش)

الشخصية والحرية ١٢٠
شعر المنشئين والعلماء
« نظرة » ١٧٣
شوقي وحافظ ٣٠٤، ٤٠٨

(ص)

صابون الحرب ٣٢٣

(ط)

الطائرات المصرية أسرعها في أعلى الطبقات الجوية ٩٧
الطاقة الذرية والنظائر ٣٢٨
الطاقة الذرية وآلات المصانع ٦٦
الطعام والهضم ٤٩
الطفل المبتسر ٢٤٩

(ع)

العرب مآثرهم على الحضارة الحديثة ١

صفحة

عقار جديد «بال» ٣٤١
العيون أمراضها ٢٧٩، ٣٧٤

(ف)

الفاقة علتها ٢٣٤

(ق)

قارون كبلر الثاني خلقه ١٠٥

قصة : —

الباب الذي امتنع غلقه ٢٥٧
انيوشا ١٦٧
ذات سحر قاهر ٢٠٥

قصيدة : —

الألم الخالد ١٧٢
جنون ٣٠٣
الحمامة الطائشة ٢٧
السكة ٩٦
شفاؤك عيد ٣١٦
عالم الدماغ ٣٠٢
فراق ١٢٣
لحن الموت ١٦٥
المجنونة الشريدة
« الاشاعة » ٢٧٢
مشهد من مسرحية كليوپاترا ٤٠٤

صفحة

موج البحر ١٨٤
الوردة ١٦

القلب تجديده بترقيعه ٦٦
القلق الدولي أسبابه ٤٣
قنابل لانقاذ الغرق ٢١٣

(ك)

الكتابة، كيف تكتب ٢٧٢
الكتلة الاسترلينية الخروج منها واستقلال مصر المالي ٣١٤
الكولويرا أو الهواء الأصفر ٢٢٥
الكولويرا الوقاية منها ٢٣٣

(ل)

اللبنانيون والأدب البرازيلي ١١٥

خلق المقتطف

يونيو : رحلة الى مصر في عهد محمد علي باشا الكبير
يوليو : فلسفة الفن في التصوير الايطالي في عهد النهضة
أغسطس : أميرة بابل
سبتمبر : يوليو : جنة الصحارى الافريقية وروض الصحراء الغربية

صفحة

(م)

ماثر العرب على الحضارة الحديثة ١
المحيطات زرقة مياهها ٦٦
المدرسة المثلى والتعليم الذاتي ١٧
المسرحية في شعر شوقي ٢٠٩
المعري أبو العلاء فلسفته وأدبه ٢٦٨
مكتبة المقتطف
آثار أدبية من الحجاز ٣٤٥
ابن الانسان ١٣٤
ابو ذر الغفاري ٦٩
أبو العلاء ناقد المجتمع ١٣٦
أبو الهول يطير ٢٢٠
أصراع أم تعاون في فلسطين ١٣١
الله كتاب في نشأة العقيدة الالهية ١٢٩
الامام علي ابن أبي طالب ٧٠
بين العلم والأدب ٣٤٤
الجامع لأحكام القرآن ٣٤٦
جمال الدين الأفغاني ٧٦
ألحان الحان ٣٤٢
خرافات ايسوب ١٣٨
ديمقراطية جديدة ٤٢٦

صفحة

ديوان الطلائع ٧١
ذكرى الأمير شكيب أرسلان ٣٤٦
رسالة بانشاء مجلس فاروق الأول لتقدم العلوم باللغة العربية ٤٢٧
روح وريحان ٧٣
الريف ومشكلاته ٢٢٢
زقاق المدق ٤٢٣
ضبط الأعلام ٦٨
عالم الروح ٤٢٩
الغرر التاريخية في الأسرة اليازجية ٧٥
فتح العرب للمغرب ٢٢١
فلسفة الجمال ٣٤٤
في أعقاب الثورة المصرية ٢١٧
قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والاسلام ١٣٥
قصص للاطفال ١٣٣
القضايا الكبرى في الاسلام ٢١٨
كأس الحياة ٢٤٣
كريم الدين البغدادي ٣٤٥
لماذا أنا مسلم ٢١٨
لمحات من الدراسات المصرية القديمة ٤٢٨

صفحة

مجلة الأديب ٣٤٩
المستشرقون البريطانيون ٢٢٣
مسرحية الأب ٧٢
المسند ٤٢٠
معرض الأدب والتاريخ الاسلامي ٧٨
مكتوب على الجبين ١٣٢
من وراء الأفق ٧٨، ٣٤٦
الوعي الجديد ٤٢٥
الموتى كيف يتكلمون ٢٩٥
موقد كهربائي ذو نافذة ومصباح ٢١٤
ملاحظات في أبيات ١٢٥

(ن)

النظائر والطاقة الذرية ٣٢٨
النظائر وكيمياء النواة ١٢٨
نظام الحكم في العالم « نظرة شاملة » ٣٤
نظرات في النفس والحياة ١٨٥، ٣٦٧
النفط والكيمياء ٦٢

(هـ)

الهر تشريحه ٤٠٦
الهضم والطعام ٤٩
الهواء الأصفر ٢٢٥
الهيدروفون ٢١٢

مريوط

بمنة الصحارى الأفريقية ودرة الصحراء الغربية

قبلة الحب .. وأبهة الغناء .. وبساطة الطبيعة

بقلم

عبد اللطيف زاكر

طبع بمطبعة التقدم بالقاهرة

١٩٤٧

الماء في الصحراء

بما أن الماء يكوّن ٨٥ ٪ من جسم الإنسان والحيوان ، وما يقرب من ذلك في مختلف أنواع النباتات ، فقد وجب بحث مشكلته في الصحراء قبل كل شيء . فحيثما وجد الماء وُجدت الحياة . وازدهرت جناتها ، وقد قال تعالى في كتابه العزيز « وجعلنا من الماء كل شيء حي »

وقديماً . . وقبل معرفة الخلق للخالق عز وجل . . وحتى الآن . . اتخذ الناس من دون الله أرباباً . . فمنهم من عبد الشمس ، ومنهم من قدّس النار ، ومن سجد للشيطان ، ومن صلى بين يدي الحيوان ، الى غير ذلك من الأصنام والأوثان . . ولكنني لم أر أحداً يُلتمس له العذر ، فيما اتخذه معبوداً من دون الله ، غير المصريين القدماء ، فقد جاءت أجيال منهم ، وعبدت النيل . . !!

أليس هو الذي يروي الزرع والضرع . . ويحيي بإكسيره الإنسان . . !!

ليس هذا بحثاً في فوائد الماء ومنافعه ، وإنما هي إشارة لابد منها ، قبل أن نتحدث عن الماء في الصحراء . . !!

ونستطيع أن نقسم الصحراء الليبية من الوجهة المائية ثلاثة أقسام :

١ — قسم فاقد الماء ٢ — قسم موسمي الماء ٣ — قسم دائم الماء . . !!

١ — القسم العديم الماء

وليس معنى عدم وجود الماء فيه ، أنه لا يحتوي على كائنات حية ، حيوانية أو نباتية . « كلا » فانه ليضم مجموعة من النباتات الجافة (١) التي لها قدرة على مقاومة الجفاف ، فتعيش رغم تقلبات الطقس ، على أقل نسبة من الرطوبة الجوية أو الأرضية . . وعلى هذه النباتات تعيش بعض الحيوانات الصحراوية البرية . . كالغزال الذي يكثر وجوده في هذه المناطق ، متخذاً من لونها الذي يشابه لونه ستاراً . . ويكتفي في ارواء غلته ، وإطفاء ظمئه بما يخلفه الندى ، الذي يهبط بغزارة في الصحراء آخر الليل ، على الصخور التي تتضمن أحياناً

(١) في آخر الكتاب تعليقات وشروح

تجاويف متعرة ، يتجمع فيها ماء الندى ، فيأتي الأهالي قبل شروق الشمس فيلتقطه بإسفنجة .

وعلى هذا المأكل والمشرب يقضي حياته ، محتفظاً بما وهبته الطبيعة من رهافة وجمال هما عند البشر مضرب الأمثال .

ويشمل هذا القسم الصحراء الجنوبية . وتمتاز هذه المنطقة بكثرة كثبانها الرملية المتنقلة التي يسميها أهل الصحراء بالغرود . !!

والغُرود (٢) واحدها غَرْد .. ولقد نتجت في هذه المنطقة من تأثير الرياح على مكونات الأرض الرملية الرخوة في منخفض القطارة (٣) ثم انتقلت من مكان الى مكان حتى ترسبت أخيراً في الجنوب الشرقي للمنخفض ، على هيئة تلال هامدة ، تقع في خطوط تكاد تكون مستقيمة بعض الشيء .. أما انتقالاتها فمع هبوب الرياح التي تحملها غالباً من شمال الشمال الغربي ، الى جنوب الجنوب الشرقي .. وتمر مع الهواء على هيئة سحب رملية رقيقة تسمى سافيات الرمال ، لا تلبث أن يتكاثف بعضها فوق بعض ، حتى يتكامل انتقال التل ، من مكان الى مكان آخر .

وتُغير هذه الغرود على القرى فتغمرها ، وعلى الحدائق فتطمرها ، كما حدث في قرية المويشية بالداخلة ، والزيو بالبحرية . . وعلى الدروب فتمحوها . وكثيراً ما كانت سبباً في ضلال الكثيرين من الضاربين في الصحراء ، وليس أدل على ذلك من هلاك جيوش قمبيز في طريقها بين الواحات الخارجة وسيوه عندما أرسلها في عام ٥٢٥ ق. م. لتحطيم معبد آمون الذي كان له مركز عظيم في عالم اللاهوت ، في ذلك الحين . وكما أن لها مثل هذه الأضرار فلها فوائد أخرى ، إذ يلجأ اليها الأهالون بالواحات في ليالي الصيف هرباً من الدور التي تكثر فيها العقارب والحشرات الضارة إذ أن هذه لا يمكنها السير فوق ذراتها الدقيقة فيمكنهم قضية الليل في هدوء واطمئنان من غارات هذه الأعداء الفتاكة في أثناء الليل فينعمون بنوم هادىء لا يشوبه فزع ولا قلق .

وليس في هذه المنطقة سكان قط غير سكان الواحات الواقعة فيها .

٢ — القسم الموسمي الماء

ويشمل المنطقة الممتدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بين الاسكندرية والسلوم بعرض خمسين كيلو متراً في أغلب المواقع جنوبي الساحل . وهذه المنطقة ذات خصب وافر آهلة بالسكان من البدو الرحل الذين يكوّنون قبائل أولاد علي بنوعيها (٤) وهم يشتغلون

بتربية الابل والماعز والأغنام ، وبعض زراعات أخرى صغيرة . وهذه المنطقة ثلاثة موارد للماء .

١ — المطر : أهم الموارد وعليه تتوقف زراعة الشعير ، وحياة الزراعات الأخرى ، إذ يهطل في هذه الجهات بغزارة في الشتاء ، حتى أن السيول المتجمعة منه تتلف أحياناً طريق السيارات المرصوف . وتحتاج الخط الحديدي الممتد على الساحل ، فتنقله من مكان الى مكان لشدة اندفاعها نحو البحر . ولقد احتاطوا لذلك ، بأن جعلوا لهذه السيول منافذ وممرات تحت الخط الحديدي ، ممتدة بالأسمنت المسلح على هيئة قناطر تكبر وتصغر على حسب انخفاض البقعة بالنسبة لما يجاورها من الجبال والتلال ، إذ في المناطق المنخفضة المنحدرة نحو الشاطىء يقوى اندفاع ماء السيول ، وبالعكس ، ولقد أقاموا هذه القناطر في الأماكن التي تعرضت لجهات السيول غير مرة ، ثم قاموا بحفر جداول محاذية للخط الحديدي تنتهي الى هذه المنافذ ، حيث تنفذ منها الى البحر فيما صنعته لنفسها في الأرض من أودية عظيمة .

ويستغرق فصل الأمطار حوالي الخمسة أشهر إذ يبدأ في أكتوبر وينتهي في أواسط مارس . أما ما بقي من أشهر السنة فلا تتساقط خلالها الأمطار لذلك تشتد فيها حرارة الجو وتكثر العواصف الرملية .

ويبلغ متوسط سقوط الأمطار ١٦ سنتيمتراً في كل الأعوام تقريباً ، الا ما يجيء فيها مجدباً من الأمطار ، كالأعوام السبعة العجاف التي تنحصر بين ١٩٣٠ وعام ١٩٣٨ فانها كانت أقل من ذلك بكثير لدرجة تحطيها والعدم في صف واحد . وفي الأعوام الغزيرة الأمطار فوق العادة كعام ١٩٣٨ الذي حطال الغيث فيه بعد امتناعه أعواماً فبلغ متوسطه ٢٥٫٧ سم ولقد كان لهطول الغيث بهذه الغزارة أثر حسن ، ونتيجة عظيمة في وفرة المحصول .. وحمل الأرض على أن تخرج أسرارها ، التي احتفظت بها أعواماً سبعة ، على هيئة أزاهير جميلة تنفح الجو بأريجها العطر ..

ويسمي البدو السنين المديدة الأمطار أو قليلتها (جَدَبْ) بتحريك الدال مفتوحة وتسكين الباء . كما يسمون الأعوام الكثيرة الأمطار الوفيرة المحصول (صَابَا) .. وللمطر عدا ذلك آثاره الملموسة في رفع منسوب الماء الأرضي .. وتغذية الآبار المنتشرة في عرض الصحراء بالماء . إذ تتشربه التربة .. ثم تزجيه إلى الآبار بطريق الرشح .. !!

٢ — الآبار : ثاني الموارد وأهمها صيفاً ، إذ يشرب منها الناس والأبل والأغنام . وتروى منها الزراعات الصغيرة التي لا تحتمل العطش ، وتجلب المياه منها إما بالسواقي التي تقام عليها

أو بالماكينات الرافعة عند الحاجة اليها ، أو بواسطة طواحين الهواء .. أو بالبكرة والدلو.. وهذه الآبار أنواع كثيرة .. !!

ا — المعاطن : ويبلغ عمقها من ثلاثة إلى أربعة أمتار .. وتتجمع فيها المياه من رشح الأمطار والسيول ، التي تنشربها القشرة الأرضية. ومن أهم خواصها طول الاحتفاظ بالماء . وماء هـذه الآبار يصير مالحاً بعد مضي وقت قصير في بعض الجهات .. ويظل عذباً طوال أيام العام في بعض الجهـات الأخرى .. وذلك لاستمرار ورود الماء لهـا بالرشح ، بواسطة روافدها الكثيرة التي تمتد مسافات بعيـدة في جوف الأرض .. ولقلة الأملاح المختلطة بالتربة الواقعة هي فيها .. وتكاليف حفر البئر من ٣٠ الى ٤٠ جنيهاً .. ويقوم بحفرها بعض الأهلين ممن تخصصوا في هذه الصناعة ..

أما طريقة حفرها فتبدأ بحفر البئر المركزية في الطبقة الأرضية العليـا .. إلى أن يصل الحفر الطبقة الصخرية التي تحتهـا ، والتي تحول دون تسرب ماء المطر الذي تتشربه الأرض بواسطة المسام الأرضية إلى أعماق بعيدة .. ثم تحفر قنوات جانبية تمتد إلى مسافات بعيدة في جوف الطبقة السطحية كسراديب تكبر أحياناً حتى تتسع لمرور الرجل بقامته .. وتكون هذه السراديب بمثابة روافد تغذي البئر بالماء المختزن في جوف القشرة الأرضية من مخلفات السيول والأمطار ثم يتسرب إلى مجاريها بالرشح .. وعلى قدر امتداد القنوات أو السراديب وكثرتها تكون وفرة الماء وقلته في البئر .

ب — آبار السماء : وهي خزانات عملت أول ما عُملت في عهد الرومان ، وجهزت باستحكامات تضمن حفظ الماء فيها وقتاً ليس بالقصير ، ويأتيها الماء مما يتجمع حولهـا من السيول التي تتكوّن على أثر سقوط الأمطار فوق التـلال والهضاب المجاورة لمواقع هـذه الآبار ، ويدخلها الماء من فتحات جانبية بمستوى سطح الأرض . ويرفع منها من فتحات في أعلاها تقفل وتفتح حسب الحاجة .. وعادةً لا توجد أو لا تعمل هـذه الآبار إلاّ في منخفضات مستوية القاع بحال تضمن وصول الماء اليهـا مما حولها من مرتفعات ، وهي لا ترتفع عن سطح الأرض أكثر من قدم أو قدمين .. وتتراوح سعة البئر بين ألف متر مكعب وخمسة آلاف متر تقريباً ، ويسكن البدو في خيامهم بجوار هذه الآبار أو بقربة منها ..

جـ — آبار السواني Sub-soil water أي آبار تحت التربة .. وهي عبارة عن آبار ارتوازية يرفع ماءها بالماكينات أو السواني . ولقد صنعت أيضاً في عهد الرومان الذين كانوا حريصين دائماً كل الحرص على ضمان بقائها صالحة سليمة عهداً طويلاً . وتعتبر « بئر البردويل » بالعامرية

بساتين الزراعة ببرج العرب سنة ١٩٤٥ وبها شجر الخروب

بئر المحطة ببرج العرب وهي خزان رومانى لمياه الأمطار

نموذجاً لهذا النوع من الآبار ، ولقد بنيت جوانبها على عمق (١٦ متراً) تحت سطح الأرض ويبلغ قطرها (١٢ متراً) ويرتفع بناء هذه الجوانب ويكوّن خزرة فوق سطح الأرض بعلو ثلاثة أمتار تقريباً ، ولها سقيفة من الخشب بشكل مخروط مربع ، وتوجد نافذة بكل جانب من جوانب السقيفة عرضها (٨٠ سم) وطولها (٨٠ سم) وتستعمل للتهوية ، وبداخل البئر سلم من الحديد يوصل الى قاعها . وعلى ارتفاع (٥٠ سم) من سطح الماء ، توجد ثماني فتحات حول البناء بشكل أبواب مقوسة طول الواحد منها (١٢٠ سم) وعرضه (٦٠ سم) ويوجد تحت كل باب من هذه الأبواب فتحة أخرى طولها (٤٠ سم) وعرضها (٣٠ سم) ينصب منها الماء المحجوز خلفها الى البئر ، وهذه الفتحات الثماني تتصل بسراديب مبني بعض أجزائها على مسافة لم يتمكن أحد من تحديدها الآن . وهذه السراديب في ثمانية اتجاهات مختلفة . ويظن ان المياه التي تأتي الى هذه البئر ترد اليها من أبعاد مختلفة اذ اتضح عند التطهير الذي أجري عام ١٩٢٧ بواسطة لجنة مياه الشرب الموفدة من قبل مصلحة الصحة (وزارة الصحة الآن) لفحص مياه الصحراء ، أن مياه العيون الأخرى المجاورة جميعاً ، والتي تقع في دائرة قطرها خمسة كيلو مترات حولها ، كانت جافة .

وتدخل هذه البئر على مسافة (١٢ متراً) تقريباً من الجهة الجنوبية ، وتعد صعود بضع درجات من السلم المبني في عصر الرومان . يصل الداخل الى البئر الى باب محفور في خندق وهذا السلم تستمر درجاته داخل البئر وعددها (٤٥ درجة) وينتهي طرفه الى رصيف توجد في إحدى نهاياته فتحة صمّتها ضعف سعة النوافذ الموجودة في البناء في جدار البئر (وقد سبق ذكرها) ويمكن لمن يقف في هذه النقطة أن يرى الماء المنصب من الفتحات الى داخل البئر ويختلط فيه بقائه .

وتوجد غرفة بالقرب من البئر بها الآلات الرافعة التي تدار بمحرك يدار بالمازوت قوته (١٥ حصاناً) وتوجد طلمبة ماصة كابسة تدار ثماني ساعات في اليوم . ويخرج الماء من ماسورة قطر فوهتها ثلاث بوصات . ويسير في قناة صغيرة مكشوفة طولها عشرة أمتار تقريباً . وينصب في مزارع مساحتها خمسين فداناً ، والماء الذي يسحب يومياً يكفي لري أربعة أفدنة فقط .

٣ — ماء النيل : ويوصل إلى المدن الواقعة على الساحل بواسطة بواخر مصلحة خفر السواحل ، إذ بها خزانات مجهزة لهذا الغرض ، ويوزع على الموظفين وكبار الأعيان لاستعماله في الشرب نظراً لأن مياه الآبار أغلبها ملحة غير مستساغة .. وكذلك يحمل القطار يومياً قناطيس المياه من الاسكندرية لتوزيعها على المحطات .. وأخيراً مدت أنابيب المياه

من أبي المطامير حيث أقيمت مضخات كبيرة ماصة كابسة على نهاية ترعة النوبارية . ولقد بلغت المياه التي تضخها هذه المضخات في الأنابيب الممتدة منها إلى طبرق في أيام الحرب الأخيرة وقد جعلوا في كل بلد تقريباً (حنفية) عامة لتوزيع الماء منها على الأهلين .

* * *

أما وقد عرفنا موارد الماء في المنطقة الساحلية فيمكننا أن نبين طرق الري فيها ولكي نتمكن من الوصول إلى طريقة مثالية سنتخذ من مزرعة قسم البساتين ببرج العرب أنموذجاً لطرق الري المتبعة في هذه المنطقة .

أولاً : الري شتاء : تهطل الأمطار فتغمر الأرض كلها .. فيرتوي الشعير .. والأشجار والحدائق وما عدا من نباتات برية .

ويسقط المطر فيما يسقط على التلال والمرتفعات ، فينحدر مكوناً سيلاً يُحتَالُ عليه للانتفاع به ، فتحفر في سفح كل تل قناة ، في منحدر السيل ليتجمع فيها .. ومنها يزرع إلى أحواض الزراعة بواسطة مساقٍ فرعية .. وتسمى القناة التي في سفح التل (ناي) ومجموعها نايات .. !!

ولما تبين للرومان أن توزيع المياه الناتجة عن سقوط الأمطار في مناطق متسعة الأنبساط يكون عادة بحال لا يكفي لانتاج محاصيل وافرة . لما تبين لهم ذلك لجأوا الى عمل تلال صناعية في وسط كل مساحة متسعة من حولها ، حتى إذا ما نزلت الأمطار عليها انحدرت الى الأرض المجاورة المزروعة فتضيف إلى ما نالته مما تساقط عليها من مطر كمية من الماء لا بأس بها ، فينتج عن ذلك زيادة في المحصول .. ونجاح في الزراعة .. وتشاهد آثار هذه التلال حتى الآن في مناطق كثيرة من الصحراء تعرف عند البدو بالكروم .

ولما كان الماء الأرضي يحتوي على ٤٠٠٠ جزء من الرواسب الملحية في كل مليون جزء فقد روعي الاحتراس منه بقدر الإمكان عند استعماله للري خصوصاً للأشجار الصغيرة . لذلك لجأت المزرعة لإدارة الماكينات أيضاً في الشتاء ، لخلط ماء المطر بماء الآبار المالح ، فيمكن الحصول بذلك على درجة رطوبة كبيرة تستطيع الأرض أن تحتفظ بها وقتاً طويلاً فتستفيد بها الأشجار الدائمة مع تخفيف نسبة الملوحة ، فيقل الضرر الذي ينجم عنها .. !!

ثانياً : الري صيفاً : كانت الأشجار تروى صيفاً بالماكينات والسواقي بالطريقة المتبعة في ري الحدائق بوادي النيل وذلك بأن يجري الماء داخل البواكي القائمة بها الأشجار .. ولكن تبين أخيراً أن هذه الطريقة ضارة بعروق الأشجار وجذورها . لوجود مركب كلوور الصوديوم في الماء بنسبة كبيرة ، فاتبعت طريقة أخرى ، أمكن بها تخفيف تأثير

الأملاح الضارة ، وذلك بأن جُعل مجرى الماء في قنوات تبعد عن السوق بمقدار نصف متر وكل عام يزاد البعد ، حتى يصير المجرى بين كل صفين من الأشجار ، وهذه الطريقة تستعمل للأشجار الصغيرة ، والمقاسمة حديثاً . وأما الأشجار الكبيرة فلا تروى صيفاً إلا إذا قلت نسبة الرطوبة في الأرض ويمكن معرفة ذلك بواسطة جوّ الاختبار ، التي تحفر في جهات متعددة بين الأشجار بعدد يضمن معرفة النسبة بالضبط ، فان قلّت درجة الرطوبة تروى كالأشجار الصغيرة ، ولكن تبين أخيراً أن طريقة الري هذه غير مفيدة في كل الحالات إذ يمكن الانتفاع بها تماماً في التربة الكثيرة المسام التي ينفذ الماء بينها بسهولة . أما التربة التي لا ينفذ الماء فيها بسهولة فليس من الواجب التنصح باستعمالها إذ ان الماء يتبخر بواسطة الشمس والهواء قبل ان يتخلل المسام الأرضية فيصل الى جذور الأشجار ، ولذا تتبع الطريقة الأولى في الحالة الأخيرة مع تقليل الري وجعله عند الضرورة .

أما كمية الماء اللازمة لري فدان مزروع أشجاره على بعد خمسة أمتار مرة واحدة فهي نحو (٦٠ طنّا) فقط ويستهلك في رفعها من الوقود ما تقدر قيمته بحوالي (٢٥ مليماً)[1] وكمية الماء اللازمة لري الخطوط مرة واحدة في زراعة العنب البالغة مساحتها فداناً هي (١٣٠ طنّا) يستهلك في رفعها من الوقود ما تقدر قيمته بخمسين مليماً ذلك لأن العنب مزروع على مسافات قريبة أي ٢ × ٣ من الأمتار . وقد يكفي لزراعة مائة فدان ماكينة واحدة قوتها عشرة خيول ، وطلمبة قطرها أربع بوصات .

٣ — انقسم الدائم الماء

ويشمل الواحات المصرية جميعاً ، إذ العيون تتفجر بماء غير دائم الجريان ، لا ينضب له معين ، ولا يتوقف على عوامل جوية ، وإنما يتسرب الماء الى منخفضاتها خلال طبقات الخراسان النوبي ، الذي يوجد في هذه المنخفضات على سطح الأرض ، أو دونه بقليل ، تغطيه طبقة غير سميكة من الحجر الجيري . أو الرواسب البحرية الحديثة ، التي يسهل الحفر فيها ، والوصول الى الماء من ورائها ، ولقد تضاربت آراء علماء الجيولوجيا في مصدر هذا الماء ، لا في طريقة وصوله التي علمناها . فلقد ظن فريق منهم أنه يأتي من النيل ، عند مروره في منطقة النوبة فيتسرب الى الواحات مباشرة ، مارّاً بطبقات الخراسان النوبي التي تكثر في هذه المناطق .. ولكن فريقاً آخر عارض في ذلك .. والحجة التي أقامها المعارضون أن ماء النيل ينقص ويزيد . أما ماء العيون فثابت المنسوب ، فما هذا التباين والاختلاف ..؟؟

(١) أسعار ما قبل الحرب

وقالوا إنهم يرون أن مصدر هذا الماء هو بحر الغزال ، حيث الأمطار دائمة الهطول .. والمستنقعات كثيرة تساعد على تسرب الماء بكثرة ، وأقاموا الدليل على ذلك بدفء ماء العيون والآبار ، في أغلب الواحات زاعمين أن سبب هذا الدفء كون الماء يقطع مسافات كبيرة في جوف الأرض ، فيمتص بعض حرارتها .

وجاء فريق ثالث فاعترض على هذا الرأي ، بأن مستوى بعض الآبار أعلى من مستوى مستنقعات بحر الغزال . وأنهم يرون غير هذا الرأي وهو أن مصدر الماء الذي تتفجر به العيون ناتج عن الأمطار الغزيرة الموزعة على فصول السنة ، والمتساقطة على المرتفعات المكونة للحافة الشرقية لمنخفض بحيرة (تشاد) بالصحراء الفرنسية الكبرى التي تكاد تكون عديمة النباتات . وسبب ذلك أن الحراسان النوبي الذي يغطي الأرض يتشرب الماء الذي ينفذ خلاله الى الواحات . وربما كان هذا الرأي له نصيب من الصحة ، وربما ظهر عليه ما يخطؤه بعد سنين .

وقال « زيتل » في تقريره الذي نشره عام ١٨٨٣ من جيولجية صحراء ليبيا أن لمياه العيون المنتشرة في الواحات بهذه الصحراء خزاناً هائلاً تحت الأرض » .

ومهما كان مصدر هذا الماء مختلفاً فيه أو متفقاً عليه ، فانه يصل الى الواحات متدفقاً بغزارة . وسنأخذ في دراسته ومحنه بكل واحة على حدة .

١ — واحة سيوه

وانه لما يسترعي النظر وانتباه الزائر لواحة سيوة ، كثرة عيونها المنتشرة في أرجائها . والموزعة بحالة تحمل على الاعتقاد بأن الطبيعة قد أوجدتها في أماكنها هذه ، لكي تكون أنفع وأيسر تناولاً ، مما لو كانت في أماكن أخرى من الواحة . ومما لا يزال يردده الأهلون ان سيوة كانت في العصور القديمة تحتوي على أكثر من ألف عين . ويدللون على صحة ما يقولون بكثرة المصارف القديمة المطموسة . ذلك لأنه لكل عين مصرف ينقل الزائد من مائها من الحاجة ، الى بحيرة الزيتون التي تمتد بين « أغورمي » (٥) و « عوبة الزيتون » . مسافة الاثنين كيلو متراً تقريباً . أو بحيرة « خميسة » التي تمتد بين « خميسة والمراقي » (٦) ولا تزال آثار هذه المصارف هي معتمدهم الوحيد للاستدلال على العيون القديمة المطموسة كلما أرادوا إخراج عين جديدة .

والعيون الموجودة الآن مشيدة جميلة البناء .. البناء الذي يكون في أغلبها دوائر ترتفع عن الأرض بمقدار نصف متر . محيطاً بما يشبه بركة واسعة من الماء يتراوح قطر دائرتها بين

٣٠ الى ٦٠ قدماً . واذا ألقى الانسان عليها نظرة ، رأى ماءها الصافي ساجياً عند أطرافه ، أما في وسطه فتخرج فقاقيع من الزبد ، تطفو على وجهه ثم تتلاشى . وهذه الفقاقيع هي نهاية الماء المتصاعد من قاعها البعيد كحبات اللؤلؤ ترى عن بعد وهي صاعدة بألوانها الكثيرة الفاتنة ، التي تحمل رائيها على أن ينسى نفسه معها برهة غير قصيرة من الزمان . وتظل هذه الحبات اللؤلؤية متصاعدة في تعاقب ، حتى اذا ما وصلت الى السطح انسابت بين الماء ، على هيئة فوران خفيف . ومن العيون ما تشاهد فيها هذه الظاهرة شديدة ومريعة . حتى أن الماء ليغلو وكأنه في حالة غليان .

لذلك نجد أن الماء في عيونه كثير . ويزيد عن الحاجة ، حتى أنهم يتركونه ينصب سدًى الى الملاحات والبحيرات الكثيرة الانتشار في أرجاء الواحة . ولقد كانت هذه العيون قد وصلت الى حالة لا ترضي من الاهمال . فأوفدت وزارة الأشغال في عام ١٩٣٤ ، المهندس البارع محمد أفندي عمر ، لاصلاح ما فسد واخراج ما يمكن اخراجه من العيون المطمورة فكانت نتيجة ذلك أن خرجت عين « تجورتي » وعين « الدكرور » تفيضان ماء غزيراً .

* * *

وتنقسم عيون الواحة ثلاثة أقسام وذلك من حيث الملكية

١ — عيون مشتركة : وهي العيون التي يملكها أكثر من واحد ، وينتفع أصحابها بمائها في ري زراعاتهم على السواء . ولهذه العيون نظام يتبع في توزيع الماء . إذ يوزع ماؤها بحساب « الوجبة » والوجبة : هي النهار فقط أو الليل فقط . إذ اليوم وجبتان — وتكثر وجبات العين وتقل على حسب اتساع مساحة الأراضي التي ترويها وقوة تصريفها ، وتنقسم الوجبة ثماني أقسام ، ويسمى كل قسم « ثمناً » وتباع الملكيات الزراعية بحساب أو على أساس « الثمن المائي » ويساوي « الثمن » من ٢ الى ٢٤ جنيهاً . ويتوقف ارتفاع الثمن أو انخفاضه على كمية الماء التي تنتجها العين اذا كانت قليلة أو كثيرة . وحالة ملاك العين المالية ، وما هم عليه من غنى أو فقر ، فان كانوا أغنياء متوفرة عندهم القوة الشرائية ، ارتفع ثمن « الثمن » فيها ، وبالعكس اذا كانوا فقراء .

وتقدر ثروة الرجل بمقدار ما يملكه من ماء ، إذ على قدر الماء يستطيع أن يزرع ويجني الثمر (٧).

ويقوم بتنظيم توزيع المياه في هذه العيون اثنان :

١ — مؤذن المسجد العتيق : وعليه اعلان الوقت ليلاً . إذ يؤذن من مأذنة المسجد العتيق ، بعد نصف الليل بساعة ونصف الساعة ، ويسمى هذا الإعلان « النداء الأول »

وبلهجة أهل سيوة «تَانَـرْل» وله صيغة مخصوصة ، ذلك بأن يبدأ بقراءة آيات من القرآن ثم يختم بصوت منخفض مؤذناً « الله أكبر » .

وبعد ساعة ونصف من الثناء الأول يؤذن المؤذن ثانياً بسيوة « تارهَّب » ومعناها أن وقت الثناء الأول قد ذهب . وأما صيغة هذا الآذان : فهي أن يقول مبتدئاً « نسألك العفو والعافية ، والمعافاة في الدين والدنيا والآخرة » وهنا يترك الماء من هو ماض في الري ، ويبدأ من عليه الدور . ويرسل مؤذن المسجد العتيق بمنازل النجوم الى « تارهب » وبعد ذلك تسير المواعيد بطلوع الفجر ، وشروق الشمس الى أن يتسلم منه الرجل الموكول إليه التنظيم بالنهار .. ١١

ب — الرَّقَّابُ : وحقيقتها الرقيب ، وهذا يعمل نهاراً منذ شروق الشمس الى غروبها على « المزولة » وعلى كل من له موعد استلام ماء أن يذهب اليه في مكانه الذي اتخذه عند خص «أبي عجاجة» ويخبره بموعده . فاذا ما حل أبلغ الرَّقَّاب صاحب الموعد . وأبو عجاجة هذا رجل صاحب فضل وبركة ، قدم الى سيوة فابتنى له كوخاً أمام المسجد العتيق وأقام به فتسمى المكان باسمه ، ويظهر أنه من جهة « عجاجي » بالقرب من سيدي براني .

ويأخذ كل من « مؤذن المسجد العتيق و « الرقاب » أجراً على ذلك يقدر بأربعين ساعاً (٨) من القمح لكل منهما . تصرف أو تجمع لها من البلد عموماً . وكانت فيما مضى تصرف من بيت المال من المتحصل من مزادات العاقول (٩)

﴿ تقدير الوجبات لكل عين ﴾ : علمنا مما سبق أن العيون جميعها ليست متساوية في عدد الوجبات ، وإزاء ذلك نجد أن نظام الوجبات تقديري في كل عين على حدة ، ولهم في ذلك طريقة خاصة يتبعونها في تقدير وجبات العين بعد اخراجها ، ذلك بأن ينتدب أصحاب العين أميناً يرتضيه الجميع ليس من ملاكها ، غريباً عن حوضها ، ويكلون اليه أمر التقدير ، فيتولى هذا المندوب مراقبة الري الأصلي ، في جميع الأراضي الواقعة في حوض العين والتي ستروى منها فعلاً ويثبت في كشف يعده عدد الساعات التي تستغرقها أرض كل منهم في الري بالتوالي حتى اذا انتهت أراضي أصحاب العين جميعاً الذين أنفقوا في اخراجها كل على حسب ما يملكه من الأرض (١٠) فالذي يملك كثيراً يدفع أكثر من الذي يملك أقل منه ، وهكذا حتى لا يكون في الأمر غبن على أحد .

ويعيد الأمين الري مرة أخرى ويثبت الأرقام ، ثم يعيد الري مرة ثالثة ويثبت الأرقام أيضاً ، ثم يأخذ المتوسط للمرات الثلاث ، فيكون هذا المتوسط — لكل مالك — هو ما يمتلكه من حق في ماء العين ، وبعد ذلك يجتمع أصحاب العين ويحررون دفتراً بهذه

المواعيد والساعات، ويرقمون عليه ، فيصير بعد ذلك نافذ المفعول ، لا يمكن الخروج عليه أو العدول عنه ..

ولو فرض أن العين روت الأراضي الواقعة في حوضها ، والتي يملكها مخرجوها في عشرة أيام فتكون وجباتها عشرين وجبة ، ويكون دور الري فيها كل عشرة أيام .!

ولكل عين « حسّاب » يرشد أصحابها لمواعيد الري التي تخصهم فيها ، وهؤلاء يذهبون الى « الرقاب » فيخبرونه بمواعيدهم ، حتى إذا ما حلت نوبهم اليها ..

إذن فالرقاب واحد . وهو الذي يجلس في « خص أبي عجاجة » وأما الحسابون فهم كثيرون بعدد عيون الواحة ، فلكل عين « حساب » وبيد كل « حساب » كشف بمواعيد العين التي هو « حسّابها » ويأخذ الحساب أجراً على عمله هذا من أصحاب العين أنفسهم وهذا الأجر هو جزء من ماء العين فينتفع به ان كان يملك أرضاً في حوض العين ، أو يبيعه لأحد ملاك العين إن كان لا يملك أرضاً في حوضها الذي يرويه .

وأمثال هذه العيون : عين طمومي . والجوبة . وتلعرام !

* * *

وهناك عيون مشتركة لا تخضع لنظام « الحساب والرقاب » وإنما يوكل أمرها « لخفير الخطايا » (١١) يوزع الماء بالتوالي ، وأمثال هذه العيون . أم هندد ، ودهيبة ، وبعض عيون خيسة والمراقي (١٢) وذلك لأن مواقعها تبعد عن البلد مسيرة ساعات فلا يتمكن صاحب الدور من أن يلحق به .!

٢ — عيون عامة : وهي التي لا يملكها أحد ، وللجميع حق الانتفاع بمائها ، بشرط ألاّ يستعمله أحد في الري ، إذ أنها تعتبر من المنافع العامة ، كعين (تابا) الواقعة خلف نادي الموظفين بسيره .

٣ — عيون خاصة : وهي التي يملكها فرد أو عائلة ، يرون منها زراعاتهم ، ولا يشاركهم فيها أحد ، كعين الزيتون التي كانت ملكاً للسادة السنوسية وقد اشترتها الحكومة أخيراً بين ما اشترته من أملاكهم في الواحة ، وعين أبي شروف التي يملكها السادة المدنية ، وعين قريشت التي يملكها الأمير محمد عبد المنعم .

وتنقسم العيون أيضاً ثلاثة أقسام من حيث استعمالات الماء :

١ — عيون تستعمل للزراعة والشرب كطمومي وتلعرام

٢ — « لا تستعمل إلاّ للزراعة فقط لملوحة مائها كعين قريشت

٣ — عيون تستعمل للشرب فقط كعين « تابا »

وتنقسم العيون غير ما تقدم ثلاثة أقسام من حيث الحالة الراهنة :

١ — عيون جارية : وهي التي تنتج ماء ينتفع به الآهلون

٢ — « جافة : وهي التي لا تزال موجودة ولكن ليس بها ماء

٣ — « مطموسة : وهي التي اندثرت ولا تزال آثارها تدل عليها

وتنقسم العيون عدا ذلك قسمين من حيث عذوبة الماء

١ — عيون عذبة

٢ — عيون مالحة . .

على أنّ ماء العيون العذبة في سيوة ، أقل عذوبة من ماء عيون الواحات الأخرى ، ولعلّ ذلك راجع الى أنها في صعودها الى سطح الأرض تخترق في طريقها الطبقات الملحية الثلاثية فتأخذ من أملاحها مقادير كبيرة . . وأهم الأملاح التي تحتويها هي الكلور وكلوريد الصوديوم بنسب كبيرة جدًّا .

وتنقسم العيون قسمين من حيث حرارة الماء :

١ — عيون باردة : وهي التي درجة حرارة مائها ٢٥° سنتجراد فأقل كعين أم مفلى وغابة جويدى .

٢ — عيون حارة : وهي التي درجة حرارة مائها ٣٠° سنتجراد فأكثر كعين ملول والجوبة وطموسي على أن يكون ذلك في فصل الشتاء وقتما تكون درجة حرارة الجو بين ٨° : ١٠° سنتجراد .

ويمكن تعليل اختلاف درجة الحرارة في ماء العيون ، باعتبار أن المياه ذات الحرارة المرتفعة تأتي من الطبقة المائية نفسها ، فتنفذ مباشرة وبسرعة صاعدة نحو سطح الأرض دون أن تمر في شقوق أرضية ، وبذا تكون محتفظة بدرجة حرارتها الأصلية ، أو تفقد شيئًا قليلاً منها . . أما المياه المنخفضة الحرارة فيمكن افتراض أنها بسبب نفوذها في تضاعيف نفس هذه الطبقات ، أثناء صعودها تفقد جزءًا من حرارتها الأصلية ، فتنخفض درجة هذه الحرارة . . ؟

ويلاحظ أن عيون سيوة لا يُعرف بالضبط مقدار ما تنتجه من الماء ، إذ لم يعمل لها ميزان تصريف ، على أن وزارة الأشغال قد قامت بحفرها وتطهيرها وبناء أفلبها ، ولكنها لم تقدر كمية الماء الناتج من كل منها . . !

(ب) قارة أم الصُّغَيِّر

وهي واحة صغيرة منعزلة يتصل منخفضها بمنخفض واحة سيوه من الغرب ، ومنخفض القطارة من الشرق ، وتحتوي على عشر عيون ماؤها مملوء بالأملاح لدرجة يتعذر معها شربه ، ولا يوجد بين هذه العيون غير عين واحدة عذبة وهي « عين القطارة » التي يستقي منها سكان الواحة ، وعين أخرى أكثر معدنية منها تسمى « عين باجا » ويلجأ اليها الكنيرون لجلب الماء للاستعمالات المنزلية لقربها من القرية إذ الأولى تبعد نحو العشرين دقيقة ، وحاملات الماء ضعاف يتعذر عليهن المسير هذه المسافة وهن يحملن أحمالاً ثقالاً .

وكل ما قيل في عيون سيوه يمكن أن يقال في عيون « قارة أم الصغير » ولكن مع التبسيط .. !!

(جـ) الواحات الخارجة

العيون والآبار . كثيرة الانتشار بالواحات الخارجة ، ولكنها مع كثرتها لا تفي بالغرض المطلوب ، ذلك لأن مساحة الأراضي القابلة للزراعة تزيد عن ٣٤٠٠٠٠ فداناً ويقع أغلبها في المنطقة الممتدة بين « بولاق » « وباريس » (١٣) في سهل خصيب لا يوازيه في خصبه غير الجزر النيلية على أن الحكومة آخذة في هذه السنوات الأخيرة في العمل على استعمار هذه المناطق زراعيًّا بإخراج عيون جديدة . واذا لم يوقف هذا المشروع الجليل ستصبح الواحات الجنوبية غنية في مائها وثروتها الزراعية في وقت وجيز .

ومن طريف ما يذكر أن الأهلين عندما علموا أن الحكومة قد عقدت النية على استخراج عيون جديدة ، ولم يعد بينها وبين التنفيذ إلا اختيار مواقع هذه العيون . عند ما علموا ذلك راحوا يتظلمون خوفاً من أن تؤثر هذه العيون الجديدة على ما تنتجه عيونهم القديمة من ماء .. وذلك قياساً على ما حدث في آبار (شركة استغلال مصر الغربية) التي تأسست في عام ١٩٠٥ بقصد استثمار مساحة كبيرة من الأرض الواقعة شمالي الواحات الخارجة ، وكان رأس مال هذه الشركة يقدر بحوالي ٣٠٠٫٠٠٠ جنيه مصري ، موزعاً على أسهم ، ولكي تتصل هذه الأراضي بوادي النيل ، مدت الشركة خطًّا حديديًّا ضيقاً ، بين الواحات الخارجة ومحطة المواصلة بوادي النيل وأطلقت على محطاتها بالواحات اسم « الشركة » وهي أول محطة يقف عندها القطار بعد أن يقطع طريقاً يمتد في جوف الصحراء

هابطاً تارةً صاعداً طوراً .. مسافة ٢١٠ كيلومتراً ، وتلي محطة الشركة ، محطة « المحاريق » (١٤) ثم محطة الخارجة . وهي آخر الخط . ولقد كان في النية مد هذا الخط الى الواحات الداخلة على نفقة السلطة العسكرية في عام ١٩١٩ . وصار العمل فيه فعلاً الى نقطة الغرب التي تقع على بعد ثلاثين كيلومتراً غربي مدينة الخارجة ، ولأمر ما توقف العمل عن إتمام مد الخط الى الداخلة .

وقد انحلت هذه الشركة في عام ١٩١٤ لنضوب مواردها المالية . فقد استنفد مد الخط الحديدي ، جزءاً كبيراً من رأس المال . وأنفق جزء كبير آخر في شراء الأراضي والآلات الزراعية ، وحفر الآبار ، وضاع الباقي بين مرتبات الموظفين الضخمة التي كانوا يتقاضونها ، وكانوا جميعاً بين انجليز وأمريكان .

وعند ما انحلت الشركة استولت مصلحة السكة الحديد الأميرية على الخط الحديدي الموصل بين وادي النيل والخارجة ، ونقلت اليه القطارات والعربات التي كانت تعمل بين أسوان والشلال ولا يزال تحت إدارتها حتى الآن يؤدي خدماته الجليلة لسكان تلك البقاع النائية ، من نقل محصولاتهم وما يصدرونه من منتجاتهم الى استيراد ما يحتاجون إليه من وادي النيل .. !!

ولقد كانت مساحة الأراضي الموضوعة تحت تصرف الشركة كبيرة جداً إلا أن المساحة القابلة للزراعة كانت أول الأمر لا تزيد عن الألفين وخمسماية فدان ، وزرع بها بنوع خاص القمح والشعير والقطن والفول ، وقصب السكر وغيرها من محاصيل الاستغلال .

أما الآبار التي حفرتها الشركة ، وكانت حافزاً لوقوف الأهالي في وجه الحكومة عند ما بدأت تحفر العيون الجديدة . فقد كان التداخل بين مياهها ظاهراً بشكل واضح . إذ أن البئر رقم (٦) التي كان معدل تصريف مائها سبعة فراريط (١٥) عند حفرها ، قد انقطع ماؤها عن السيلان . عندما حفرت البئر رقم (٥) وكذلك البئر رقم (٨) كان مقدار الماء المتصرف منها كبيراً إلا أنه تحول للبئر رقم (١٣) عند حفرها .. وهذه الأخيرة فقدت جزءاً كبيراً من مائها عند حفر البئر رقم (٣٩) وكذلك الحال في البئرين رقم (٣٧ و ٣٨) فقد قل تصريفهما عند حفر البئر رقم (٥١) التي كان تصريفها يقدر بثمانية فراريط . !

وقف الأهالي بما تعودوه من دل على الحكومة أمام هذا المشروع ، وإن الأهالي الحدود لدلالة على الحكومة غريباً حقاً .. ولكن المهندس الأمريكي الذي نيط به الأمر . استطاع أن يطمئنهم ، إذ أكد لهم أن المستوى المائي الذي سيخرج منه ماء العيون التي سيحفرها لا يتصل بمستوى ماء عيونهم القديمة في شيء .. وحقيقةً فقد استخرج العين

الأولى على مستوى ١٦٠٠ قدم بينما الأهالي يستخرجون عيونهم على بعد ٦٠٠ قدم فقط وذلك بإنزال ماسورة الحفر الى أصفنجة مائية على عمق أبعد من الأصفنجة المائية التي يحفر عليها الأهلون .. !!

ولقد تدفقت مياه « عين الفاروقية » التي استخرجت بجوار محطة سكة حديد مدينة الخارجة ، حتى أنها وازت أقوى العيون القديمة إذ بلغ تصريفها ٤٨ قيراطاً .. وإن الماء لينحدر من فوهتها كالشلال له دوي وله زبد .. وجريانه شديد الاندفاع . حتى أنه ليبث الروعة في النفس الى حدٍّ كبير .. !!

ومما هو جدير بالملاحظة أن ماء هذه العين يحتوي على بعض الأملاح والأحماض التي تساعد على الهضم بشكل ظاهر ، حتى أن الأهلين الفقراء لا يحاولون الشرب منها خوفاً من أن تعمل مياهها على هضم الكتلة الغذائية سريعاً فيهاجمهم الجوع ، وتكون النتيجة أن تتعدد الأكلات اليومية ، وهذا مما لا يستطيعونه .. ولقد تنبهت وزارة الصحة الى قيمة هذا الماء . فرفعت نبأه الى الأعتاب الملكية ، وكانت النتيجة أن أُحبب به جلالة الملك فاروق الأول ، وأصر جلالته أن يؤتى له بمقدار منه كل أسبوع بقصد استعماله في الشرب ، فكلفت مصلحة الحدود ، جاويشاً من رجال الهجانة بالذهاب كل أسبوع الى الواحات الخارجة بالقطار ومعه صندوق به زجاجة كبيرة ، تملأ بواسطة ومحضور الدكتور والمحافظ من فوهة العين مباشرة ، وتختم بخاتم المحافظة ، وترسل برفقة الجاويش المذكور الى السراي الملكية . من هذا يتبين لنا ما لهذا الماء من قيمة ، وتأثير حسن على الصحة .

حفر العيون

يتبع في حفر العيون طريقتان : (١) الطريقة القديمة (٢) الطريقة الحديثة

١ — أما الطريقة القديمة فهي التي يتبعها الأهالي ، عند ما يقومون بحفر عين أو بئر وهي طريقة عتيقة وبدائية ، إذ أنهم في بعض الأحيان يستغرقون من الوقت سنة كاملة أو أكثر في حفر بئر واحدة ، ملاقين في سبيلها صعاباً جمة ، ويرجع ذلك الى رداءة الآلات التي تستخدم في الحفر ، إذ أنها بطيئة ، تعتمد في كل شيء على قوى سواعد الرجال . وكثيراً ما يصيبها العطب أثناء العمل ، فيأخذون وقتاً طويلاً في إصلاحها . زد على ذلك قلة الأيدي العاملة التي لها دراية بحفر الآبار ، على أن الطريقة المتبعة عند الشروع في حفر عين أو بئر هي أن يجتمع من عقدوا النية على ذلك . ويتفقوا على شروط فيما بينهم ، تبين هذه الشروط حق كل منهم في العين بعد خروجها ، وما عليه أداؤه أثناء الحفر ، على أن أهم شرط

بينها هو أن كل عامل يشترك في حفر العين أو البئر يصبح مالكاً فعلياً لجزء منها ، وجزء من الأراضي التي ترويها ، ومنهم من يشترك في الحفر بماله ، ومنهم من يشترك بساعده . فاذا فُرض أن من اشتغلوا في إخراج العين أو البئر كان عددهم مائة بين منفق مال وعامل بساعده ، فتكون النتيجة أن يكون نصيب الواحد منهم جزء من مائة جزء .

واذا ما اتفقوا على هذه الشروط جميعاً بدأوا في العمل . وهناك بعض من ثراة الواحات يتفقون على حفر آبارهم من مالهم الخاص حتى إذا ما خرجت صارت ملكاً خالصاً لهم . وهناك بعض آخر اتخذ حفر الآبار وبيعها تجارة ، إذ يحفرون البئر ثم يبيعونها بعد خروج مائها ويربحون فيها .

* * *

أما طريقة الحفر ، فتبدأ بأنهم يحفرون حفرة مربعة مساحتها متراً مربعاً ، وعمقها خمسة أو ستة أقدام . وتبطن جوانب هذه الحفرة بجزوع النخيل المشقوقة ، كي لا تسقط هذه الجوانب على القائمين بالحفر ، ويستمرون بعد ذلك في الحفر والتبطين على هذا المنوال الى أن يصلوا طبقة لينة . عند ذلك يكون القاع شبه مجيفة ، فتسوى هذه الطبقة (بمسطرين) ويضعون فوقها (صندوقاً) — كما يسمونه — وهذا الصندوق مربع طول كل ضلع من أضلاعه ٢٢ بوصة ، وارتفاعه يتراوح بين ٦ و ٨ بوصات . وليس لهذا الصندوق قاع ولا غطاء . ويوضع على السطح الذي سبق أن سوى (بالمسطرين) على أن يكون وضعه في وسطه تماماً ، وبدون أي ميل . ثم يملأ الفراغ الموجود حول الصندوق بالمونة والحصى حتى اذا ما وصلت (الدكة) الى الحافة العليا للصندوق ، وضعوا فوقه صندوقاً آخر مماثلاً له ودُكَّ حوله كما صُنع بالصندوق الأول .. وهكذا يضع الصناع صندوقاً فوق صندوق حتى يصلوا الى حافة الحفرة وبعد ذلك يؤتى بثقاب قطره تسع بوصات يسمى (الايمون) ويبدأ في حفر ثقب في الأرض عمقه من ٤٠ : ٥٠ قدماً — كما يتراءى لريس العمل — وفي نفس الوقت تكون هناك (ماسورة) من سيقان النخيل أو الدوم ، قد فُرِّغت ، وقطرها الداخلي ثمان بوصات ، والخارجي تسع بوصات ، تكون قد أعدّت لتغرس في الثقب الى آخره ، فاذا لم يصلوا الى حجر الماء استعملوا مثقاباً آخر قطره ثمان بوصات ، يثقبون به الأرض إلى عمق ٤٠ قدماً أخرى ثم تغرس به (ماسورة) ثانية أقل بوصة في قطرها من سابقتها ، حتى يمكنها المرور في داخلها .. وهكذا الى أن يصلوا إلى حجر الماء .. !!

وعند الوصول إلى حجر الماء الذي يتكوّن عادة من « الكوارتز » الذي يسهل ثقبه بواسطة مثقاب خاص ، غير الذي تقدم ذكره . . فإذا ما اختُرق ، اندفع الماء من ورائه

فوراً إلى سطح الأرض .. وهذا الحجر هو الحائل بين الأسفنجة المائية وما فوقه من طبقات .. !!

وبعد تفجر الماء تقدر كمية المياه الناتجة من البئر أو العين ليمكن معرفة كم قيراطاً تنتج حتى يتسنى معرفة كم فداناً يروي ماؤها .. وكم تستحق الحكومة ضريبة عنها . إذ الضريبة تدفع عن الماء ، لا عن الأرض . وذلك بحساب القيراط المائي خمسين قرشاً . . أما القيراط فهو عبارة عن كمية الماء التي تكفي لري خمسة أفدنة في فصل الشتاء ، وأربعة أفدنة في فصل الصيف .. هذا إذا كان تصريف العين غزيراً ، إذ الماء يتدافع قويًّا فيساعد على سرعة الري. أما إذا كان تصريف العين قليلاً وضعيفاً فإن سرعة الماء لا تقوى إلا على ري أربعة أفدنة هناك وثلاثة في الصيف .

ويقوم بعملية القياس ، رجل يدعى (رئيس الدواليب) معترف به من الحكومة ، وحكمه نافذ على أي عين . . وتنحصر عملية القياس في أن يضعوا في غدير العين وهو جار فكًّا من الخشب له قاعدة وجانبان . ويوضع بحيث تكون القاعدة ملاصقة لقاع الغدير بحال لا تسمح بمرور الماء إلا من فوقها ثم يمنع مرور الماء بين حافتي الغدير والضلعين الجانبيين للفك ، ويترك الماء يمر من الفك حتى يأخذ سيره الطبيعي . ثم يؤتى بسطرة مقسمة إلى ثمانية أقسام متساوية مجموعها ٧ سنتيمتراً تسمى (الطابية) وتبلل الطابية وتدفن في التراب بضع دقائق وبعد ذلك تؤخذ وتوضع عمودية على قاع الفك تماماً . وهنا يمسح الماء الجاري ما علق بالجزء المغمور به — من الطابية — من تراب ، فيكون هذا الجزء هو ارتفاع الماء .. !!

أما الارتفاع فثابت لا يتغير ، وأما الجانبان فلا أساس لهما في القياس إلا لضبط التصريف ، وأما القاعدة فعبارة عن الارتفاع مكرراً يطول ويقصر على حسب غزارة التصريف ، فإن كان التصريف غزيراً تباعد الجانبان ، وذلك بتضعيف قيمة الارتفاع في القاعدة ، وبالعكس إذا كان التصريف قليلاً .. وبذلك تكون العملية كالآتي :

$$\text{القيراط} = \frac{\text{القاعدة} \times \text{الارتفاع}}{٨} = \text{تصريف العين وعدد ما تنتجه من القراريط المائية .!}$$

مثال ذلك : نرمز أولاً للارتفاع بحرف « ا » وللقاعدة بحرف « ق » ونفترض أن الماء وصل في (ا) إلى الخط السادس ، وأن القاعدة (ق) تساوي (ا) خمس مرات فتكون قوة ماء العين هي :

$$\frac{\text{ا} \times ٦ \times \text{ق} \times ٥}{٨ \text{ (رقم ثابت وهو أقسام ا كلها)}} = \frac{٣٠}{٨} = ٣\frac{٢}{٤} \text{ قيراط .. !!}$$

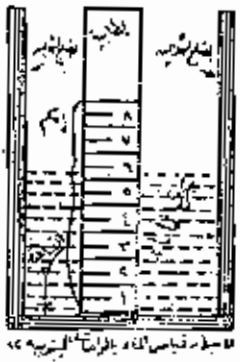

ولكن هذه الطريقة في تقدير تصريف العيون ناقصة إذ يتحتم لكي يمكن ضبطها أن نعرف السرعة لتيار الماء المراد قياسه ، فبعض العيون قوي التصريف ، سريع الجريان ، فلا يمكن أن تكون هذه العيون التي هذه حالها كتلك البطيئة . ولقد أرى أن الماء البطيء يتراكم ويعلو أكثر من السريع هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فإن « رئيس الدواليب » (١٥ م) غفر الله له . يستعمل في القياس طريقة خطأ أيضاً . إذ يحبس ماء العين في المجرى وقتاً حتى يرتفع مستواه ثم يبدأ القياس ، فينتج عن هذا أن يكثر عدد القراريط في حين أن ماء العين قليل ، ولا يتبع الريس هذه الطريقة العقيمة ، إلا إذا كان أصحاب العين ليس في « عينهم نظر » فلم يتحفوه بشيء لحسابه الخاص ، وأما اذا أعطوه ما يجود به الخيرون . فإن الغدير يحفر مجراه حتى ينحدر ماؤه ويرق ، ثم تجري عملية القياس . . . وتكون النتيجة بالعكس ، ويتبع ذلك قلة الضريبة التي تدفع عن ماء العين للحكومة .

٢ — ﴿ الطريقة الحديثة ﴾ وتجري بالماكينات البخارية ، وذلك بإزالة (ماسورة) قاعدتها حلزونية حادة تغوص في الأرض بقوة الماكينة ، وهذه الاسطوانة الحلزونية القاعدة هي الآلة الثاقبة ، وقطرها حوالي خمسة عشر بوصة ، وبعد أن تغوص هذه الآلة الثاقبة في الأرض بمقدار وصلة من الأنابيب التي تمتد في جوف الأرض مكان الطين الذي خلا جوف الاسطوانة الثاقبة منه يُنزلون الماسورة ثم يتبعون أنبوبة بأخرى ، حتى يصلوا الى الأسفنجة المائية . وكلما تعمقت آلة الحفر في الأرض صبوا الماء في داخلها لكي يجعل القشرة الأرضية أكثر ليونة تحت من الآلة الثاقبة ، وهكذا الى أن يصل الحفر الى الطبقة المائية ، وقد تستغرق هذه العملية حوالي ثلاثة أشهر أو أكثر حسب قرب الماء أو بعده . ويكلف حفر البئر أو العين ٣٠٠ جنيه مصري .

ولقد أنشئت عيون كثيرة بهذه الطريقة ، وانتفع بها الأهلون انتفاعاً كبيراً . وفيها عين الفاروقية بالخارجة . وقد بدأت مصلحة الميكانيكا والكهرباء في العمل بهذه الطريقة بالواحات الخارجة في عام ١٩٣٨ وأخرجت عين الفاروقية على عمق ١٥٥٣ قدماً وبلغ تصريفها ٤٣٠ جالوناً في الدقيقة ، وسمك الطبقة الأسفنجية التي بها الماء ٢٠ قدماً وبلغت نفقات حفرها ٩٥٠ جنيهاً . . ومما هو جدير بالذكر أن هذه العيون الجديدة قد لا تعمر طويلاً

إذ أن المواسير الحديدية التي يمرلونها في جوف الأرض . لا تلبث أن يعلوها الصدأ ، فتتآكل ، وتصير غير صالحة لصيانة الماء من أن يتوزع في الطبقات الأرضية التي يمر فيها. وبذلك تضيع الفائدة التي حفرت من أجلها ، ويذهب التعب والنفقات التي أنفقت في سبيلها سدًى ، ولو أنهم جعلوا بدلاً من هذه (المواسير) الحديدية ، أخرى من خشب الدوم ، الذي يكثر في الواحات الخارجة ، ويستعمل في العيون القديمة لهذا الغرض نفسه ، ومنذ مئات السنين ، لكان أضمن لنجاح هذا المشروع العظيم ، ذلك لأن خشب الدوم لا يؤثر فيه أي عامل طبيعي ، فيبقى على مر العصور مصارعاً الزمن والتلف والتآكل .. أما وهم يستعملون (المواسير) الحديدية ، فإنه يخشى على المشروع من أن ينهار من أوله وإن كان ولا بدّ من استعمال الحديد فليُستعلى بالقار .

وللماء حسابان : حساب الحكومة للأهالي . وحساب الأهالي لبعضهم

١ — أما حساب الحكومة للأهالي فبالقيراط ، والقيراط ٢٤ سهماً ويدفع عنه ضريبة قدرها ٥٠ قرشاً سنويًّا .

٢ — وأما حساب الأهالي لبعضهم فبالوجبة .. والوجبة تساوي إثنى عشر ساعة .. وهي أربعة وعشرون سهماً .. وعادةً يباع السهم المائي بمبلغ يتراوح بين ٢ : ٤ جنيهات حسب كثرة قراريط الماء التي تنتجها العين ، وحالة مالكيها المالية .

ولضبط الوقت لإمكان معرفة مواعيد الري لكل مالك في العين يستعملون لذلك ساعات رومانية قديمة تسمى الساعات الرملية (١٦) . وأهم العيون بالواحة هي :

١ — عين الفاروقية : وقد سبق الكلام عنها ..

٢ — عين الشيخ : وهي نبع عظيم يرتفع الى أكثر من مترين ونصف متر عن مستوى سطح الأرض المحيطة بها ، ويجري جدولها المرتفع بين ظلال النخيل الى الحدائق الغناء التي يرويها .. وينحدر من هذا المجرى هلال صغير له رونق وجمال بخريره الدائم ، ومائه الصافي النمير يأخذ طريقه الى مصارف وزاوة الصحة ليغذيها بمائه حتى لا تموت — بسبب الجفاف — الأسماك التي تربيها الصحة في هذه المصارف بالواحات جميعاً لإبادة بعوض الملاريا اذ أنها تتغذى على بيضه ويرقاته ، وترسل هذه الأسماك الى الواحات بالطائرات بين حين وآخر . وقد بلغت في بعض العيون أحجاماً كبيرة حتى أن الإيطاليين إبان إحتلالهم لسيوه كانوا يصيدونها ليأكلوها . ومن أهم صفات هذه الأسماك أنها عمياء لا تبصر .

٣ — عين القلعة : وهي عين أكبر من عين الشيخ قليلاً يجري ماؤها في قنوات ثلاث ، اثنتان خصوصيتان وواحدة عامة. أما الخصوصيتان فهما مملوكتان لعائلتين بالواحة ،

وأما العامة فلكل الأهالي . يروون منها نخيلهم وحدائقهم وبعض حقول الأرز .

٤ — عين الرصّاح : وتعتبر أهم عين في ناحية باريس . وكانت في بادىء الأمر عيناً صغيرة ، تصريفها لا يتعدى الخمسة قراريط . ولكن الأهالي اجتمعوا وبدءوا في جمرها وحفرها من جديد .. وبينما هم يحفرون وهم مطمئنين الى أن الماء لا يزال بعيداً ، فاذا الماء يفور ، ويقذف بالآلات المستعملة في الحفر ، في وجه الحفارين ، وكان في تدفقه كالسيل الجارف .. وكبّر الرجال وهللوا .. ثم حفروا لها المجرى ، وبقياسها وجد أن تصريفها أكثر من سبعين قيراطاً .. ثم أخذ يتناقص حتى بلغ الخمسين قيراطاً .. !!

وتقع هذه العين في سهل فسيح بين غردين من الرمال ، وتبلغ مساحة السهل حوالي ٤٠٠ فدان .. لا تزرع جميعها ، على أن المزروع يغل غلة وافرة .. وحوض العين مختلف في مناسيب الارتفاع ، فبينما نجد أرضاً ارتفاعها متراً ، نجد أخرى أقل منها ، وثالثة أعلا من الأولى .. وينحدر الماء الى جميع الطبقات فيرويها (بالراحة) وهذه النقعة من الأرض في حاجة الى إصلاح ، حتى يمكن استغلالها على الوجه الأكمل ..

٥ — عين دخاخين : وينحدر ماؤها من أعلا الجبل على شكل هلالات متساقبة على منحدر الجبل الذي تغطيه أشجار النخيل والسنط والبرتقال والعنب والليمون في شكل مدرج وكأنما هي غابة من غابات خط الاستواء الغزيرة النبت ..

وأخذني العجب بمنظرها الخلاب والشمس مائلة من وراء الأغصان ترسل بأشعتها التي تلطف من حرارتها خلال الأشجار الباسقة والماء المتكسر فوق الصخور والأحجار .. حقاً .. إنه لمنظر ساحر يحمل النفس الى عوالم غاية في الروعة والجمال . !

ويبلغ عدد العيون والآبار بالواحات الخارجة ٢١٤ عيناً وبئراً طمرت منها إحدى عشر والباقية جارية .. تنتج ٨٢٤ قيراطاً من الماء موزعة كالآتي :

البلد	عدد العيون	الجاري منها	المطمور	عدد القراريط	أقل عمق	أبعد عمق	ملاحظات
الخارجة	٩٣	٨٦	٧	٤٦٣	٢٠ قدماً	٧٨٠ قدماً	ويلاحظ أن عدد قراريط الماء المذكور بهذا الجدول هو مقدار الماء الذي ينتفع به الاهالي فقط.
المحاريق	٢٨	٢٧	١	٧٠	٥ ١٩٠	٥ ٩٠٠	
جناح	٠٩	٠٩	—	٣٦	٥ ٠٤٠	٥ ٥٠٧	
بولاق	٣٥	٣٢	٣	١٢٣	٥ ٨٠	٥ ١٠٠٠	
باريس	٤٩	٤٩	—	١٧٢	٥ ٥٥	٥ ٦٠٠	

ومن هذا الجدول يتضح لنا ان أقل بلاد الواحات الخارجة ماء ، هي قرية جناح ، ولذا فإنك ترى الفقر ظاهراً على أهليها ، والكآبة تظللها بظل أقتم .. ويرجع السبب في هذا لكسل الأهلين واهمالهم عيونهم وتقاعدهم عن القيام بحفرها وعدم دأبهم على المحافظة عليها .. بل يتركونها نهباً لسافيات الرمال تعبث بها فتصد مجاريها منصرفين عنها بالهجرة الى القاهرة وسوف لا يمضي زمن طويل حتى تصير هذه البلدة أثراً بعد عين اذا لم يتداركها الله برحمته

(د) الواحات الداخلة

.. والماء دائماً مشكلة المشاكل في الصحراء وخصوصاً في الواحات الداخلة فلا تقوم العداوة بين فرد وفرد ، إلاّ من أجل الماء ، ولا تحقد بلد على أخرى ، إلاّ لأن هذه منخفضة المستوى عنها ، وعيونها تسحب ماء عيونها .. وكما سبق أن بينا على قدر الماء الذي يملكه الأفراد تقدر ثرواتهم .

والعيون تكثر بالواحات الداخلة وتنقسم ثلاثة أقسام

١ — عيون جارية : وهي التي ينساب الماء منها الى الزراعات فيرويها بغير آلات رافعة

٢ — عيون غير جارية : وهي التي يرفع ماؤها بالسواقي .

٣ — عيون مطمورة : وهي التي جفت وردمت . ولكن أصحابها لا يزالون يدعون ملكيتها ، ويؤدون عنها حصة الحكومة عن كل قيراط مما كانت تنتج خمسين فرشاً .. يقودهم في ذلك الأمل الى أنهم ربما يستطيعون إخراجها في المستقبل ، ولكن أهالي البلاد جميعاً يقف بعضهم لبعض بالمرصاد ، فاذا ما أراد أحد إخراج عين طمرت ، ضج الآخرون بالشكوى ، لولاة الأمور في مصلحة الحدود ، مدعين أن فلاناً سيخرج العين الفلانية ، وهذه العين خطر على العيون الأخرى ، لأنها تقع في مستوى أقل من مستواها ، وأنها ستسحب ماءها بلا ريب ، وتقوم مصلحة الحدود بدورها فتمنع البادىء في الحفر من إتمام عمله .. حتى ضاقت بهم الحال . وبرمت مصلحة الحدود بكثرة شكاواهم . . وأخيراً فكرت الحكومة في اخراج عيون جديدة ليست ملكاً لأحد ، فاذا بهم ينهجون نهج أهل الواحات الخارجة ، في محاولة إيقاف العمل ، بنفس الحجة التي دائماً يتخذونها ذريعة لمنع الخير عن بعضهم البعض .. إلاّ أن شكوى الشاكين لم تلق اهتماماً ، وبدىء بالعمل فعلاً في البلاد القليلة الماء أولاً ، تفرجت عين الفاروقية (بموط) (١٧) وقد بدأ العمل فيها في أوائل اكتوبر سنة ١٩٤٠ بإشراف المهندس المصري (محمد افندي يوسف طويلة) واستغرق الحفر ثلاثة أشهر ... تفجرت بعدها العين بماء غزير . إذ بلغ تصرفها في الدقيقة ١٢٨٠ جالوناً

من الماء من (مامورة) قطرها عشر بوصات ، وبلغت نفقات الحفر ٥٠٠ جنيه مصري تقريباً . . أما عمقها فبلغ ٧٦٤ قدماً . وهاك قطاعات للطبقات الأرضية التي صادفها المهندس أثناء الحفر :

قدم	سمك الطبقة بالقدم	نوعها	البعد عن سطح الارض بالقدم
	٨٣ قدم	طين أحمر	
٧٦٤	٢٧٠	طبقات رملية مختلفة	وهذه هي الأصفحة المائية الأولى التي يحفر عليها الاهالي لاخراج آبارهم بطريقتهم وتبعد عن سطح الأرض ٨٣ قدماً
	٢٠٥	طين أزرق	٣٥٣ قدماً
	٢٠٦	طبقات رملية مختلفة	وهذه هي الأصفحة المائية الثانية التي تحفر الحكومة عليها في الواحات الداخلة . وتبعد عن سطح الأرض ٥٥٨ قدماً

وجملة العمق الذي وصلوا اليه ٧٦٤ قدماً

وعند ما تفجر ماء العين قامت مصلحة الحدود بتوزيعه على المستحقين الذين لا يملكون ماء ، أو يملكون ماء قليلاً . واحتفظت لنفسها بالنصف من ماء العين ، على أن تفرض عليهم إيجاراً للماء الذي أعطتهم إياه بعد ثلاثة أعوام ... !

وبعد الانتهاء من فاروقية موط ، أخذت الماكينة تتنقل بين البلدان الأخرى مبتدئة دائماً بالبلدان القليلة الماء ، ثم التي أحسن حالاً منها وهكذا . . وكانت النتيجة ان خرجت في القصور عين لا تقل عن فاروقية موط في تصريفها ، وبذلك أنقذ القضاء أهل القصور من شيئين :

الأول : طول المسافة التي يقطعونها لاجتلاب ماء الشرب إذ أن ماء العيون المحيطة بالبلدة والقريبة منها مرّ وبه مادة حديدية قوية جداً حتى أنه إذا وضع قليل منه على الشاي اسود لونه وصار قاتماً .. وهذا يستعمل في المنازل للضروريات .

والأمر الثاني : هو أن الأطفال ينحدرون الى مجاري هذه العيون فيستحمون فيها ، وتؤثر المياه الحديدية على عيونهم فتصير نصف مقفلة كالعوراء وما هي بعوراء (فرد كريمه)

أما وقد تفجر الماء العذب حول القرية فقد تخلص الأهالي من هذين الأمرين .

وخرجت عيون أخرى بالجديدة وبدخلو ، ولا يزال العمل مستمراً .. !!

وتحاسب الحكومة الأهالي على الماء كالحارسة .. ويحاسب الأهالي بعضهم بعضاً .. بالأمبلة .. والأمبلة = ١٢ ساعة وتساوي أيضاً ٣٠ قدحاً وتساوي أيضاً ٦٠ حبة كبيرة وتساوي ١٢٠ حبة صغيرة ومقدار الحبة الصغيرة ست دقائق .. ويستعملون لضبط الوقت في توزيع الماء ساعات مائية (١٨)

ويؤخذ من كشوف الحصر الذي أجري على قراريط الماء بالواحات الداخلة عام ١٩٠١ أن بلاد الواحات الداخلة كانت تجري عيونها وينابيعها بحوالي ٢٤٨٢ قيراطاً من الماء يزرع عليها مساحة ١٢٤١٠ فداناً ، وكان الأهالي قليلين ، وأما الآن وقد صار عددهم يربو على العشرين ألفاً فإن ما عدم نقص الى ١٨٧٢ قيراطاً .. وتبع نقص الماء ، نقص في المساحة المنزرعة إذ بلغت ٩٣٦٠ فداناً مما أدى الى سوء الحال وضياع بعض الزراعات التي كانت تدل غلة وافرة . ولنضرب مثلاً على ذلك ما ترتب على جفاف عين الرحمة بالراشدة ، وكانت تنتج واحداً وعشرين قيراطاً ، وصارت بعد جهد جهيد لا تنتج غير ثلاثة قراريط .. ومسمسات بئر الرحمة ، وبجنانها مات من الأشجار ٤٠٠٠ نخلة .. و ٥٠٠٠ شجرة مشمش و ١٠٠ زيتونة و ٥٠٠٠ شجرة برتقال . ولو فرض لكل نخلة عشرة قروش كغلة في العام ولكل شجرة مشمش مثلها ، ولكل زيتونة عشرين قرشاً ولكل شجرة برتقال عشرة قروش أيضاً لكانت الخسارة التي تكبدها أهالي هذه القرية :

١٠ × ٤٠٠٠ + ١٠ × ٥٠٠٠ + ٢٠ × ١٠٠ + ١٠ × ٥٠٠٠ = ١٤٢٠٠٠

قرش في العام عدا ما كانت تنتجه أراضي العين من محاصيل القمح والأرز .

على أن الأمل قوي في أن مشروع الماء الجديد سيعيد الى البلاد ما كانت عليه من عمر ورفاهية . ومن الغريب الذي يلاحظ ان الماء قل ولا يزال الأهلون يؤدون عنه الضريبة كما ربطت في عام ١٩٠١ والعيون بعضها فاض ماؤه من زمان بعيد . .

وماء عيون الواحات الداخلة مرتفع الحرارة .. وتبدو هذه الظاهرة بوضوح في آبار الشمال أكثر من آبار الجنوب ، ذلك لأن درجة حرارة البلدان الشمالية مرتفعة جداً إذ تبلغ في بئر « الدينارية » مثلاً (٤٠°) منتجراد وهذه البئر عمقها ١٤٤ متراً . أما بئر العمدة المشهورة في قصر الداخلة فتبلغ حرارة مائها أيضاً (٤٠°) أما البئر الحامية فكان ماؤها ينضج البيض إذا وضع فيه بضع دقائق وذلك منذ سبعين عاماً كما يقول بعض المعمرين في الداخلة .

وقد ذكر (بنذل) أنه من الصعب معرفة الأسباب التي يعلل بها ارتفاع درجة حرارة مياه آبار الواحات الداخلة ، لأنه لا يمكن تعليلها بارتفاع حرارة الصحراء . . مع مراعاة العمق الشاسع للطبقة المائية التي يأتي منها الماء . ولا يمكن أيضاً تعليلها بالحرارة التي تتولد من احتكاك قشع الصخور المتحركة لأنه لا يوجد هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن تحركاً كهذا يحدث في هذا الجزء من صحراء ليبيا .

ولكن يمكن أن يُستنتج أن ارتفاع حرارة مياه هذه الآبار إنما يُعزى الى سبب واحد وهو كثرة العمق الذي تأتي منه هذه المياه ، وأنها إنما بلغت هذا العمق في باطن الأرض أثناء مرورها فيه ابتداءً من المنطقة التي بدأت منها ، الى المكان الذي خرجت فيه بالواحات الداخلة

وذكر (أونوميبادور) أن أهالي الواحات الداخلة كانوا مشهورين بحفقهم في حفر الآبار إلا أنهم في خلال غزو العرب أهملوا أمر حفرها فانطمر أغلبها ، وبطلت زراعة مساحات كبيرة من الأرض . .

ومن أجل العيون بالواحات الداخلة العين الموجودة باستراحة عمدة « الحنداو » فانها جميلة مستطيلة صافية يجري غديرها في حديقة منظمة تظلله أشجار الموز والمنجو . وحولها يقع منحل وزراعة الزراعة الذي ينتل غلة وافرة .

والماء يخرج غزاراً في شكل يلذ للعين أن ترقبه ، دون أن يعتريها الملال . .

ومما يكثر ترديده على السمع في الواحات الداخلة (آبار مبهوب) وهي عبارة عن مجموعة آبار ، مكونة من إحدى عشر بئراً حفرت حوالي عام ١٨٨٥ بواسطة « الشيخ محمد مبهوب » تلميذ السنوسي الكبير ، الذي كان من قبله ينشر الدعوة للمذهب السنوسي الذي يسيطر على صحراء ليبيا ، بين برقة وطرابلس ومصر . . وتقع هذه الآبار في أرض منخفضة المستوى ، لذا فهي تمتاز بغزارة مائها ووفرة غلة أراضيها ، وقد اعتبرتها الحكومة أخيراً بين ما اشترته من أملاك السنوسية في صحراء مصر الغربية . . !!

(هـ) الواحات البحرية

وتعتبر الواحات البحرية ، أقل الواحات الغربية ماء ، ذلك بالنسبة لسعة الأراضي التي يجب أن تزرع ، والقابلة للزراعة ، لكي تفي بحاجة الأهلين الكثيري العدد ، إذ يزيد عدد السكان عن الستة آلاف نسمة ، ويرجع السبب في قلة الماء هكذا الى أن الأهلين لا يحاولون استخراج عيون جديدة إلا نادراً ، وذلك لضعف بنيتهم ، وعدم قدرتهم على الكفاح ولقلة ذات اليد . ولما يوصفون به من الكسل والتواكل في أغلب الأحيان . وهم لا يقومون

بتنظيف عيونهم إلا نادراً . هذا من ناحية الأهالي . وأما من ناحية الحكومة . فان الواحات جميعاً قد عُمرت برعاية الحكومة إلا الواحات البحرية ، فانها لم تنل غير عطف المغفور له الأمير عمر طوسون باشا فقد كان كثير الحدب عليهم ، والرأفة بهم ، فكم قام بالرحلات على نفقته الخاصة ، لكي يوزع عليهم الهدايا والصدقات . ولقد أهدى اليهم أكثر من دولاب لحفر العيون ، وأمر استعمال هذه الآلات بشكل ظاهر . ولقد فقد أهل الواحات البحرية بفقد سموه أكبر نصير لهم عطوف عليهم !

والمنتظر أن تنتقل ماكينات الحفر الى الواحات البحرية بعد الانتهاء من الداخلة والخارجة.

وأغلب العيون الموجودة بالواحات البحرية تنبع من سفوح الجبال ، وينحصر ماء العين في قنوات تسير تحت الارض بانحدار قليل نحو الوديان التي تزرع عليها ، ولقد جعلت عليها — على القنوات — فتحات عمودية . على مسافات قصيرة . كما فطن لتسهيل تنظيفها في أقبيتها والمحافظة عليها والعناية بها .. وهذه الفتحات مستطيلة ، منحوتة في الصخر ، ولها درجات منقورة في كل ناحية ليسهل النزول اليها وقت اللزوم .. !!

ولقد شُيِّدت هذه الأقبية في العهد الروماني ، وحالتها الراهنة تدل على أن الذي صنعها خبير ماهر ذو دراية كبيرة ، فانها لا تزال جيدة رغم ما مرَّ بها من صروف الزمان .

ويخرج الماء من أقبيته ، الى قنوات مكشوفة ، تنحدر الى المزارع الواقعة في السهول الفسيحة المنبسطة ، وتقع معظم هذه العيون ذات الأقبية بجوار القرى ، حيث المرتفعات المجاورة للسهول فيسهل سحب الماء منها الى الأرض دون استخدام الآلات والدواليب .. !!

ويبلغ مجموع العيون بالواحات البحرية ٢٠٤ عيناً موزعة كالآتي :

٣٢ عيناً بالبويطي و ٥٩ عيناً بالقصر و ٧١ عيناً في منديشة و ٤٢ عيناً بالزبو . والماء المنصرف من هذه العيون جميعاً يستعمل في الري ولا يعرف مقدار ما تنتجه كل عين ، وذلك لأنه لم يعمل له حساب حتى الآن ، والعيون جميعها عذبة الماء باردته ، الا إلا عدد قليل منها يعتبر حار المياه ، ويحتوي ماء أغلب العيون على رواسب مختلفة الالوان .. ومن أهم عيون الواحات البحرية :

١ — عين البعمو[1] : من أجل العيون بالصحراء الغربية قاطبة ، إذ تنفجر من جذوة في باطن الصخر ، ومن أمامها يبدو وادي المخضوضر في روعته فاتناً كل الفتنة .. ويسير ماؤها في المجرى الذي شقه لنفسه على مر العصور ، تحت سطح الأرض في الطبقة الصخرية التي تغطي العين ، ثم يخرج الى سطح الأرض من فتحتين منفصلتين متجاورتين تسمى إحداهما

(١) وقع خطأ في العبارة المكتوبة تحت صورة عين البعمو اذ كتبت عين الحجر ، وفي الواحات البحرية بدلا من البحرية .

« البشمو » والأخرى « دودير » . وإحدى الفتحتين ذات ماء حار إذ تبلغ درجة حرارتها ٣٣° سنتجراد . . وأما الأخرى فبارد ماؤها كثيراً عن الآخر

والمياه التي تخرج من الفتحتين تتجمع على بعد أمتار قليلة من فتحتي الخروج وتكوّن غديراً واحداً يسير مسافة ١٥ متراً ثم ينحدر في هلال صغير قوي استغله الأهالي في ادارة طاحونة لطحن الغلال . ثم يسير الماء في مجراه بعد هذا التلال الصغير الى حيث يتفرع في قنوات أربع ، تقوم على أول كل منها فتحة منقورة في ساق شجرة من أشجار السنط أو الخرّوب ، وتسمى كل فتحة (فكّة) وذلك لأحكام توزيع الماء ، ولكل فك اسم يعرف به .. وهي :

١ — فك النقطة : ويأخذ خُمس ماء العين ، ويستعمل لري الحدائق ، والباقي يوزع بين الأربعة الأخرى .

٢ — فك القصراوية : ويأخذ ربع المياه الباقية بعد ما يأخذه فك النقطة ..

٣ — فك الغب : ويأخذ ربع المياه أيضاً ويجري في مجرى يسمى باسمه

٤ — فك الآبار : ويأخذ الباقي ويجري في مجرى يسمى باسمه

ويستعمل ري هذه الجداول الثلاثة الأخيرة في ري زراعات الأرز

٢ — عين الموفتلا : وتقع على مسيرة كيلومترين تقريباً من الشمال الغربي لآخر ما كان قرية القصر . ويمتاز المكان الذي يخرج منه ماء هذه العين بمزايا هامة جداً ، فالماء يخرج الى المجرى المكشوف بثلاث قنوات مختلفة ، ولكل من هذه الفروع مميزات من الطرافة بمكان . فالفرع الأول يمر في قبو صخري في الجهة الشمالية ، وفتحته وجوانبه الصخرية مغطاة بنبات شعري ، يانع جميل المنظر .. وفي نقطة أخرى يمر ماء الفرع الثاني ، بين شقوق في الصخر ، ويصب في حوض صغير ، هو نفسه مكان منبع الفرع الثالث .. وهذا الحوض الصغير المستدير الشكل يبلغ قطره من ٥ — ٦ أمتار تقريباً ، ويخرج الماء منه على هيئة فائرة ويصعد منها متقطعاً ، فتصعد كمية من الماء ، وتعقبها كمية من الرمل ، فأخرى من الماء ورابعة من الرمل ، وهكذا على التوالي .. !!

وتتجمع مياه هذه الفروع الثلاثة في بركة صغيرة تسمى « المحبس » يخرج منها غدير متعرج يسير إلى مسافة بضع عشرات من الأمتار ، ثم ينقسم الى قنوات تتحدر مياهها بشلالات منفصلة في ثلاث جهات مختلفة ، وتنصرف الى أكثر من مائة حديقة ، لا تزيد مساحة الحديقة منها عن فدان تقريباً .. ويلوح أن هاتين العينين من العيون الطبيعية التي لم تعمل في حفرها يد إنسان .. !!

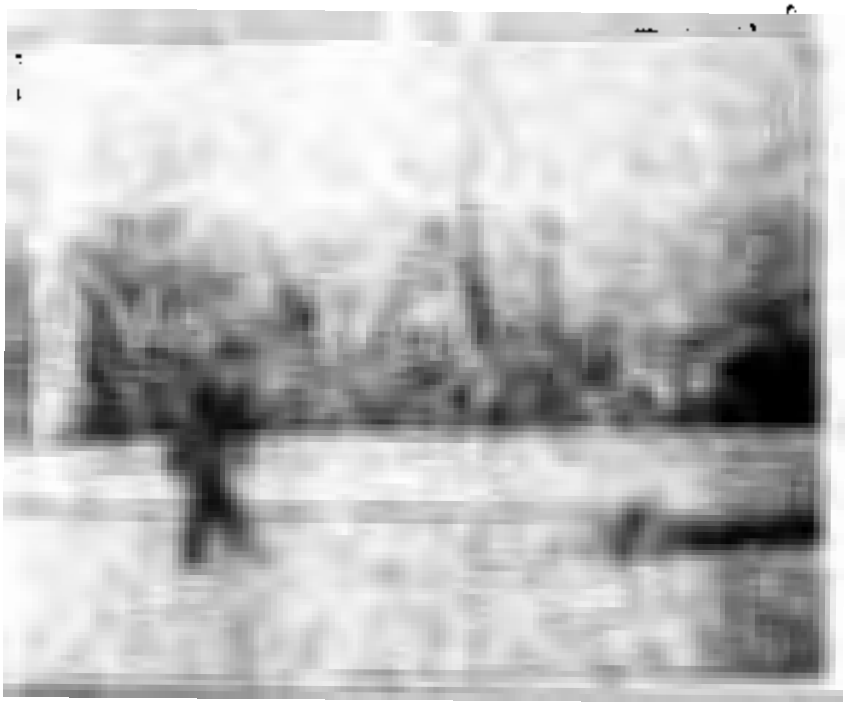

عين فليوس وهي أصغر عيون سيوه وعلى حافتها جلس المؤلف وبجواره سور العين جدوع النخيل ملقاة على الارض

عين الشجر وهي أكبر عيون الواحات البرية وتمتاز بأن مياهها باردة في قناة وساخنة في قناة أخرى ، وكلا الاثنين من منبع واحد

وعداها توجد عيون أخرى كثيرة ذات منظر جميل يلذ للعين أن تستمتع بما له من روعة وجلال ..

ويوزع الماء بين الأهلين بحساب الطرف .. والطرف اثنى عشر ساعة ، ونصفه وثلثه وربعه .. ولا يعرفون حساباً للماء غير ذلك .. والبيع للملكيات على أساس الطرف المائي أو أجزائه .. !!

وأهل الزبو يحسدون أهل القرى الأخرى بالواحات البحرية على كثرة ماء عيونهم ذلك لأن العيون التي يملكها أهل الزبو قليلة الماء بسبب طمر الورود لها .. وأكثر حقدهم على أهل الباويطي والقصر ، لأنهم يملكون بعين البشمو العظيمة ، الكثيرة الماء ، وهذا الحسد قديم ، ولقد قام من جرائه كير بالزبو ، وكان صاحب نفوذ وقوة ، وحفر ترعة كبيرة من الزبو ، وصار بها نحو عين البشمو لكي يحول ماءها لقريته عنوة واغتصاباً .. وكان أن قام أهل القصر والباويطي يدافعون عن مائهم ويذودون عن حوضهم ، واشتبك معهم أهل الزبو بزعامة كبيرهم في معارك قتل فيه كثيرون ومن بينهم صاحب الفكرة .. ولا تزال آثار ذلك المجرى يلم بها الساري في بعض الطريق بين الباويطي والزبو

(و) واحة الفرافرة

ليس في واحة الفرافرة ما يمكن أن يكتب عنه غير أنها قليلة السكان ولا تتعدى قرية واحدة ، وعيونها لا تزيد عن العشرين عيناً ، تجري ماء يستعمل جميعه في الزراعة ، ولا يترك منه أي مقدار لكي يذهب هباء ، وأغلب هذه العيون تقع حول « قصر الفرافرة » وهي القرية الوحيدة بالواحة ، ولا يختلف توزيع الماء فيها عما يتبع في الواحات البحرية في هذا السبيل .

وعلى بعد خمسين كيلومتراً في الشمال الغربي لقصر الفرافرة ، تقع عين « الدالة » في المنخفض المسمى باسمها وتوجد هذه العين في السهل على ارتفاع ١٢٠ متراً من سطح البحر ولكن هذا السهل المرتفع يعتبر منخفضاً بالقياس الى الجبال المحيطة به ، وتوجد العين في قمة تل من الرمال مكون من ثلاث طبقات ، يبلغ ارتفاع الطبقة الأولى منه مقراً عن سطح السهل الواقع في الجهة البحرية ، وترتفع الثانية ثلاثة أمتار فوق الطبقة الأولى ، وترتفع الثالثة خمسة أمتار فوق الثانية .

والماء محاط بحجيرات الغاب . والنبع ينخفض بمترين عن قمة الجبل الذي يكون هيه قمع

حوله ويمنعه من السيلان في غير مجراه . . وهذا الماء من حيث صلاحيته للشرب يعتبر من أجود مياه صحراء ليبيا .

وتوجد عدا ذلك ينابيع كثيرة في الصحراء . ولكنها لا تستعمل للزراعة ، ولكن للشرب . ذلك لأنها تنبع في بقاع غير مأهولة بالسكان . غير أنها تؤدي خدمة جليلة للقوافل لوقوعها على دروبها التي تسلكها ، فتتزود منها أثناء السفر الطويل الشاق الذي تمشي به في الصحراء القاحلة . . ولما كانت هذه الينابيع ليست لها قيمة من الناحية الاقتصادية فقد رأينا ألا نطيل الحديث عنها خصوصاً وأنها لا تختلف كثيراً عما ذكر من الآبار .

وكل الماء الذي في الصحراء تقريباً يصلح للزراعة ، ولكن ليس جميعه يصلح للشرب ، ذلك لأن هناك عيون تزيد نسبة المواد الراسبة في مائها عن ١٠٠٠ جزء في المليون . . وهذه النسبة من الرواسب هي أقصى كمية يُسمح بها في ماء الشرب . . ومثل ذلك كل عيون سيوه وقارة أم الصغير . ولكن الأهلين يشربونه في غير امتعاض لتعوّدهم عليه فقد درجوا على شربه . . أما نحن أبناء وادي النيل ، فعند ما يذهب الواحد منا إلى احدى مائين الواحتين فإنه يمضي أياماً قبل أن يستسيغ الماء . وليس في الشرب فقط عدم الاستساغة بل وفي الشاي والقهوة ، وكل ما يصنع به . وما هي إلا أيام ويتعوده كما تعوده أبناء الواحة من قديم الزمان . !!

وتعتبر واحة قارة أم الصغير ، أكثر بقاع الواحات ملوحة للماء إذ يبلغ مقدار الرواسب في الماء ٦٠٠٠ جزء في المليون ويصل في بعض العيون إلى ٩٠٠٠ جزء في المليون . . وبينما نجد أقل نسبة للرواسب في ماء عيون قارة أم الصغير ٣٧٩٠ جزء في المليون وفي صوه ١١٩٠ جزء في المليون . . نجد أن أكبر نسبة في الواحات الأخرى ، لم تتعدّ الألف جزء في كل مليون . . هذا إذا استثنينا عين فائم في القرافرة ، وعين العميلي والشفرة في البحرية ، وخمس عيون في الداخلة أكثرها في القلمون . . وسبعاً في الخارجة أكثرها في بولاق . . بينما عين نسبة وعين الواعلية لا تصلحان للشرب اطلاقاً لاحتواء مائهما على مواد عضوية وحديدية كثيرة .

١ = الى الصحراء

..وتركنا القاهرة والشمس الغاربة ترسل أشعة هزيلة، تنعكس على زجاج نوافذ القصور، فتحدث وهجاً أحمر كأنه اللهب المتقد، تمتد ألسنته من أتون متأجج . . وأخذت السيارة تطوي الطريق نحو الأهرامات، والهواء البارد يتدفق على جانبيها، ثم التوت بنا منعطفة وسط الصحراء، مندفعة كالماء ينحدر من هلال، والشمس تبتعد شيئاً فشيئاً، حتى توارت بين أستار الغسق، ولم تزل بقية من دمعها الدامي تخضب الأفق، وتنعكس على الرمال والأحجار الساجية على جانبي الطريق . . !!

وأقبلت بواكير الليل تسترق الخطى كالكتائب، وأخذت صفوف الظلام تمتد فوق ربوع الكون . ولا زلنا نطوي الأرض، ولا بصيص لنور يضطرب وسط هذه اللانهاية، إلا ما يقع من مصباحي السيارة الأماميتين، تشقان الظلمة من أمامها، وهي تعلو وتهبط غير مبالية بوعورة الطريق، وحلوكة الليل .

وكنت جد طروب بهذا كله، إذ أرى فيه صوراً ما كنت على علم بشيء منها من قبل، وفجأة لمحنا نوراً يلوح في الأفق البعيد، ما لبث أن اختفى، وما هي إلا لحظة حتى أقبلت سيارة تدق الفضاء، وكأنها الأجل العارض، وخلفتنا — ذاهبة الى القاهرة — كفريسة تتراءى لليائس في ظلام الحياة، ثم تفلت منه قبلما يتمكن من إدراكها . !

وتقدمنا في الطريق أميالاً، فلاح لنا ضوء جديد ما كدنا نتساءل عنه في أنفسنا حتى أدركناه، وكانت محطة اللاصلكي الواقعة في الثلث الأول من الطريق الصحراوي، وما هي إلا لحظة حتى خلفناها وراءنا . وانطلقنا لا نرى شيئاً إلا ما يقع تحت مصباحي السيارة . . ثم لاحت لنا أضواء ومصابيح كهربائية، وأعدنا الكرة في التساؤل، فاذا بنا نقف أمام ما كنا نريد الاستفسار عنه، وكانت نقطة « هجانة » ترابط في وسط الطريق، ومقهى ونزل ومطعم، وبجانب هذا كله يمتد طريق شركة وادي النطرون

وواصلنا السير حتى اذا ما قطعنا بضعة كيلو مترات، وقفت بنا السيارة فجأة، فقد

أصاب العطب إحدى عجلاتها الخلفية ، وفي هذا الظلام الدامس ، وهذا السكون الشامل التي يُذكّر من زار آثار الفراعين بسكون مقابر طيبة . . أخذنا في إصلاحها ..

كان الهواء بارداً ولا شيء من حولنا يتحرك إلاّ يدي السائق تعملان في إصلاح العجلة التالفة . وفجأة ومض فوق رؤوسنا ضوء وسمعنا حركة تدنو ، فأرسلت بصري في هذه الملكة النائمة . مستكشفاً هذا النور الجديد . فاذا به من سيارة مقبلة من القاهرة ما لبثت أن اختفت في منخفض من المنخفضات التي ينحدر إليها الطريق ، ثم رحت أحدق في الظلام ثانية علّني أعرف مبعث هذه الحركة التي تدنو . فاذا بها قافلة من الإبل تجتاز الطريق الصحراوي . مقبلة من وادي النطرون ، وبعد دقائق اقتربت منا السيارة ، وكأنها لحين المواتي ، فصرتنا بنورها ، وكنت أقدّر في نفسي أن من بها سيقفون بنا فيتساءلون : هل من معونة ؟؟ إلاّ أنني رأيتها وقد ضاعفت سرعتها عند ما اقتربت منا ، ومرت كالبرق مسرعة !!

وبعد هنيهة كان السائق قد انتهى من عمله ، وتحركت مركبتنا ، وشعرت أن عبئاً ثقيلاً قد أزيح عن صدري ، فقد أخذت سرعتها تتزايد ، وتتضاعف فاذا بالتي مرت بنا سافرة ، تتخاذل في سيرها ، ثم اذا بنا نأثر لأنفسنا ، فنمر بجانبها دون أن نعبأ بها ، ثم تعادينا في السير ، دون مهادنة في السرعة ، كأنما تجري بقوة سحرية الى قضاء مجهول وبغتة التوى الطريق فألقت السيارة بنورها على أرض بجواره ، فلاحت لنا خضرة كاسية وكان السائق الماهر ملمّا بكل شيء حول الطريق الذي يجتازه ، فسألته : ما هذه الخضرة التي تكسو رمال الصحراء ؟ فأجاب : انها حقول الشعير التي يزرعها البدو على مياه الأمطار . ولقد كنا في الثامن والعشرين من شهر ديسمبر وكانت الأمطار قد هطلت بغزارة في اليوم السادس من نوفمبر ، فتكونت عنها سيول غمرت الأرض وقتاً ليس بالقصير . فهذا اذن منتهاها .

ورحت أحدق في الظلام علني أرى جمال هذه المزارع النامية في البيداء ، ولكن عبثاً حاولت . فالظلام حالت دون بصري وما يريد أن يستكشف ، وبينما أرجع البصر محاولاً اختراق سجوفها ، إذ تراءى لي قنديل يضطرب وسط لاهاياتها الدامسة . ولم تمض برهة حتى كنا نمر أمام مقر هذا القنديل ، فاذا به في خيمة أعراب ممن يقطنون وسط مزارع الشعير ، ولم أتساءل عنه قبل بلوغه ، فقد رأيت أن من الصواب ألاّ أهمل السائق بكثرة الأسئلة ، فلا يضطرب ذهنه الذي ينحصر في عجلة القيادة . وبالصبر سأرى بنفسي وأقف على كل شيء .

وبعد ساعة تقريباً بدت لنا شعلة من النور في الأفق البعيد ، كأنها جهنم تتقد بأجساد

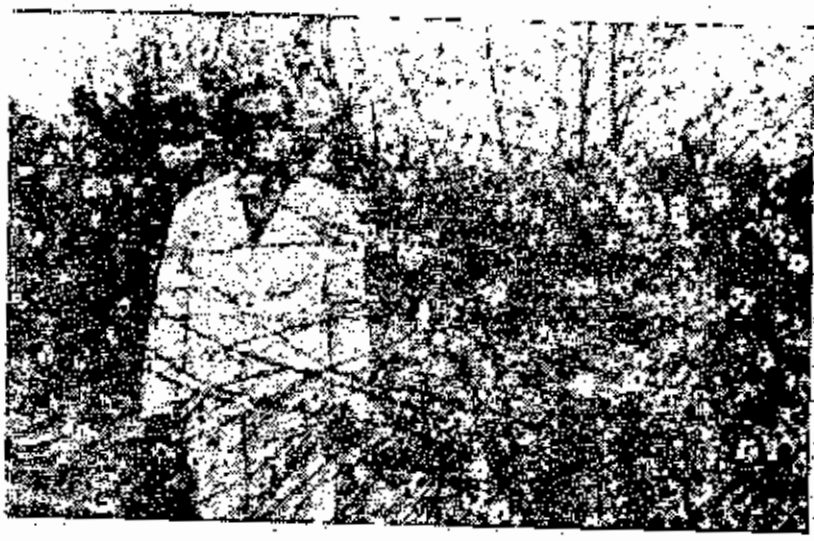

الربيع في برقوط (شجر اللوز المزهر)

فتيات البدو في الواحات البحرية

الثالمين . فقد كانت عظيمة المساحة حتى انني نسيت بأزائها ما عاهدت نفسي عليه من الصمت فسألت السائق : ما هذه الأضواء الجمة ؟ فقال : انها العامرية . ومرحان ما استدرك عند ما مررنا بين ثكنات الجيش الانجليزي القديمة فقال : بل هي الاسكندرية .

عروس الماء ، وقادة الصحراء ، تبعث النور في عرض البحر الزاخر فيهتدي به كل فلك ماخر ، يلاطم عبابه ، ويعلو فوق قبابه . وترسل بأشعتها فوق البيداء القفر فيسترشد بها كل من ضل في المسلك الوعر .

وبعد برهة ، وأمام المعر المؤدي الى العامرية ، تركنا الطريق الصحراوي المعهد والتوت بنا السيارة بين مزارع الشعير ، في طريق غير معبد ، الا أنه كمشاة وسط بساتين أنيق تحف به المروج الخضر من الجانبين ، والقناديل متناثرة هنا وهناك ، تحقق في بيوت الأعراب ، وعلى ضوء السيارة رقصت الأرانب الجبلية التي انبثت وسط المزارع ترعى الكلأ متخفية من ظلامة الليل حجاباً يسترها عن العيون والأبصار . واستوقفت بصري هجيرات وسط الشعير أكبر من صويحباتها ، فأدركت أنها ليست كلها من صنف واحد ، الا أنني لا استطيع أن أميزها ، لعمق الليل وكثافة الدجى ، وسرعة السيارة ، ولكنها كفتني مؤونة التحقيق والتدقيق ، فقد ميزت نفسها بنفسها ، إذ بدت منها نباتات تحمل أعواداً وهذه الأعواد تحمل أزهاراً فأوقفنا السيارة ، واقتطف السائق حاملاً زهرتين مما على جانبي الطريق .. يا عجباً يا عجباً .

ان ما بيدي إن هو الا عود من أعواد النرجس ، عليه أزهاره العاطرة ، فيالها من طبيعة قادرة ، كست نفسها بنفسها ثوباً بدت فيه رائعة الجلال ، فها هو ذا النرجس الجبلي ، يزحم الشعير في منبته ، وها هم أولاء الأعراب ينعمون بجمال كما الله به القفر فصار روضاً يانعاً !! وان الانسان ليجهد نفسه في زراعة هذه الأبصال ، وتربيتها في البساتين والحدائق ، ويروح يفخر إذا ما أنبتت نباتاً له من الحسن نصيب ، ولو تجول في ربوع الصحراء الجرداء صيفاً ، الفناء العامرة غناء لاستمتع بالجمال الالهي الذي يغني نفسه في تقليده : فتلك هي الأبصال نامية في العراء ، سقياها المطر وبستانها الطبيعة .. !!

ولم أفق من عجبي إلا على أثر انبعاث أضواء كثيرة فجأة ، وكان السائق على علم بأنني لم أشق هذه الطريق من قبل : فقال دون أن أسأله : وهذه بلدة « كنج مريوط » .. وبها فنادق فخمة للسواح وأصحابها أجانب وهي مصيف جميل يحبه الانجليز ..

وخلفنا « كنج مريوط » وراءنا ، ولم نبصر بأحد في طريقنا ، إلا عند ما مررنا بمحطة السكة الحديدية ، فقد وقف بجانبها ، عند ما اقتربنا منها ، بضعة رجال من الأعراب معهم

نور المدينة ، فجاءوا يتلصصون في الظلام ، ليقبسوا في نفوسهم شيئاً مما يشهدون .

وبعد بضعة كيلومترات رحنا نخوض في ماء يغمر الطريق هو من آثار السيول التي غمرت هذه البقاع والساحل الشمالي في يوم ٦ نوفمبر الماضي [1] . وعند الساعة التاسعة مساء دخلنا قرية « برج العرب » .. !!

ولم يكن بها من صوت ولا حركة ، تدل على وجود الحياة فيها ، فقد كانت هادئة ساكنة كأنها من العدم بحيث لا يُلم عنها شيء وسط سرمدي الظلام ، حتى ولا قنديل يختلج في بيت من تلك البيوت التي يلفها الليل بثوب أدكن .. وأخذنا نطرق باب الدار التي انتوينا قضاء الليل فيها ، ولكن دون جدوى ، خيل إلينا أن من بها من صحب ، قد غادروها إلى مكان آخر يقضون فيه سهراتهم الليلية ، ثم لا يلبثون أن يعودوا . ولكن ما أدهشنا إلا نافذة تفتح في تباطؤ ، ومن خلفها صوت يقول في تبلد ، ولا تزال به لكنة النعاس : من الطارق .. ؟؟

فقلت مازحاً : أفّاق ضل الطريق في هذه الأمسية الدامسة ، فهل من مكان يقيه شر قارس البرد ، وعوادي الظلام ؟ ؟ فإذا بصاحب الصوت يقول : ما تعودنا أن نأوي الضالين في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل ، فاذهب وابحث لك عن مأوى غير هذا .

وهنا عرفت أنه قد تعرّف عليّ من صوتي ، فقد كان صديقي وزميلي ، وكنا ابني بلد واحد .. وأسرج المصباح وفتح الباب . . فسألته أكنت نائماً في هذه الساعة المبكرة ؟؟

فقال : وفيم أنفق الليل هنا ان لم يكن في النعاس . ؟ ؟

وظللنا في سمر حتى انقضى وقت كبير من الليل ، نمنا بعده كثوأمين يظلهما ذراع أم رؤوم . . !!

---

(١) نوفمبر سنة ١٩٣٨

٢ ـ أحلام الصحراء

. . . وأصبحنا فإذا القرية قد هجرها « الميجر براملي بك » على ربوة من حجر أحمر ، وعلى طراز المغرب الإفريقي وبها عدة أبراج عالية ، ولها بوابتان كبيرتان من بينهما يمر الطريق القديم الممتد بين الاسكندرية ومرسى مطروح . ولقد كانت مقرًّا لمحافظة الغرب قبل مدينة مرسى مطروح خلال العصر الحالي . .

وغادرناها الى بلدة الحمام التي تبعد عنها سبعة عشر كيلومتراً غرباً ، وفي طريقنا اليها مررنا « بالفرنانيات » . .

وليست الفرنانيات بالمدينة : أو البلدة ، وإنما هي محطة لسكة الحديد يقوم بجوارها مصنع « لتجبس » يمتلكه رجل يوناني ، وعلى مقربة منها نحو الشرق يقوم قصر منيف على ربوة وسط الصحراء الساكنة وكأنه المعبد في جلاله ورهبته ومن حوله حديقة . .

أما القصر فرائع حقًّا يبعث في النفس الجلال وقد كساه صمت الصحراء الأبدي فتنة وروعة ، فإنه ليبدو كالزاهد الذي فرّ من طغيان المدنية وفجورها واتخذ بدينه مكاناً قصيًّا . . وأما الحديقة فما أجمل تنسيقها ، وقد ألذأت صاحبة القصر الأجنبية في زاوية من زواياها حوضاً للسباحة وخميلة بديعة ، وقد قيل ولست أدري أحقيقة هذا أم إنه فرية مما تعوّد أن يهرف به الأعراب . . قيل إنها أنشأت هذا كله ، لكي يكون خلوة لها ولمن تحب . . ؟!

وبعد ما طفنا بهذا كله ، عدنا إلى الطريق مواصلين السير الى الحمام ، فإذا بها بلدة قاصرة لا بأس بها ، فيها سوق ومقاهٍ ومحطة لسكة الحديد ومركز للبوليس وتفتيش للصحة . .

وغادرناها لنسير في طريق يعتدل ويستقيم تارةً ، ويلتوي تارةً أخرى ، وطوراً يعلو مرتقياً هضبة أو تلاًّ ، وينخفض إلى قاع وادٍ فسيح طوراً آخر ، حيث تغطيه مياه الأمطار ، وفي أماكن كثيرة حفر لها الأعراب حفراً بجوار الطريق كي تتجمع فيها فتبقى صالحة نظيفة منها يشربون ويسقون الماشية ، وها هم أولاء فتيان الأعراب وفتياتهم يرعون الأغنام بين شجيرات النرجس التي تشغل مساحات واسعة من الصحراء . وإنهم ليقفون تحت الأكمة المتساقطة ، يرصلها الشمس على أجسادهم ، فتغسلها بحرارتها المستحبة ، في مثل هذا الصباح

الشيم الهواء ، وكأني بهم سعداء في مثل هذه الحياة الهادئة ، التي رسمتها يد الطبيعة الحنون ، بريشة فذة ضربت في الفن بسهم وافر من قديم الزمان ، ولم لا يكونون سعداء حقا والغيث هطل بغزارة هذا العام ، وها هي ذي الأرض قد أنبتت الحب الذي بذروه ، ولا يزال البعض منهم يحرث بذره . على ناقة أو جمل ، ويأمل أن يصيب من ورائه اليسر والرغد . .

ولقد ذكرني مرأى الفتى البدوي والفتاة الأعرابية ، من وراء الأغنام المتبعثة وسط المرج الأخضر ، بقول شوقي على لسان ابن الملوح :

أخذنا وأعطينا إذ الهم ترتعي وإذا نحن خلف الهم مستتران ... !

ألا ما أجمله من بيت يرسم حياة الحب في البادية ، وما يحويها من مناظر خلابة جميلة إن الذي يتمثل هذا المنظر الطبيعي أو يراه ، يجد أن الطبيعة التي ينشأ بينها البدوي ، هي الدافع الأول للقلب ، لأن يعشق وأن يحب . . فها هي ذي الأغنام ترعى الكلأ . وها هي ذي العيون تستجلي جمال الطبيعة الأهلي . إذن فلابد للقلب من شاغل يملأ عليه فراغه ، ويسمر حوله هذا الفضاء الواسع الشاسع . . ويجعله في حياة صاخبة وسط هذا السكون .

لابد للقلب من أمل يداعبه فيحيا من أجله ، ويخفق عند ذكراه ، ويطلي رمال الصحراء الصفراء بطلاء ساحر يحببها إليه ، ويقدسها عنده ، وليس أقدر من الحب على ذلك . فإنه لعالم روحي يحيل القفر جنة ، ويجعل من الفضاء الواسع والسكون الشامل ، عالما آخر ملؤه الأماني والأحلام .

ألا ما أمتعها من ساعة ، تلك التي يجلس فيها الفتى البدوي ، يبث نجواه الى ليلاه . التي تلقى نظرته الساذجة المفرمة . بسمة بريئة ساحرة ، هي من فيض القلب الطاهر ، الذي يخفق بين أضلاعها . وترجمان شعورها النقي ، الذي لم تشبه عوامل الخداع المادي ، والمكر الخلقي مما أدخلته المدنية على نفوس الفتيات المتحضرات من خسة وخبث . !!

إنها إن أحبته . فحبه ليس إلا . . لا تجتذبها نحوه عوامل الجاه ، والأبهة الفارغة والمال الوفير . أو منصبه الكبير . فعملهما في الحياة واحد ، وهو رعي الأغنام . وطعامهما واحد وهو حليب الشاة وخبز الشعير ، وإن أصابا شيئا عدا ذلك فيكونا من الرفاهية بمكان . والحب . الحب وحده غذاء روحيهما الذي على نوره يعيشان ويستمران قفر الصحراء . . !

إنك لو أجلت النظر في تلك البقاع المترامية الأطراف ، اللانهائية المساحة ، لرأيت بيوتهم التي يصنعونها من صوف الأغنام ، وليس فيها من شيء يدل على الرفاهية ، أو نعمة

بدوية حمناء من مريوط

العيش ، إلاّ أن قناعة نفوسهم ، وسعادتهم الروحية ، تجعلها جنة قطوفها دانية ، فيها يطوف عليهم ولدان مخلدون إن رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً .. ففيها يخلدون . وتنقضي الحياة حالة ما دام الضرع سامياً . والمطر غزيراً .. !!

فالحب في الصحراء قدس مشاع ، إذا ما حلّ سلطانه داراً ، وجد تسامحاً وحدباً ، فليس من أبناء الصحراء ، من يقيم في سبيله السدود والقيود . وإنما يتركون القلوب تهيم في جناته ، مفتشة عن سعادتها ، والأرواح سابحة في سمائه ، باحثة عن غذائها ، كما تعودوا أن يتركوا المياه في الأرض ، تسعى وراء الكلأ .. !!

فالمرعى المعشوشب يربيع الساقة .. والحب سواء أكان صاحبه سعيداً به .. أو بائساً منه ، فهو ربيع قلبه على أي حال .. وليس هناك أية قوة تستطيع أن تمنع أحداً من أن يحيا وقتاً في الربيع .. ما وجد اليه السبيل .. !!

فالوالد يحترم أحزان فتاته ، وينزل على إرادتها ، ولا يعارض فتاه ، في هواه ، فلقد درجوا جميعاً على الحرية الموروثة في دمائهم ، والتي تناقلوها أجيالاً بعد أجيال ، فلهم في الحياة متاع الى يوم يقبضون ..

وكل بدوي من هؤلاء ، يشفق على العشاق ، ويرثي لحالهم ، فلا يذكر أحد حبّاً بسوء ، أو يحدث دنيء ، وليس بينهم من يضني نفسه ، فيكلفها عناء التجسس على فتى وفتاة اختلسا من يد الزمان برهة . فيها ينعمان بسقيا الهوى ، إلاّ إذا كان غريماً مزاحماً . أكلت الغيرة قلبه .. فتله العشق ، وتيمه الهوى . وأضناه الجوى ، فأصبح لا يملك من نفسه زمامها . !!

والجميع من رجال ونساء . يستمعون ما في رنة الغناء ، من نغمة الحب . ويستطيعون بما جبلوا عليه من فراسة فطرية ، أن يعرفوا المتغني ومن يعني .. !

والفتاة البدوية لا ترغب في الانفراد في مسيرها أو مجلسها . إلاّ إذا أحبت .. فإنها لتخرج الى الفلوات ، وحيدة فريدة ، فتترنم بأنشودة من صوغ فكرها ، وهتاف قلبها ، فتشكو أصاها في هواها . وتردد في لوعة ما بنفسها من جوى وشجن ، وتبدأ هادئة حتى إذا ما اعتدم في صدرها الألم ، علا الصوت بأنغامه في ترجيع موجع ، فلعلها تسمع من تحب .

فالغناء إذن هو الوسيلة الوحيدة للترسل ، بين العاشقين من هؤلاء البدو .. فإن الصوت ليخرج دامياً من شفاه الجريح العاني منصبّاً في نفس من يعني بشدوه فلا يلبث أن يجيب وإذا ما سمع البدوي صوتاً مشجياً ، ينحدر مع الهواء الى مسمعه ، وفيه رنة آسية ،

أرهف السمع ، وأعمل الفكر . فلا يلبث طويلاً حتى يعرف صاحب الصوت ومن يعنيه في ترديده وشدوه .

وانني لأذكر أن فتاة بدوية رقيقة الحال أحبت فتىً عظيماً من فتيان العرب ، وبادلها الفتى حبًّا بحب ، وأقام على حبها حيناً من الدهر ، ثم مال عنها ، فخرجت ذات يوم لتحتطب ، على مقربة من سوق كانت عامرة ، ورغبت إليها نفسُها أن تتنفّس عنها ، فراحت تردد في أسىً وحسرة :

تعادلْ معاي زمان ومال عزيزٌ عليَّ عامرْ العرَبْ (١)

وما كاد الصوت يسري مع الهواء الى من بالسوق ، حتى انتبهوا . فقد جاءهم بحلاوة وطلاوة ، ففيه روح تسبيح ، وقلب يضطرب ، وأنفاس أحرقتها لوعة الوجد . وآلام الصد والحرمان .

وقضوا برهة وكأن على رؤوسهم الطير ، فكلهم آذان تصغي ، يتعرفون الصوت فيما بينهم حتى إذا ما انتهت من أغنيتها ، عرفوا من هي ، ومن هو المعني منها ، ذو الحظوة لديها ، وكان صاحبها في السوق ، ولقد سمع مع من سمع ، فما كان منه إلاّ أن سار الى أهلها عند المساء ، في نفر من صحبه ، وخطبها لنفسه .. !!

من هذا نلمس مافي نفس رجال العرب من إكبار للحب ، وعطف على صرعاه ، ورحمة بهم ، أما النساء فإنهن يحترمن الدموع ، إذا ماذرفها رجل ، ويقدرن بكاء الرجال ، فيهبهم العطف . وإن كنّ عنهم راغبات ، فليس من شيء يتملك قلب الفتاة كأن تجد فتى يبكي بين يديها لوعة وحبًّا . !!

ولقد أعرف صديقاً لي ، كان كثيراً ما يختلف الى مربوط ، مرتاداً أصواتها في طلب الأغنام ، للاتجار بها ، وكان يحرص دائماً على أن لا يفلت منه سوق « بهيج » لا لأنه يفضل الأسواق الأخرى في شيء ، بل لأن فتاة تأتي إليه ، ومعها نفر من خدمها والتابعين ، لتبيع ما هم في غنى عنه ، وتبتاع ما هم في حاجة إليه ، وكانت مدللة عند أبيها ، عزيزة عليه . أبوها الذي يصنع بمشيخة قبيلته ، واحترام جيرانه العرب .. وكانت ذات جمال وافر وفتنة .. !!

أحبها صاحبي دون قصد ، وأغرم بها على رغمه . ولما أن أحبها الحب كله ، تهيبها فلم

---

(١) تعادل : توازن أي وضع نفسه في مستواي ، زمان : حين من الدهر . مال : انصرف .. عزيز علي : عزيز عندي ، عامره : جدوه من عان أي أصابه بالعين .. !!

يجرؤ على التحدث إليها ، ولا الاقتراب منها ، وإنما كان يطوف بمجلسها ، وقد افترشت بساطاً من صوف ، كما يطوف الوثني بصنمه ، يتلمس منه البركات .. !!

ولكن المدى طال به ولم يرحمه وتنه ، فلم يباركه ولم يحن عليه ، فاستبد به الشجن ، وأضناه العنى ، فراح يشكو أمره وما يلقى من محنة الحب ، الى خلٍ من أبناء العشيرة ، وثق به وبإخلاصه في صداقته ، فنصحه هذا بأن يخلع ثقاب التهيب فيكون جريئاً معها ، لأن الفتاة البدوية لا تحب من الرجال الخجل ، خصوصاً في الحب .. الحب الذي هو شرعة الصحراء التي تهب بها أبناءها السعادة والنعيم ، فيستعينون بهما على إحمالها ، وما فيها من شظف العيش ، وخشونة الحياة .. !!

وكانت « حمامة » — وهذا اسمها — تصحب معها كل صوق ديكها الذي وبته .. واعتزت به ، ولم تكن لتفارقه يوماً أو بعض يوم .. وجاء يوم السوق ، وذهب صاحبي كعادته إلى محجته وبيت المطاف ، فرأى « حمامة » كعادتها على بساطها الذي كان ينظر إليه فلا يرى فيه غير بساط سليمان ، إذ الدنيا جميعها قد تجمعت فيه ، ما دامت « حمامة » متربعة في زاوية من زواياه ، ومن أمامها ديكها يزهو بريشه اللامع ، وبصاحبته الحسناء ، التي لا تمر بها عين دون أن ترنو إليها بشمنٍ وإعجاب ، وكأنما يفاخر الرجال بأنه هو صفيها ، وليس من بينهم من له عندها أقل شأن .. !

وكان صاحبي حقيقة يضمر في نفسه الحسد لهذا الديك السعيد ، لا لأنه صفيها دونه حسب .. بل ولأنه يسعد برؤياها كل يوم ، ويطعم من يدها الحب ويظفر منها بكل حُبٍ .. فما كان منه إلاّ أن تقدم من مجلسها ، واختطف الديك من أمامها ، قائلاً لها :

— « بكم هذا يا صبية . ؟؟ »

فرمجرت مستنكرة جرأته ، وقالت في صوت فيه موسيقى وفيه سحر :

— « باين عليك فلاّح .. ما هو للبيع .. !! »

فأجاب صاحبي ، وفي لهجته يبدو الوجد ، وفي نبرته تسري اللوعة :

— « ما أنا فلاّح .. ولكن بدوي مثلك يا مليحة .. ! »

وصمت لحظة وعقّب : « تاخدي فيه ريال .. ؟ »

فأجابت وقد لمست في أعطافه حنوّاً عليها ، وحناناً وميلاً إليها : « ما يجي في تسييح دمه »

فقال : « تاخدي فيه جنيه .. ؟ عشر جنيهات .. ؟؟ »

فصمتت وقد أحست ما يرمي اليه ، فألقى اليها بالريال الذي كان في يده ، ومضى والديك

يصيح في قبضته ، فما استطاعت أن تمنعه منه ، أو ترده عنه . !

وسُرّ صاحبه البدوي بما وصل اليه من نتيجة ، وعلم أنها مالت نحوه وعطفت عليه وفهمت ما قصده مما فعل ، وأكبرت فيه هذه الجرأة النادرة بالنسبة اليها ، فما استطاع أحد قبله أن يجرؤ عليها قط فيمس الديك . لذلك تركته يذهب به وهي في شبه ذهول .

وانتهز الصديق البدوي هذه الفرصة ، وراح من ناحيته يعمل على تعزيز مكانته لديها ويطريه بأطيب الذكر . ولقد قال فما قيل : إنه بدوي من أسهار خيلانها ، وأنه يعرفها دون أن تعرفه ، فداعبها بهذه الدعابة ، وكان من قبل قد اتفق معه على أن يدعي العروبة وذكر له خيلانها واحداً واحداً ، مذكراً إياه أن يدّعي النسب اليهم . لأنها إن عرفت أنه فلاح ، وليس ببدوي مثلها ، فلا له في رضائها نصيب .

فما كان من «حمامة» إذ عرفت عنه ما عرفت الا أن طلبت الى صاحبه البدوي الذي من أبناء جلدتها أن يدعوه ليشرب الشاي في خيمتهم . !

ولم يسع الصب الوامق إلا أن يقبل دعوة من يحب ويعشق ، وركب معها سائقا حتى وصلا الى النجع الذي فيه تقيم . فاذا داره خيمة من شعر ، تأنف من دخولها في أول الأمر . ولكنه إذ دخلها وجد فيها الجنة والسحر . !

فمن وسائد حريرية متناسقة الألوان ، الى بسط عجمية بديعة الرسوم ، الى أكواب من فضة ، وغير ذلك من مظاهر اليسر والرخاء .

وجالست الفتاة الضيف ، فقد كان أبوها غائباً عن الدار ، وليس بدعاً في تقاليدهم أن تحيي المرأة الضيف الى أن يحضر رجل البيت . وبذلك جاءت الخلوة تسعى ارتجالاً بين صاحبي وحمامة ، دون تدبير منه أو منها ، فأراد أن يبثها نجواه . فتكلم ولكن العبرات خنقته ، فأسكتته عن الكلام ، فاذا به يبكي على رغم منه .

قالت : أتبكي ؟ وصمّ البكاء ؟

فأجاب : لقد احتدم حبك في قلبي الذي هو صريعه من زمان بعيد ، فلم أجد ما أنفس به عن فؤادي العميد غير الدموع لعلها تخفف عنه المرجدة ، وما يضطرم فيه من حرارة النيران

وراع الفتاة أن ترى الوجد ينفذ من عينيه دموعاً ، واللوعة تسيل في عبرات فهدهدت خاطره ، وطيبت نفسه ، ثم منحته وعداً بأنها ستكون له رغم كل الظروف . له دون غيره

وجاء أبوها فقدمته اليه بأنه من أسهار خيلانها بفاقوس ، تعرفت عليه في السوق فجاءت به ، فأكرم الأب وفادة ضيف فتاته ، واحتجزه عنده أياماً ثلاثة هي مدة ضيافة العرب . ولقد كان خلال هذه الأيام الثلاث موضع الحفاوة والتجلة والاكبار من حمامة

وأبيها . ولقد وصف لي حياته خلال أيامه هذه ، بأنها كانت موشاة بأحلام صحراوية ، لا قدرة له على وصفها بالنسبة لما أضفته عليها حمامة من جلال .

وسافر مزوّداً بأطيب الأماني والآمال ممن يحب ، وأعاد الكرة خاطباً إياها لنفسه ، ولم يمانع والد حمامة فيما أرادت هي وفتاها . وذهب صاحبي لأبيه يخبره بجلية أمره ، وليصحبه معه لإتمام الزيجة التي وضعها من أمانيه في القمة . ولكن أباه عارضه أول الأمر . ولما أن وجد منه إصراراً وافقه على ما يريد ويرغب .

وقال صاحبي متمماً القصة : وضرب أبي موعداً يزيد أجله عن شهر ، فلم أحتمل الانتظار طوال هذه المدة دون أن أراها . فذهبت الى سوق بهيج لأمتع العين بالنظر الى حمامة . وما كدت أراها حتى تداركت دقات قلبي . ولكن الذي راعني هو أني وجدت من حمامة ازوراراً عني وصدوفاً وإعراضاً . !!

اضطربت نفسي . ولم أدر ما السبب ، ولكن ذهولي لم يطل به المدى . فقد أسرع اليّ صاحبي البدوي ، وسار بي قليلاً منتحياً ناحية بعيداً عنها . وأخبرني بأن أبي قد أرسل إلى أبيها يخبره بعدم صدق روايتي . وبأني فلاح ، ولا صلة لي بفلان أو فلان ، ممن ادعيت النسب إليهم . وإنه لمن الخير لي ألاّ أعود الى الظهور أمامها في ذلك خطر عَلَيّ .

وصمت صديقي الحضري لحظة ثم استطرد : وانقطع أملي منها ولم أعد أسعى الى مربوط . لا لأني خفت مغبة ذلك بل لأن حمامة احتقرتني اذ كذبت عليها ، وتنصلت من جنسيتي واحتقرت بيئتي في سبيل الوصول إليها . وما أنا بمستطيع احتمال نظرات الاحتقار تصوّب منها إليّ .

وسكتَ عن الكلام وقد رفع يده بمنديله ليجفف عبرة تجمدت على خده .

* * *

على أن القافلة اذا اهتدت بقوم أفقدتهم السعادة في كل شيء . فلقد مرّت بهؤلاء البدو أعوام ذاقوا خلالها الأمرين . إذ امتنع المطر عن الهطول ، وأكلت الأرض الجَدْبُ الذي بذروه ، فلم تنبته . وساءت الحال وعمّ القحط ، واضطر الكثيرون الى الرحيل الى وادي النيل أو الى جواره ، بعد ما باعوا جل أغنامهم بأبخس الأثمان ، ولو علمت يا قارئي أن خمسة خراف بيعت بخمسة عشر قرشاً لهالك الأمر ، ولكنه ليس بكثير على من لا يجد ما يَطْعَمَهُ أو يُطْعِمَهُ دابته التي ستهلك أمامه ، فيبيت هو وهي على الطوى أياماً ،

ليس بكثير عليه أن يضحي في سبيل الخبز والماء الذي لا يعدله شيء عندهم مطلقاً. ولقد كان الكثيرون منهم لا يجدون ما يتبلغون به غير فنجان من الشاي بين الحين والحين يحصلون عليها بأي ثمن ومن أي سبيل. وكانت الحكومة تمدهم بالمؤن بين حين وآخر وظلوا كذلك الى أن أدركتهم رحمة الله في هذا العام (١٩٣٨) فهطلت الأمطار غزيرة حتى أن السيول الناتجة عنها قطعت الطرق والخط الحديدي

* * *

... وها هو ذا البحر يتراءى لنا أثناء السير في أماكن ، ويختفي في أماكن أخرى. وإنا لنسير والخط الحديدي ملاصقه ثم نتركه لنسير بعيداً عنه .. ثم نجاوره ثانية ، وانه ليطل عن يسرى طريقنا طوراً وينخفض عنه أو يساويه طوراً آخر .. وهكذا حتى سيدي عبد الرحمن .. !!

ويجدر بنا أن نقف بإزاء سيدي عبد الرحمن برهة .. فوقعه يبعث العجب في النفس .. فإن قلنا إنه حارس الماء ، فلم لا يكون حامي الصحراء .. ؟؟ فانه ليشرف على البادية ، كما يطل على اليم ، وتعوف له الصحراء أنعام التجلة والإكبار ، على أوتار قيثارة الريح ، مرسلة إليه الوفود من ذراتها التي يحملها إليه العَجَاج (١٩) لكي تقدم اليه فروض الطاعة والاذعان ، أو كأنها الحجيج أتى يتلمس اليمن والبركات .

كما يزف اليه البحر آيات الاعزاز والايثار ، في أصوات الأمواج التي تتسابق اليه صاخبة مزمجرة . فكلاهما يتملقه ، وكلاهما يتزلف اليه .. !!

في هذه النقطة التي تبعد عن الاسكندرية ١٣٧ ك . م . تتقابل اللانهايتان . اليم بمائه والبادية برمالها .

وفي هذه النقطة أيضاً يلتقي الضدان . البحر بزمجرته التي لا تنتهي ، والصحراء بصمتها الأبدي الذي لا يفنى .

وفي هذه النقطة يجتمع النقيضان : السيولة والضجيج والعجيج . والصلابة والسكون والصمت .. !!

وهكذا جعلهما الله خصمين متجاورين منذ الأبد ، إلا أنهما يتفقان في بعض نواحيهما في التيه والغموض والإبهام ..

وتمت بالسيارة برهة استجلى الزرقة الداكنة التي تلوح عند الأفق البعيد ، وكأنها جبل أشم أغبر ، يخفي ما وراءه من أسرار ، وهذه الصفرة القاتمة التي تستتر في بعض المواقع

بعلالة صندسية كأنها العروس تحجب حسنها عن أعين الناظرين لكي تزيده فتنة وروعة ، ومن وراء هذه الخضرة الكاسية يقوم جبل أعفر يستر ما خلفه من طلاسم .. !!

وكأنما لابد لسيدي عبد الرحمن أن يقيم في هذه البقعة لكي يشهد — من فوق دهشته التي يقوم عليها — الصراع الدائم بين الضدين ، الماء واليابسة . وأن يرى حملات البحر ، وهجمات جنوده الأمواج على الشاطىء تريد أن تقتحمه فتغمر الأرض من ورائه ، إلا أنها سرعان ما تضعف وترتد مخذولة كسيرة ، فتنجلي عن صخور وأحجار ورمال . تبدو ساخرة منها ضاحكة عليها

ويرى البحر هذه السخرية اللاذعة ، وهذا التهكم الصامت الصارخ — فيثور ويجمع عزمه ، ويحمل حملة أخرى ، وثالثة ورابعة . وهكذا الى أن تنقضي الحياة الدنيا ، ولن يبلغ الثوار من الصامت شيئاً ولن ينال منه مأرباً !!

مثل طيب لرجل العمل . ورجل الكلام . هذا الصخر . وذلك الماء . !!

فالماء يزمجر ويهدد ، ويرغي ويزبد . ، ويهوش ، ثم اذا ما حمل حملة على الصخر . فلا شيء يحدثه غير أنه يتكسر على جوانبه ، ويبرز الصخر بعد ذلك نظيفاً ناصعاً . وقد رجع الماء بكل ما عليه من أتربة وغبار . !!

***

ولسيدي عبد الرحمن مكانة سامية في نفوس أهل الصحراء القريبة والجلال عظيم — وضريحه محجتهم التي يحجون اليها في كل عام حيث ينحرون النذور ويطعمون الفقراء على حبه وتيمناً به ، واذا أقسم إنسان من أهل الصحراء وكان رائده في قسمه الصدق . فبسيدي عبد الرحمن قسمه . ولقد بنى ضريحه وجامعه الخديو عباس حلمي الثاني . !!

٣ ـ الحياة في مريوط

١ ـ الطقس

الحرارة : أقصى درجة حرارة سُجلت كانت ٤٣ر٥° وذلك في يوم ٨ يوليو سنة ١٩٣٣ مع أن المعدل في هذا الشهر كان ٣٧°

أما أقل درجة للحرارة سجلت فكانت ٢ر٠° وذلك في يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٣٣ مع أن المعدل كان ٨ر٨°

الرطوبة : المتوسط اليومي يبلغ أقصاه في شهري يوليو وأغسطس حيث يبلغ ٨٠ ٪ أما حدها الأدنى ففي شهر ابريل حيث يبلغ ٧١ ٪

المطر : بلغ أقصاه في اليوم الواحد ٩٨ر٨ ملليمتراً وذلك في يوم ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٣٠

التبخر : يصل أقصاه في شهر سبتمبر حيث يصير ٨ر٧٦ م. م . في اليوم الواحد . وأقله في يناير حيث يبلغ ٦ر٤٦ م م في اليوم الواحد

الرياح : أغلبها شمالية وذلك في صيف ، أما في يناير وفبراير فتشتد الرياح الجنوبية الغربية . والغربية الشمالية ، والشمالية الغربية ، وأما الجنوبية في شهري مارس وابريل ، وأما الشرقية في مارس وابريل ومايو ، والغربية فأغلبها في شهري ديسمبر ويناير . والشمالية الغربية في شهر يوليو .

وتهب الرياح الجنوبية الغربية : والجنوبية من قلب الصحراء وتكون في هبوبها قريبة من الأرض فتحدث عواصف رملية تبلغ أشدها في مارس ، إبريل . وهذه العواصف الرملية مبيدة الأثر ، تضر بالانسان والحيوان وتفتك بالزروع . إذ أنها في هبوبها قريبة من سطح الأرض تحمل معها ذرات الرمال التي تتطاير في الأفق ، وتتكاثف في الهواء . تحدث ظلاماً شديداً ، وتحجب ضوء الشمس في بعض الأحيان .

وتبدأ العاصفة إما في أول النهار أو في أول الليل ، وتستمر نصف يوم وقد يمتد هبوبها الى أيام ، ويسمي البدو هذه العواصف الرملية « بالعجاج »

ونورة العجاج في الشتاء ، أخف وطأة منها في الصيف ، ذلك لأن عواصف الشتاء لا تطول غالباً ، وهي عند البدو بشير بسقوط المطر ، إذ لا بد لتهدئتها من أن تسقط أمطار فتغسل الأفق مما يتطاير فيه من ذرات وغبار . أما في الصيف فما لتهدئتها من سبيل الا اذا سكنت العاصفة أو تغيرت اتجاهات الرياح .

زيدة على ما تقدم فان لسقوط الأمطار فائدة أخرى ، وهي جعل الذرات المتطايرة مع الرياح تكتسب قوة التماسك بعض الشيء ، فلا تثور جميعها مع أقل النسمات الهينات عند هبوبها . أما في الصيف ، فان لحرارة الشمس الدائمة الاشراق والتي لا يحجبها الغيم ، أثراً في تبخر الماء الذي بين هذه الجزيئات المتماسكة ، فيفقدها قوة تماسكها ، فتتفكك الكتل الصغيرة ، وتصير الذرات عرضة لتطاير مع أقل عاصفة ، لذلك فهذه العواصف تكون شديدة داخل الصحراء وكلما اقتربت من منطقة سقوط الأمطار خفّت وطأتها الى أن تنتهي الى الشاطىء سحيقة أو ليس لها أثر .

٢ — القبيلة

... ويقيم العرب في بيوت من الشعر ، على هيئة مجاميع صغيرة ، تسمى كل مجموعة منها « نجعاً » .. ومجموع « النجع » .. « مجموع » .. « والنجع » وحدة « القبيلة » .. وهو إما أن يضم عائلة واحدة .. أو عدة عائلات .. ومن هذه « النجوع » المتباعدة المتناثرة في عرض الصحراء تتكوّن تلك المملكة الصغيرة ، التي يدير شؤونها رجل واحد ، نافذ الكلمة في الجميع ، مطاع لا يشذ عن إرادته أحد . وكل من خرج عليه نُبِذَ نَبْذَ النواة ، حتى وان كان من أخص خصائص القبيلة . !!

وإنهم ليقيمون بيوتهم من الشعر ، على سفوح التلال ، ومنحدرات المرتفعات والكروم (٢٠) ودائماً يجعلون الباب نحو مشرق الشمس .. وهم يجعلونها على سفوح المرتفعات لكي يتقادوا عنف العواصف والأمطار .

وليس لشيخ القبيلة أن يتحكم في مجموعة أفرادها أو يستبد ، فالدكتاتورية لا أثر لها بين البدو مطلقاً ، وانما الأمر شورى بينهم ، فلهم قانون عرفي يتعاملون به ، حتى أمام دور الحكومة .. على أن يكون التعامل به قاصراً على مشاكلهم التي لا تتعلق بأحد غير العرب .

وتشكل المحكمة العرفية للفصل بين أفراد قبيلة واحدة ، من الشيخ رئيساً ، وكبار العائلات أعضاء . وكل ما يحكمون به ، نافذ على الخصمين الذين غالباً ما يلتزمون الحكم بارتياح ورضى .

أما إذا أريد تشكيل المحكمة للفصل بين قبيلتين ، فتكون من رؤساء القبائل المجاورة ، أو في دار قسم البوليس . فإن كانت الأولى . فالرئاسة لأكبر المشايخ سنًّا . وإن كانت الثانية فالرئاسة للمأمور القسم أو من يحل محله ويقوم مقامه . وإذا ما أصدرت هذه المحكمة العرفية حكمًا ، فليس لأحد الطرفين أن يرفض قبوله ، وإلا عوقب نفسه لاتحاد الجميع ضده ، واجتماعهم على مناوأته وإيذائه . وفي هذه الحالة إما أن يجبر على القبول بواسطة أحد الأعضاء أو تكون النتيجة أن يفقد حقوقه أمام هذه الهيئة التي انعقدت للتحكيم . وهنا تكون أمامه الفرصة الأخيرة وهي أن يلجأ الى المحكمة التي يرأسها المأمور . وهنا له الحق في أن يطلب المحاكمة بقانون العرب ، أو بقانون العقوبات . ونادرة لا يلجأ أحد لقانون العقوبات إلا إذا تنسم في جانبه بعض التخفيف .

ويطلب المختصون انعقاد محكمة العرب للفصل فيما يتهم باصطلاح درجوا عليه وهو أن يقولوا (نريد الميعاد) معناها يطلبون تحديد الموعد الذي تنعقد فيه المحكمة

وإذا ما أراد المحتكم المحاكمة بقانون العقوبات أصبحت مضربة مشايخ العرب لا عمل لها ، ويحل محلهم بعض الموظفين الموجودين : المكلفين ، مجيئًا قبيلة المحكمة من المحافظة ، إذ الحكم عسكري في الصحراء وقضاته من رجال البوليس والادارة فللمأمور حق الضبط . والتحقيق والحكم . والتنفيذ . وتجري هذه الاجراءات بسرعة مدهشة ، حتى أن الواحد منهم لا يستغرق في بعض الأحيان أكثر من ثلاث ساعات حتى يكون بفضل الله وبهمة رجال الحدود الأفاضل داخل السجن بين جدران أربعة . ومن أرباب السوابق . (وأخيرًا أدخل في بعض جهاتها النظام القضائي المدني)

أما قانونهم فيقوم كله على أساس الغرامات وهو متمشٍّ مع مذهب الامام مالك والسنة النبوية إلا بعض نواحٍ شاذة لا تتفق لا مع السنة ولا مع مذهب أي امام ، حتى ولا مذهب بوذا الهندي ، واليك بعض نواحيه :

١ — في قضايا القتل

اذا قتل أحدُ أفراد قبيلة ، أحدَ أفراد قبيلة أخرى ، فعلى القبيلة التي منها القاتل أن ترحل عن منازلها ، وتنزل على قبيلة أخرى ، طالبة منها الاستجارة مما لا بد منه ، كاحتمال إغارة رجال القبيلة التي منها القتيل عليها في طلب الثأر . وتحل القبيلة التي منها القاتل تاركة منازلها وزروعها ، إن كان لها زروع ، وكل ما لا يستطيعون نقله ، نهبًا للآخرين ، ولا يستطيع أحد أن يتخلف عن الرحيل ولو لبضعة أيام ، إلا إذا اعترضوا القتال الذي فيه تراق دماء الرجال ، ومن النادر أن يحدث هذا بين قبائل أولاد علي .

والدم غالٍ عند العرب ، لا يتهاونون فيه . ولا يتركونه يذهب هباءً ، وإنما يهدرون في سبيل الدم المسفوك دماً أغلى منه عندهم وأعظم ، فلا يأخذون القاتل بدم من قتل ان كان ليس ذا شأن في القبيلة ، بل يطلبون من هو أعز مكانة منه ، حتى وان دعا الأمر لقتل الشيخ نفسه اذا استطاعوا الوصول اليه .

وقد تطول مدة الارتحال عاماً أو عامين ، وناهيك عما في ذلك من إذلال ومهانة لا يرتضيها العرب مطلقاً ، وفي خلال هذه المدة ، تبذل المساعي بين الطرفين ، من القبيلة المجيرة والقبائل المجاورة ، حتى يتفق الطرفان على الصلح ، على أساس دفع « الدية » المقررة بين العرب ، وإذا رفض أصحاب الدم قبول الدية ، وأبوا إلا الثأر ، فمعنى ذلك أن تهب القبيلة المجيرة مع التي نزلت عليها ، وتناصرها حتى تنصرها نصراً عزيزاً ، ربما تذهب في سبيله الضحايا بغير حساب .

فالبدوي لا يعرف التخلف عن العفوف إذا ما دعي داعي الجد ، وطلب النصرة والعون فكلٌ منهم مهما صغر شأنه أو عظم ، عليه أن يحمل على عاتقه جزءاً من الفادحة على قدر طوقه

والدية عند العرب تقدر بربعاية جنيه عند ما يكون القتيل رجلاً . ونصف هذا المبلغ للمرأة ، والرجل والمرأة عند العرب هو كل ذكر أو أنثى ، وإنهم ليتغالون في تقدير ذلك بعض الشيء . إذ يعتبرون « السقط » — أي الجنين الذي تلده المرأة قبل حينه — نتيجة اجهاض بسبب اعتداء أحد عليها ، فينظرون في أمره ان كانت خليقته قد تفصلت ويعتبرون الذكر كالرجل . والأنثى كالمرأة . وتدفع الدية على الأساس السابق الذكر .!

واذا ما تمَّ الصلح على أساس دفع الدية ، فعلى كل فرد من أفراد القبيلة التي منها القاتل أن يؤازر ويتعاون في جمع المبلغ ، على حسب ما يمتلكه ، وعلى قدر طاقته المالية ، فمنهم من يدفع عشرة جنيهات ، ومنهم من يدفع خمسة قروش . على أن المعتاد في دفع الدية ، أن تقسط على ثلاث سنوات ، ولا تدفع كلها نقداً بل يصح أن يدفع جزء منها أغناماً وجمالاً تقوَّم بمبلغ معين . وعند دفع القسط الأول من الدية ، فللقبيلة النازحة من منازلها أن تعود اليها ، آمنة مطمئنة ، لا يتعرض لها أحد ، ولا تخشى شيئاً من خصومها .

وتدفع الدية أيضاً اذا ولد القاتل ولداً إذ يطلبها ، أهل القتيل ، بحجة أن المرحوم لو كان على قيد الحياة لأنجب ولداً كما أنجب القاتل أو بنتاً ان كان المولود بنتاً وهكذا .

وتدفع الدية أيضاً في حالات غير هذه ، كأن يكون أحد البدو يملك جملاً أو كلباً عقوراً ذا شهرة في شراسة الخلق ، واعتدى هذا الجمل أو ذلك الكلب على أحد ، وتسبب عن هذا الاعتداء وفاة المعتدى عليه سواء أكان في التو والساعة ، أو بعد حين . هنا يُلزم صاحب

الجمل أو الكلب بدفع الدية ، أما إذا نتج عن الاعتداء بتر الساق أو الذراع أو فقد العين فتكون الدية نصفاً اذ المعتدي عليه أصبح نصف رجل أو نصف امرأة فيعوض عن النصف الآخر الذي فقده بالمال . أما اذا لم يحدث الفقد في أحد الأعضاء المزدوجة ففي هذه الحالة يجتمع مجلس العرب أيضاً ، ويأتي « النصّار » أي الطبيب الشرعي عند العرب ويقدر مبلغ الاصابة وما تستحقه من الدية وتكاليف العلاج، فلكل جرح ثمن . وللاصبع ثمن وللأسنان ثمن ، ولذا يتحدث العربي عن نفسه كانسان قائلاً : « بني آدم كله فلوس »

وفي حالات أخرى غير السابقة تدفع الدية . كأن يفتن أحد على أحد عند البوليس ويتسبب عن هذه الفتنة أن يسجن من فُتِّن عليه، ويسوء الطالع ويموت داخل السجن بانتهاء الأجل قضاءً وقدراً ، عندما يطلب أهل الميت المسجون الدية من أهل الذي فتّن عليه وتسبب بفتنته في سجنه أو يسلمونه لهم ليقتلوه بدلاً منه .

* * *

هذا في أحوال القتل العادية التي يعترف فيها القاتل أو يُثبت عليه الشهود جريمة القتل أما اذا كان القاتل مجهولاً ، وحامت الشبهة حول أحد ، وسُئل وأنكر، طُلب لأداء اليمين .

واليمين عند العرب ، ليس هو قسم كتاب الله الكريم . بل يقسمون على ضريح أحد المشايخ الموجودين بالصحراء ، فلأولياء الله في نفوس البدو مقام كبير ، يرهبون القسم على أضرحتهم أكثر من القسم على القرآن. ويعتقدون أن من يقسم على ضريح ولي من هؤلاء قسماً باطلاً فلا بد من أن يُنزل به وبأسرته القضاء قبل ثلاثة أعوام ، أما هذا القسم وقسم القتل خاصة . فلا بد من أن يؤديه المشتبه في أمره وخمسة وخمسون من عائلته ، هو يقسم بأنه لم يفعل ، وهم يقسمون على صحة قسمه ، ولا يكون هذا الانكار عادةً الاّ إذا نكث أحد العهد بعد أخذ الدية ، فقتل ممن قتلوا منهم بعد دفعهم دية قتلهم ، في هذه الحالة ينكرون إذ أن دية القتيل الثاني مضاعفة أي ٨٠٠ جنيه مصري أي ترد الدية الأولى ويسقط دم القتيل الأول وتدفع دية القتيل الثاني . هذا فيما يختص بالقتل ومشاكله . واذا امتنع أحد أفراد عائلة القاتل الذين يستحقون (من الخمسة والخمسين) عن اداء اليمين كان ذلك دليلاً على ثبوت الجريمة وتُدفع الدية .

٢ — في قضايا هتك العرض

أما في حالة ما إذا اعتدى أحد على عرض الآخر ، فانهم يتبعون في عرفهم طريقاً وديماء أرى أنهم ما ارتضوه فيما بينهم ، إلاّ محافظةً على دماء الشباب الذين يغرو بهم الشيطان ويدفعهم دافع لا يُراد نحو ارتكاب جريمة الزّنا وهتك العرض ، فانهم ليعتزّون بدم الرجل اعتزازاً غريباً ، ولا يهدرونه بأي ثمن ، وإنهم ليقدرون جميعاً أن الشيطان يظلّ للمرأة ولا ينشط العمل على الفساد الاّ اذا وجدها مع رجل في خلوة ، لذلك قدّروا وقوع الخطيئة ، في ذلك المحيط الواسع المتراحي الأطراف ، فان جعلوا دم الرجل الزاني ثمناً للعرض الذي انتهكه ، نتج عن ذلك طلب الثأر من القتلة ، وهكذا يخرجون من مصيبة ليقعوا في غيرها أشد منها وأدهى ، وتكون النتيجة فناء الرجال من جراء خطايا النساء بتكرار طلب الثأر والأخذ بالدم ، وهل يموت رجلان أو عدة رجال من أجل امرأة ؟

إن المرأة ليست من الأهمية بحيث يريقون من جراء خطيئتها الدماء .. !!

أما هذا الطريق الذي تعارفوا عليه فيتلخص في الآتي :

أولاً : فيما يتعلق بمعاملة الرجل لابنته إذا ما زنت . فإنّ قتلها ، وهذا نادر بين أولاد علي ، فليس لأحد أن يحاسبه على قتلها ، أما الزوجة فليس لزوجها أن يقتلها من جراء الخطيئة مطلقاً ، وان فعل كان عليه أن يدفع ديتها لأهلها ، فانهم ليقرون جميعاً أن المرأة ملكٌ لأهلها . أي أن أباها صاحب « العظم » فيها فهي له أولاً وأخيراً ، ويتطرفون في هذه الناحية ، فيجعلون كسب المرأة لزوجها ، أما إذا وجدت هيتاً (لقيطة) فهذا لأبيها ، لأن « اللقيطة » هبة من الله ، وكل ما يهبها الله من خير فهو للوالدين .

ثانياً : فيما يتعلق بالرجل الزاني . فقد وضعوا لذلك حدّاً لا يتخطاه إنسان وهو :

١ — اذا كانت جريمة الزنا مع امرأة « ثيب » أي لا زوج لها ، وكان مكان ارتكاب الجريمة الفلاة ، أي بعيداً عن دارها ، وكان وقوع الأمر برضاها فهذا لا حساب لها ولا ثمن .. !!

٢ — أما اذا كانت جريمة الزنا مع امرأة ثيب ، وفي دار أبيها أو أخيها . فعلى الفاعل ان يدفع مبلغ عشرة جنيهات ، كثمن لحرمة البيت الذي انتهك حرمته ، ويسمون هذه العقوبة المالية « مَعْشَب »

٣ — اذا ارتكب رجل الجريمة السابقة اغتصاباً ، أي برغم المرأة التي زنى بها ، فعليه أن يدفع عشرين جنيهاً لأبيها أو أخيها ، ويسمون هذه العقوبة المضاعفة « كَبارَة » وهي عقوبتان في آن واحد. أي عشرة جنيهات لحرمة الدار التي ارتُكبت فيها الجريمة .. وعشرة جنيهات كحق للرجل الذي هتك عرضه .. !!

٤ — اذا ارتكب رجل جريمة الزنا مع عذراء في الخلاء برضائها كانت عقوبة الرجل لا شيء .

٥ — أما اذا ارتكب الجريمة السابقة ورغم العذراء كانت عقوبته « كبارة » وذلك للاعتداء على عرض العذراء . وكذلك الأمر فيما لو كان الحادث في دار أبيها .

٦ — اذا ارتكب رجل فاحشة مع امرأة متزوجة ، في الفلاة وبرضائها ، فلا جناح عليه . أما اذا وقع الحادث في دار الزوج وبرضائها أيضاً ، فعليه أن يدفع للزوج عشرين جنيهاً « كبارة » مضافاً اليها المهر الذي دفعه الزوج فيها ، وكذلك النفقات التي أنفقها في سبيلها قبل الزواج . على شرط أن يطلق الزوج زوجه في الحال . وان أبى طلاقها فلا حق له في شيء . لا مهر ولا نفقات ولا كبارة . ومن العربان من يطلقها لينال هذه كلها ثم يردها الى عصمته ثانية . وهذا لا يقام لحادثه وزن بعد ذلك إذ تسقط حقوقه فيما بعد لو وقع له حادث كهذا .. !!

٧ — أما اذا نال رجل امرأة متزوجة في دارها اغتصاباً فعليه أن يدفع الكبارة فقط .. !!

وتتضامن القبيلة جميعها في دفع هذه الغرامات أيضاً ، كل على حسب ما يستحق كما سبق أن ذكرنا . وإنه لمن العار عند العرب أن تتخلى القبيلة عن أحد أبنائها في مثل هذه الظروف . والطريف في الأمر ان الفاعل يدفع ما يستحقه كأحد الآخرين . على أنهم جعلوا لهذه المؤازرة حداً هو في نصاب العدل تماماً . فقد جعلوا واجب المؤازرة حقاً لكل فرد في الجريمة الأولى أو الثانية بالنسبة اليه ، أما اذا كثرت جرائمه وتعددت أحداثه وتتالت أخطاؤه ، فان القبيلة تعلن بين القبائل ، انها قد تبرأت من فلان هذا ولا شأن لها به . واذا ما أعلنوا « البراوة » — كما يسمونها — بين العرب أصبحوا وهم لا يطالبون بشيء ازاء ما يرتكب هو من أخطاء . وذلك على شريطة ألاّ يؤازره أحد أفراد القبيلة سراً ويمد له يد العون في الخفاء فاذا ثبت معاونتهم له في السر وفي طيّ الخفاء ألزموا بكل ما يقع على عاتقه من غرامات ، إذ « البراوة » في هذه الحال تصبح باطلة .. !!

ومع كل ما تقدم فان المعتَب لا يُدفع كله ، ولا الكبارة كلها ، فقد جرى العرف عند العرب أن يتقدم بعض ذوي الشأن فيهم ، لأصحاب الحق ، أو لصاحب الحق ، طالبين تركه

جزء من المبلغ المقرر دفعه « لأجل الخواطر » فتلاً يتقدم شيخ مهيب لصاحب الحق ممسكاً في يده شعرات ذقنه قائلاً « علشان هذول نسيب كام » فلا يسع صاحب الحق إلا أن يترك مبلغاً لأجل ذقن هذا الشيخ فينطق قائلاً : « صبت جنبهن » ! وهكذا إلى أن ينتهي الأمر على أن يدفع الجاني جنيهاً أو أقل . . ثمناً للعرض الذي انتهك .

على أن هذه المبالغ التي تُركت إكراماً « لأجل الخواطر » لا تضيع هباءً ، وإنما هي دين على من تُركت إكراماً لهم ، وهذا الدين لا يدفعونه نقداً وعداً . بل يتركونه إكراماً لهذا الذي تركه اكراماً لهم في مثل هذه الظروف ومن الغريب أن هذا الدين يطالب به الأبناء والأحفاد . . !!

٣ — الزواج

من العوائد الموروثة عند أولاد علي ، ان الفتاة لابن عمها ، ان كان لها أبناء عم . . وما دام بنو عمها لا يزال فيهم من لم يتزوج بعد ، ولم يرفضها أو يصرح لها بالزواج من غيره ، فليس لها الى الزواج من سبيل ، حتى وان تقدم لها ألف خاطب وخاطب .

ولم يجمع « أولاد علي » على هذا العرف إلا ليضعوا حدّاً لما عساه أن يجد ويحدث من منازعات بين العائلات اذا ما تزوجت الفتيات بغرباء عنهن ، وصدرت اهانة من الزوج لزوجه . فلا بدّ لذويها من أن ينصروها على زوجها ، وبذا تبدأ المنازعات والمشاكل من جراء النساء . ولكن وهي عند ابن عمها ، فليس لها ان تطلب من أحد أن ينصرها عليه ، وليس في ظله إياها وجوره عليها أي عار على ذويها . لأنها هي منه وهو منها .

ولذلك فان الفتاة غالباً ما تنشأ مزوقاً من ابن عمها غير راغبة فيه ، متنافرة وإياه . لأنها تعلم حق العلم أنه هو نصيبها من الدنيا ، حتى وان كان مشوّهاً زريّاً . وكثيراً ما تميل بها الهوى نحو غيره ، وتكون النتيجة ان يعاقبها ابن عمها على هذا الصدود وهذا العزوف ، بأن يضيع عليها الفرصة في كل زيجة تأتيها من الخارج ، وتظل بكراً الى أن يشيب قرناها .

واذا حدث وعُقِد العقد على غريب — وهذا نادر — فلابن العم أن يفسخ هذا العقد ، وليس لأحد أن يعترض عليه فيما يفعل . ولا يمكن للوالد أن يحمي فتاته من أبناء عمها اذا طلبوها ما دامت عذراء . فبكارتها لابن عمها ، لا جدال في ذلك . فان هذّ أحد عن العرف قرطع من أهله ، وبدأت العداوات والأحقاد . وربما سالت فيها الدماء .

على أنهم جعلوا للفتاة فرصة بعد ذلك لاسترداد حريتها السليبة وحقها المضيع . وذلك بعد أن تتزوج بأسبوع ، عند ما تعود الى دار أبيها لكي تقدم لأمها . « دوار الباز » أي

حق الابن . هنا لها الحق ان تعود الى زوجها إن كانت تحبه أو وجدت من نفسها ميلاً اليه . أو لا تعود اذا كانت لا تزال نافرة منه . . !!

واذا لم تعد . قاطع الزوج أهلها . وبقي صامتاً لا يتكلم ، الى أن يظهر في أفق حياة الزوجة الثائرة ، العريس المرقوب . فإما ان يطلقها بعد ما يأخذ منه كل ما خسره فيها . يضاف اليه الكفارة . وإما ان يحتفظ بها على البعد فلا يفسح لها السبيل لكي تصل الى ما تريد . ويكون ذلك بدء العداوة بينه هو وعائلته وبين العريس الجديد وأهله .

واذا ما قبل الزوج ان يسرّح امرأته ، كان على العريس الجديد ان يقدم له المهر والنفقات التي خسرها في سبيلها ، وكذلك « كارة » لانه أفسدها عليه . ويأخذ منه مخالصة بكل هذه الحقوق . ثم يعطي لأبيها مهراً جديداً ، ويقوم بنفقات جديدة لا مندوحة عنها ، وغالباً مثل هذه الزيجات لا تفلح ، ولا يطول بها المدى ، ولا يربح صاحبها من ورائها إلاّ إيجاد عدلوات جديدة ، بينه وبين قوم ما كان ليناصبهم العداء .

أما مقدمات الزواج فيسيرة جداً ، وذلك بأن يذهب العريس أو أحد أفراد بيته لوالد العروس فيقول له : « نريد نخلط فيكم » فان كان موافقاً رحّب بهم . وبعد ذلك يرسل العريس عدداً من الخراف أو النعاج ، ومقادير من الأرز والعدس والسمن ، تُولم بها وليمة في موعد يحدده هو ، فيذهب هو ونفر من ذويه وصحبه فيأكلون ، ثم يقرؤون الفاتحة . وبعد ذلك تنطلق الاهاجات بين الجيران من العرب « بأن فلاناً ذبح في فلانة » أي خطبها ، وفلانة مذبوح فيها ، يعني مخطوبة . وإذا ذُبح فيها فليس لها أن تعمل بالأجر إن كانت ممن يشتغلن بالأجر .

وبعد يوم أو يومين يجتمع هو أو أبوه بأبيها لكي يتفقا على المهر ، وعادةً يتفقون عليه مقدماً ومؤخراً مناصفة ، فمثلاً تفرض أن الاتفاق تمّ على أن يكون المهر كله ستين جنيهاً . فيدفع مقدماً ثلاثين جنيهاً ويؤجل لمؤخر ثلاثين جنيهاً .

أما المقدم ، فيُدفع إما نقداً وعداً ، وإما أن تقوّم به أغنام وبعض مواد المعيشة ، وبعض المصاغ الفضي الذي تعوّد أن يتحلى به نساء العرب ، وتنحصر في « دملج » أي سوار من الفضة عريض جداً « وضنات » وهو قرط تُلبس في إحدى ناحيتي الأنف .

وكل هذه الأشياء المدفوعة ما عدا التي يأخذها الوالد ، فلا ينفق منها على فتاته شيئاً مطلقاً ، إذ يعتبرها من حقه كثمن لتربيته فيها . ثم على العريس بعد ذلك أن يكسو عروسه ثم يذهب فيعد له خيمة بجوار خيمة أبيه ويفرشها حسب ما يقتضيه مقامه بين العرب . وإذا ما أعد البيت جاء فأخذ العروس وسط حفل يقام فيه الزمر والطبل والغناء . وعادةً يكون

ذلك بعد الظهر بقليل ولا يدخل العريس بعروسه وإنما ينيب عنه أحد أقربائه وتجري العملية بوحشية وقسوة فقيدتين إذ يمسكها رجلان ويُفلحها رجل والخيمة مفتوحة على مصراعيها أمام الناس ، وهذه عادة موروثة من قبل الميلاد إذ كان ملك الصحراء الغربية — على ما جاء في بعض الروايات — له الليلة الأولى عند كل عروس قبل أن تزف الى زوجها

وبعد أسبوع تعود العروس لدار أبيها حاملة معها ما تستطيع حمله حسب مقدرة الزوج المالية فتقدم لأبيها « صوار اللبن » أي حق اللبن الذي أرضعتها إياه وفي هذا الوقت لها الحق في أن تعود أو لا تعود

وأما المؤخر : فالى أحد أجلين ، وهذان الأجلان كما يعبّر العرب ، إما على « عيب » أو « صوب » . والعيب : إذا ضربها أو طردها ، أو انتهك حرمتها فأجبرها على ما لم ترغبه مما يتعاوض مع الشرف . والصوب : إذا صوّب عليها غيرها ، أي إذا تزوج عليها ، في هذه الحالة لا تطلق وإنما يجهز لها بيتاً ويقطعها بعض الغنم ، إن كان صاحب غنم ، ويتركها مستقلة ، وكل ما يعطه من أجلها في هذه الحالة من مؤخر صداقها .

ولقد اتخذ بعض البدو طريقة الزواج هذه كوسيلة للكسب من وراء بناتهم إذ يزوج الأب فتاته من رجل ، وعندما تأتي في « السبوع » لا تذهب اليه ، وتبدأ بالمناورة مع رجل آخر . وهكذا ، ما دام كل مبلغ يصل الى يد الأب ، لا ينفق منه قيشاً في سبيلها . ويقولون معبرين عن هذه الحالة « فلان يتشتف من حول بنته » أي يتكسب من ورائها .

* * *

ولا يحررون العقود عند الزواج ، وإنما يعتمدون العقد عرفياً فيما بينهم ، حتى إذا ما جاء يوم السوق ، ذهبوا الى حيث يلتقون المأذون ، الذي يقوم بتحرير عقود الزيجات التي تمت جملةً واحدة ، ومنهم من لا يحرر عقداً مطلقاً .

٤ — اللغة والدين والصناعة

١ — اللغة : لغة البدو المقيمين بالصحراء الغربية أقرب الى الفصحى منها الى غيرها ولكن لهجتهم الخاصة تجعل ألفاظهم غريبة على السمع بعض الشيء ، ولهم غرام خاص بالغن في أواخر الكلمات ، وقلما يفهم الحضري عن البدوي لفظه كله أو كلامه كله لأول أو لثاني مرة ، ولم أجد أشد تبلداً من ذهن البدوي في فهم كلام الحضري إذ لا بدّ من أن تعيد على مسمعه القول مرة أو مرتين .

ولليدو اصطلاحات هنا في لغتهم نذكر منها :

ازمُطْها : ابتلعها	زَمَطْها : ابتلعها
كتْك : مالك	هُك : هناك أو هكذا
أنا بيدي : أنا فعلتها	فيما : بسرعة وهي اختصار جملة (في ساعة)
قدوس : انصراف	بنّه : عطر أو رائحة
ربعية : معزة	عويل : طفل أو أطفال

الى غير ذلك من الالفاظ التي ينبو عن الذوق ذكرها وعلاوة على ما تقدم هم مغرمون بالأمثال يضربونها للمناسبات وميلهم الى التصغير في الأسماء والاختصار فيها لا حدّ له مثال ذلك ينادون عبد الرحيم : رحومة. وعبد النبي : نبيوة . وعبد الكريم : كرومة أو كريم وعجل : عجيل . وسالم : سلومة

٢ — الدين : والدين بين البدو الاسلام . ولكنهم يكادون ألاّ يعرفوا عنه شيئاً . وكل ما يعلق بأذهانهم منه أن هذا حرام . وذاك حلال . أما الحرام فهو كل ما لا يتفق مع ميولهم . وأما الحلال فهو كل ما وافق هوى النفوس منهم والأقلة

وقليلون منهم من يؤدون فريضة الصلاة . والبدوي لا يتوضأ مطلقاً وإذا يتيمم حتى وان كثر الماء من حوله ، فانهم ليضنون بالماء أن يذهب سدًى في غير الشرب والطهي. لذلك لا يستحم الرجال إلاّ نادراً لأن الاستحمام في عرفهم مذيب للجلد ويفقده خاصية المقاومة والاحتمال لتقلبات الطقس . والرجل الذي يستحم يصير مضرب الأمثال إذ أنهم يجردون من الأوساخ التي تغطي الجلد وتتراكم عليه ملاحاً يقيهم قارس البرد في الشتاء

والنساء قلما يعتنين بنظافة غير وجوههن ، وقد تلد المرأة خمساً دون أن تستحم لذا فان لهن رائحة قذرة . والمرأة التي تعتني بنظافة نفسها هي العذراء التي تطلب الزواج . أو العزبة التي تبحث عن الزوج . وهذه وتلك اذا ما تزوجت أهملت النظافة وصارت كبقية النساء .

وتضم النساء رائحة خاصة هي مزيج من القرنفل وبعض الأعشاب البرية ذات العطور ويسمين هذه الرائحة (بنه) وهي لا تحلو إلاّ لابن العشيرة . أما الحضري فإنه يشمئز منها ويأنف رائحتها . . ! !

والمرأة لا تلبس السروال إلاّ نادراً ، والغالبية منهن يستعضن عنه بحزام عريض جداً من الصوف وغالباً ما يكون أحمر اللون . وهو عندهن بمثابة الجيب الذي تضع الريفيات فيه حوائجهن وحقيبة اليد عند المتحضرات ، ولا بد من أن تتوهج الفتيات بالجلابيب الزاهية اللون إذ يتخذن منها غطاء للرأس ، والجلباب الجديد هو الأوفق لديهن لذلك وإذا قدم بعض الشيء لبسنه وتوهجن بما هو أجد وأزهى .

وللنساء غرام خاص بالألوان الزاهية كالأصفر (الكنارية) والوردي (البنية) والأسود للحائر والوشم الأخضر في الشفاه واليدين يعتبر زينة تتحلى بها المرأة. ولذا فلما يخلو وجه واحدة منهن منه.

ومصاغهن (الشناف) وهو فردة من قرط تلبس في إحدى ناحيتي الأنف، والدملج، وهو سوار من فضة أو قصدير عريض للغاية.

والفضول، والكاعة، والكبرياء الكاذب من أهم صفات هؤلاء البدو. فلقد نشأ البدو والفضول طبيعة في دمائهم شغوفين باستطلاع الأخبار التي تسري بينهم كسريان النار في الهشيم فلا يمضي طويل وقت حتى يعلم القاصي والداني بما يقع في أي مكان صواء أكان أمراً مهماً أو غير مهم، والنفاق والخيانة طباع غريزية فيهم منذ القدم.

والبدوي درج على «الكاعة» والكبرياء الكاذب وليس أدل على ذلك من تلك الحادثة المشهورة التي وقعت بين سمو الخديو عباس حلمي الثاني، وأحد أعراب مربوط، إذ ذهب الخديو ذات يوم لمير بزراعاته هناك فرأى بدوياً يرعى غنمه. فسأله الخديو: (إيش بتدير يا شيخ العرب؟) ماذا تعمل يا شيخ العرب.

فأجاب البدوي وهو متكئ برسغه على الأرض: (بارعى الدبش) أرعى الغنم.

فسأله الخديو: في أرض من ترعى الدبش؟

فأجاب: في أرض عباس.

فسأله ألا تعرف عباساً هذا؟

فأجاب: لا والله ما ريته؟

فقال الخديو: أنا عباس.

فأجاب بكل بساطة وهو لا يزال متكئاً كما هو: أنت عبوسة؟ ازيك يا عبوسة.

وظل كما كان ضارباً (كوعه) في الأرض ينظر لمن أمامه كما لو كان ينظر لبدوي مثله.

والرجل المتزوج لا عمل له غير (ترفيم) الخيمة وحياكة الملابس للأسرة وما بقي فيلقى به على عاتق المرأة. فهي ترعى الغنم وهي التي تحتطب وتجيء بالماء وتطهي الطعام.. وتصنع الخبز كل يوم وتحلب الشاة وتغزل الصوف الى غير ذلك مما تنطلبه الحياة المنزلية البسيطة

ويصحب البدوي ولده معه في تنقلاته بين المجالس لكي يعلمه الجرأة ومقابلة الرجال، لذا تجد الولد يتحدث اليك في جرأة وبساطة ربما لا تتوفر فيمن هو أكبر منه من أبناء الحضر اما صناعتهم. فالزراعة في الشتاء، ورعي الأغنام، وصيد السمان وسنتحدث عن كل ناحية على حدة.

سيمات العرب

شُتُور = علامة قُونيس = علامة بيمة = علامة

النَّاجِرَة . الشَّاوِيَة . القَطَّارِي

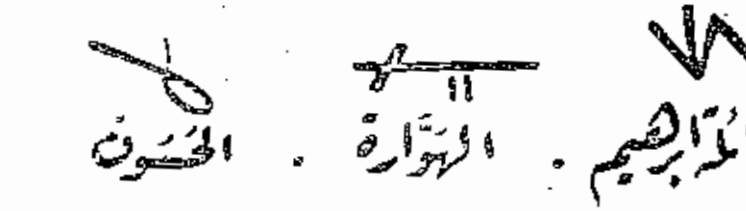

عائلة ابراهيم . الهوّارة . الحسون

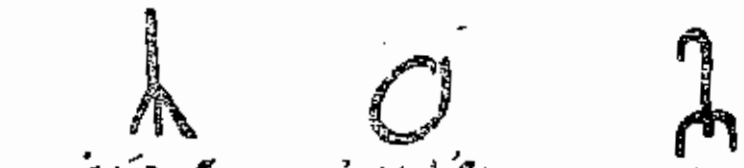

العوافير . القطعان . الفنيشات

ولكل قبيلة من البدو سمة يسمون بها ماشيتهم وآبارهم حتى يمكن تمييزها من غيرها اذا اختلطت أو اختُلِسَت فيها والتعرف عليها اذا سُرقت وهم ينطقون « سيمة » بدلاً من « سمه » . ويقولون « سيمات » بدلاً من « سيمات » .. !!